سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّاني عشر

تدقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّاني عشر

سورة النور

سورة النور

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ آيَةً، وَقِيلَ: أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْحَشْرِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

﴿سُورَةٌ﴾[2]: خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، وَ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾[3]: صِفَةٌ، أَوْ هِيَ مُبْتَدَأٌ مَوْصُوفٌ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فِيمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى: زَيْدًا ضَرَبْتُهُ، وَلَا مَحَلَّ لِأَنْزَلْنَاهَا، لِأَنَّهَا مُفَسِّرَةٌ لِلْمُضْمَرِ فَكَانَتْ فِي حُكْمِهِ، أَوْ عَلَى: دُونَكَ سُورَةً أَوِ اتْلُ سُورَةً، وَأَنْزَلْنَاهَا: صِفَةٌ.

وَمَعْنَى: ﴿فَرَضْنَاهَا﴾[4]: فَرَضْنَا أَحْكَامَهَا الَّتِي فِيهَا، وَأَصْلُ الْفَرْضِ: الْقَطْعُ، أَيْ: جَعَلْنَاهَا وَاجِبَةً مَقْطُوعًا بِهَا، وَالتَّشْدِيدُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْإِيجَابِ وَتَوْكِيدِهِ، أَوْ لِأَنَّ فِيهَا فَرَائِضَ شَتَّى، وَأَنَّكَ تَقُولُ: فُرِضَتِ الْفَرِيضَةُ، وَفُرِضَتِ الْفَرَائِضُ، أَوْ لِكَثْرَةِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿تَذَكَّرُونَ﴾[1]: بِتَشْدِيدِ الذَّالِ وَتَخْفِيفِهَا، رَفْعُهُمَا عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ عِنْدَ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ، عَلَى مَعْنَى: فِيمَا فُرِضَ عَلَيْكُمْ.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[3]، أَيْ: جَلْدُهُمَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ: ﴿فَاجْلِدُوا﴾[4]؛ وَإِنَّمَا دَخَلَتِ الْفَاءُ لِكَوْنِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ بِمَعْنَى: الَّذِي وَتَضْمِينُهُ مَعْنَى الشَّرْطِ؛ تَقْدِيرُهُ: الَّتِي زَنَتْ، وَالَّذِي زَنَى فَاجْلِدُوهُمَا، كَمَا تَقُولُ: مَنْ زَنَى فَاجْلِدُوهُ؛ وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾[5]، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ يُفَسِّرُهُ الظَّاهِرُ، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ سُورَةٍ أَنْزَلْنَاهَا لِأَجْلِ الْأَمْرِ، وَقُرِئَ: "وَالزَّانِ": بِلَا يَاءٍ، وَالْجَلْدُ: ضَرْبُ الْجِلْدِ، يُقَالُ: جَلَدَهُ؛ كَقَوْلِكَ: ظَهَرَهُ وَبَطَنَهُ وَرَأَسَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَهَذَا حُكْمُ جَمِيعِ الزُّنَاةِ وَالزَّوَانِي، أَمْ حَكْمُ بَعْضِهِمْ؟

قُلْتُ: بَلْ هُوَ حُكْمُ مَنْ لَيْسَ بِمُحْصَنٍ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ الْمُحْصَنَ حُكْمُهُ الرَّجْمُ.

وَشَرَائِطُ الْإِحْصَانِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ سِتٌّ: الْإِسْلَامُ، وَالْحُرِّيَّةُ، وَالْعَقْلُ، وَالْبُلُوغُ، وَالتَّزَوُّجُ بِنِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَالدُّخُولُ إِذَا فُقِدَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا فَلَا إِحْصَانَ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: الْإِسْلَامُ لَيْسَ بِشَرْطٍ، لِمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– رَجَمَ يَهُودِيَّيْنِ زَنَيَا ، وَحُجَّةُ أَبِي حَنِيفَةَ قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"–: "مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ".

فَإِنْ قُلْتَ: اللَّفْظُ يَقْتَضِي تَعْلِيقَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ الزُّنَاةِ وَالزَّوَانِي؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[6]: عَامٌّ فِي الْجَمِيعِ، يَتَنَاوَلُ الْمُحْصَنَ وَغَيْرَ الْمُحْصَنِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة النُّورَ، الآية 44.

[6] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي: يَدُلَّانِ عَلَى الْجِنْسَيْنِ الْمُنَافِيَيْنِ لِجِنْسَيِ الْعَفِيفِ وَالْعَفِيفَةِ؛ دَلَالَةً مُطْلَقَةً وَالْجِنْسِيَّةُ قَائِمَةٌ فِي الْكُلِّ وَالْبَعْضِ جَمِيعًا، فَأَيُّهُمَا قَصَدَ الْمُتَكَلِّمُ فَلَا عَلَيْهِ، كَمَا يُفْعَلُ بِالِاسْمِ الْمُشْتَرَكِ، وَقُرِئَ: "وَلَا يَأْخُذْكُمْ": بِالْيَاءِ، "وَرَأْفَةٌ": بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَرَآفَةٌ عَلَى فَعَالَةٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَصَلَّبُوا فِي دِينِ اللَّهِ وَيَسْتَعْمِلُوا الْجِدَّ وَالْمَتَانَةَ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذْهُمُ اللِّينُ وَالْهَوَادَةُ فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهِ، وَكَفَى بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أُسْوَةٌ فِي ذَلِكَ؛ حَيْثُ قَالَ: "لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا".

وَقَوْلُهُ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ: مِنْ بَابِ التَّهْيِيجِ وَإِلْهَابِ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ، وَقِيلَ: لَا تَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِمَا، حَتَّى لَا تُعَطِّلُوا الْحُدُودَ أَوْ حَتَّى لَا تُوجِعُوهُمَا ضَرْبًا، وَفِي الْحَدِيثِ:" يُؤْتَى بِوَالٍ نَقَصَ مِنَ الْحَدِّ سَوْطًا، فَيَقُولُ: رَحْمَةً لِعِبَادِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَأَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي؛ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَى بِمَنْ زَادَ سَوْطًا فَيَقُولُ: لِيَنْتَهُوا عَنْ مَعَاصِيكَ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ".

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُنَصِّبَ لِلْحُدُودِ رَجُلًا عَالِمًا بَصِيرًا يَعْقِلُ كَيْفَ يَضْرِبُ، وَالرَّجُلُ يُجْلَدُ قَائِمًا عَلَى مُجَرَّدِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارُهُ؛ ضَرْبًا وَسَطًا لَا مُبَرِّحًا وَلَا هَيِّنًا، مُفَرَّقًا عَلَى الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا لَا يُسْتَثْنَى مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثَةٌ: الْوَجْهُ، وَالرَّأْسُ، وَالْفَرْجُ، وَفِي لَفْظِ الْجَلْدِ: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَاوَزَ الْأَلَمُ إِلَى اللَّحْمِ، وَالْمَرْأَةُ تُجْلَدُ قَاعِدَةً، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ ثِيَابِهَا إِلَّا الْحَشْوُ وَالْفَرْوُ، وَبِهَذِهِ الْآيَةِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّ الْجَلْدَ حَدُّ غَيْرِ الْمُحْصَنِ بِلَا تَغْرِيبٍ، وَمَا احْتَجَّ بِهِ الشَّافِعِيُّ عَلَى وُجُوبِ التَّغْرِيبِ مِنْ قَوْلِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "الْبِكْرِ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ".

وَمَا يُرْوَى عَنِ الصَّحَابَةِ: أَنَّهُمْ جَلَدُوا وَنَفَوْا: مَنْسُوخٌ عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ بِالْآيَةِ، أَوْ مَحْمُولٌ عَلَى وَجْهِ التَّعْزِيرِ وَالتَّأْدِيبِ مِنْ غَيْرِ وُجُوبٍ، وَقَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي تَغْرِيبِ الْحُرِّ وَاحِدٌ، وَلَهُ فِي الْعَبْدِ ثَلَاثَةُ أَقَاوِيلَ: يُغَرَّبُ سَنَةً كَالْحُرِّ، وَيُغَرَّبُ نِصْفَ سَنَةٍ كَمَا يُجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً، وَلَا يُغَرَّبُ كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ.

وَبِهَذِهِ الْآيَةِ نَسَخَ الْحَبْسُ الْأَذَى فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾[1]، وَقَوْلِهِ –تَعَالَى–:﴿فَآذُوهُمَا﴾[2]. قِيلَ: تَسْمِيَتُهُ: "عَذَابًا" دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ عُقُوبَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى: "عَذَابًا"، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ، كَمَا سُمِّيَ: "نَكَالًا".

الطَّائِفَةُ: الْفِرْقَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَلْقَةً، وَأَقَلُّهَا ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ؛ وَهِيَ صِفَةٌ غَالِبَةٌ كَأَنَّهَا الْجَمَاعَةُ الْحَافَّةُ حَوْلَ الشَّيْءِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِهَا: أَرْبَعَةٌ إِلَى أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ، وَعَنِ الْحَسَنِ: عَشْرَةٌ، وَعَنْ قَتَادَةَ: ثَلَاثَةٌ فَصَاعِدًا، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: رَجُلَانِ فَصَاعِدًا، وَعَنْ مُجَاهِدٍ :الْوَاحِدُ فَمَا فَوْقَهُ، وَفَضَّلَ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّ الْأَرْبَعَةَ هِيَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي يَثْبُتُ بِهَا هَذَا الْحَدُّ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ هَذِهِ الْكَبِيرَةَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْكَبَائِرِ؛ وَلِهَذَا قَرَنَهَا اللَّهُ بِالشِّرْكِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[3]، وَقَالَ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾[4].

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، اتَّقُوا الزِّنَى؛ فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ: ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا اللَّاتِي فِي الدُّنْيَا: فَيُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَيُورِثُ الْفَقْرَ، وَيُنْقِصُ الْعُمْرَ، وَأَمَّا اللَّاتِي فِي الْآخِرَةِ: فَيُوجِبُ السَّخْطَةَ، وَسُوءَ الْحِسَابِ، وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ"؛ وَلِذَلِكَ وَفَّى اللَّهُ فِيهِ عَقْدَ الْمِائَةِ بِكَمَالِهِ، بِخِلَافِ حَدِّ الْقَذْفِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَشَرَعَ فِيهِ الْقِتْلَةَ الْهَوْلَةَ، وَهِيَ: الرَّجْمُ، وَنَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الرَّأْفَةِ عَلَى الْمَجْلُودِ فِيهِ، وَأَمَرَ بِشَهَادَةِ الطَّائِفَةِ لِلتَّشْهِيرِ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ طَائِفَةً يَحْصُلُ بِهَا التَّشْهِيرُ، وَالْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ لَيْسُوا بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ، وَاخْتِصَاصُهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَفْضَحُ، وَالْفَاسِقُ بَيْنَ صُلَحَاءِ قَوْمِهِ أَخْجَلُ؛ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِلَى أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ.

---

[1] سورة النِّسَاءَ، الآية 15.

[2] سورة النِّسَاءَ، الآية 16.

[3] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 68.

[4] سورة ، الآية .

﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

الْفَاسِقُ: الْخَبِيثُ، الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الزِّنَى وَالتَّقَحُّبُ، لَا يَرْغَبُ فِي نِكَاحِ الصَّوَالِحِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي عَلَى خِلَافِ صِفَتِهِ؛ وَإِنَّمَا يَرْغَبُ فِي فَاسِقَةٍ خَبِيثَةٍ مِنْ شَكْلِهِ، أَوْ فِي مُشْرِكَةٍ، وَالْفَاسِقَةُ الْخَبِيثَةُ الْمُسَافِحَةُ؛ كَذَلِكَ لَا يَرْغَبُ فِي نِكَاحِهَا الصُّلَحَاءُ مِنَ الرِّجَالِ وَيَنْفِرُونَ عَنْهَا؛ وَإِنَّمَا يَرْغَبُ فِيهَا مَنْ هُوَ مِنْ شَكْلِهَا مِنَ الْفَسَقَةِ أَوِ الْمُشْرِكِينَ، وَنِكَاحُ الْمُؤْمِنِ الْمَمْدُوحِ عِنْدَ اللَّهِ الزَّانِيَةَ وَرَغْبَتُهُ فِيهَا وَانْخِرَاطُهُ بِذَلِكَ فِي سِلْكِ الْفَسَقَةِ الْمُتَسَمِينَ بِالزِّنَى: مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ مَحْظُورٌ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالْفُسَّاقِ، وَحُضُورِ مَوْقِعِ التُّهْمَةِ، وَالتَّسَبُّبِ لِسُوءِ الْقَالَةِ فِيهِ وَالْغِيْبَةِ وَأَنْوَاعِ الْمَفَاسِدِ، وَمُجَالَسَةُ الْخَطَّائِينَ كَمْ فِيهَا مِنَ التَّعَرُّضِ لِاقْتِرَافِ الْآثَامِ، فَكَيْفَ بِمُزَاوَجَةِ الزَّوَانِي وَالْقِحَابِ؛ وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[2]، وَقِيلَ: كَانَ بِالْمَدِينَةِ مُومِسَاتٌ مِنْ بَغَايَا الْمُشْرِكِينَ، فَرَغِبَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ فِي نِكَاحِهِنَّ، فَاسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَنَزَلَتْ.

عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا زَنَى بِامْرَأَةٍ، لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا؛ لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَإِذَا بَاشَرَهَا كَانَ زَانِيًا، وَقَدْ أَجَازَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– وَشَبَّهَهُ بِمَنْ سَرَقَ ثَمَرَ شَجَرَةٍ ثُمَّ اشْتَرَاهُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: "أَوَّلُهُ سِفَاحٌ وَآخِرُهُ نِكَاحٌ، وَالْحَرَامُ لَا يُحَرِّمُ الْحَلَالَ".

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالنِّكَاحِ: الْوَطْءُ، وَلَيْسَ بِقَوْلٍ لِأَمْرَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ أَيْنَمَا وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ لَمْ تَرِدْ إِلَّا فِي مَعْنَى الْعَقْدِ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة النُّورَ، الآية 32.

– وَالثَّانِي: فَسَادُ الْمَعْنَى وَأَدَاؤُهُ إِلَى قَوْلِكَ: الزَّانِي لَا يَزْنِي إِلَّا بِزَانِيَةٍ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانٍ، وَقِيلَ: كَانَ نِكَاحُ الزَّانِيَةِ مُحَرَّمًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ؛ وَالنَّاسِخُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾[1]، وَقِيلَ: الْإِجْمَاعُ.

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ؟

قُلْتُ: مَعْنَى الْأُولَى: صِفَةُ الزَّانِي بِكَوْنِهِ غَيْرَ رَاغِبٍ فِي الْعَفَائِفِ، وَلَكِنْ فِي الْفَوَاجِرِ، وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ: صِفَةُ الزَّانِيَةِ بِكَوْنِهَا غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهَا لِلْأَعِفَّاءِ وَلَكِنْ لِلزُّنَاةِ، وَهُمَا مَعْنَيَانِ مُخْتَلِفَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قُدِّمَتِ الزَّانِيَةُ عَلَى الزَّانِي أَوَّلًا، ثُمَّ قُدِّمَ عَلَيْهَا ثَانِيًا؟

قُلْتُ: سِيقَتْ تِلْكَ الْآيَةُ لِعُقُوبَتِهِمَا عَلَى مَا جَنَيَا، وَالْمَرْأَةُ هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي مِنْهَا نَشَأَتِ الْجِنَايَةُ؛ لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تُطَمِّعِ الرَّجُلَ وَلَمْ تُومِضْ لَهُ وَلَمْ تُمَكِّنْهُ، لَمْ يَطْمَعْ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ، فَلَمَّا كَانَتْ أَصْلًا وَأَوَّلًا فِي ذَلِكَ بُدِئَ بِذِكْرِهَا، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَمَسُوقَةٌ لِذِكْرِ النِّكَاحِ وَالرَّجُلُ أَصْلٌ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الرَّاغِبُ وَالْخَاطِبُ، وَمِنْهُ يَبْدَأُ الطَّلَبُ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا يَنْكِحْ، بِالْجَزْمِ عَلَى النَّهْيِ، وَالْمَرْفُوعُ فِيهِ أَيْضًا– مَعْنَى النَّهْيِ، وَلَكِنْ أَبْلَغُ وَآكَدُ، كَمَا أَنَّ: "رَحِمَكَ اللَّهُ" وَ"يَرْحَمُكَ": أَبْلَغُ مِنْ: "لِيَرْحَمْكَ".

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا مَحْضًا. عَلَى مَعْنَى: أَنَّ عَادَتَهُمْ جَارِيَةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يُدْخِلَ نَفْسَهُ تَحْتَ هَذِهِ الْعَادَةِ وَيَتَصَوَّنُ عَنْهَا، وَقُرِئَ: "وَحَرَّمَ ": بِفَتْحِ الْحَاءِ.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]

---

[1] سورة النُّورَ، الآية 32.

[2] سورة ، الآية .

الْقَذْفُ يَكُونُ بِالزِّنَى وَبِغَيْرِهِ، وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ قَذْفُهُنَّ بِالزِّنَى شَيْئَانِ، أَحَدُهُمَا: ذِكْرُ الْمُحْصَنَاتِ عَقِيبَ الزَّوَانِي، وَالثَّانِي: اشْتِرَاطُ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؛ لِأَنَّ الْقَذْفَ بِغَيْرِ الزِّنَى يَكْفِي فِيهِ شَاهِدَانِ، وَالْقَذْفُ بِالزِّنَى أَنْ يَقُولَ الْحُرُّ الْعَاقِلُ الْبَالِغُ لِمُحْصَنَةٍ: يَا زَانِيَةُ، أَوْ لِمُحْصَنٍ: يَا زَانِي، يَا ابْنَ الزَّانِي، يَا ابْنَ الزَّانِيَةِ، يَا وَلَدَ الزِّنَا، لَسْتَ لِأَبِيكَ، لَسْتَ لِرِشْدَةٍ، وَالْقَذْفُ بِغَيْرِ الزِّنَا أَنْ يَقُولَ: يَا آكِلَ الرِّبَا، يَا شَارِبَ الْخَمْرِ، يَا يَهُودِيُّ، يَا مَجُوسِيُّ، يَا فَاسِقُ، يَا خَبِيثُ، يَا مَاصَّ بَظْرِ أُمِّهِ: فَعَلَيْهِ التَّعْزِيرُ، وَلَا يَبْلُغُ بِهِ أَدْنَى حَدِّ الْعَبِيدِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ، بَلْ يُنْقَصُ مِنْهُ.

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ: يَجُوزُ أَنْ يُبْلَغَ بِهِ تِسْعَةٌ وَسَبْعُونَ، وَقَالَ: لِلْإِمَامِ أَنْ يُعَزِّرَ إِلَى الْمِائَةِ، وَشُرُوطُ إِحْصَانِ الْقَذْفِ خَمْسَةٌ: الْحُرِّيَّةُ، وَالْبُلُوغُ، وَالْعَقْلُ، وَالْإِسْلَامُ، وَالْعِفَّةُ. وَقُرِئَ: "بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ ": بِالتَّنْوِينِ، وَشُهَدَاءَ: صِفَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَشْهَدُونَ مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ.

قُلْتُ: الْوَاجِبُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– أَنْ يَحْضُرُوا فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، وَإِنْ جَاءُوا مُتَفَرِّقِينَ كَانُوا قَذَفَةً، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يَجُوزُ أَنْ يَحْضُرُوا مُتَفَرِّقِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ زَوْجُ الْمَقْذُوفَةِ وَاحِدًا مِنْهُمْ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُجْلَدُ الْقَاذِفُ؟

قُلْتُ: كَمَا جُلِدَ الزَّانِي؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُنْزَعُ عَنْهُ مِنْ ثِيَابِهِ إِلَّا مَا يُنْزَعُ عَنِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْحَشْوِ وَالْفَرْوِ، وَالْقَاذِفَةُ أَيْضًا– كَالزَّانِيَةِ، وَأَشَدُّ الضَّرْبِ ضَرْبُ التَّعْزِيرِ، ثُمَّ ضَرْبُ الزِّنَا، ثُمَّ ضَرْبُ شُرْبِ الْخَمْرِ، ثُمَّ ضَرْبُ الْقَاذِفِ، قَالُوا: لِأَنَّ سَبَبَ عُقُوبَتِهِ مُحْتَمِلٌ لِلصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، إِلَّا أَنَّهُ عُوقِبَ صِيَانَةً لِلْأَعْرَاضِ وَرَدْعًا عَنْ هَتْكِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَقْذُوفُ مُحْصَنًا؟

قُلْتُ: يُعَزَّرُ الْقَاذِفُ وَلَا يُحَدُّ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَقْذُوفُ مَعْرُوفًا بِمَا قُذِفَ بِهِ فَلَا حَدَّ وَلَا تَعْزِيرَ، رَدُّ شَهَادَةِ الْقَاذِفِ مُعَلَّقٌ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بِاسْتِيفَاءِ الْحَدِّ، فَإِذَا شَهِدَ قَبْلَ الْحَدِّ أَوْ قَبْلَ تَمَامِ اسْتِيفَائِهِ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، فَإِذَا اسْتَوْفَى لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ أَبَدًا وَإِنْ تَابَ وَكَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ الْأَتْقِيَاءِ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يَتَعَلَّقُ رَدُّ شَهَادَتِهِ بِنَفْسِ الْقَذْفِ، فَإِذَا تَابَ عَنِ الْقَذْفِ بِأَنْ رَجَعَ عَنْهُ، عَادَ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، وَكِلَاهُمَا مُتَمَسِّكٌ

بِالْآيَةِ، فَأَبُو حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– جَعَلَ جَزَاءَ الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ الرَّمْيُ: الْجَلْدَ، وَرَدَّ الشَّهَادَةَ عَقِيبَ الْجَلْدِ عَلَى التَّأْبِيدِ، فَكَانُوا مَرْدُودِي الشَّهَادَةِ عِنْدَهُ فِي أَبَدِهِمْ وَهُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِمْ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]: كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي حَيِّزِ جَزَاءِ الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ حِكَايَةُ حَالِ الرَّامِينَ عِنْدَ اللَّهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ.

وَ﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا﴾ :[2]اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3] وَالشَّافِعِيُّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– جَعَلَ جَزَاءَ الشَّرْطِ الْجُمْلَتَيْنِ أَيْضًا– غَيْرَ أَنَّهُ صَرَفَ الْأَبَدَ إِلَى مُدَّةِ كَوْنِهِ قَاذِفًا، وَهِيَ تَنْتَهِي بِالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الْقَذْفِ وَجَعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ مُتَعَلِّقًا بِالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَحَقُّ الْمُسْتَثْنَى عِنْدَهُ أَنْ يَكُونَ مَجْرُورًا بَدَلًا مِنْ "هُمْ" فِي: "لَهُمْ"، وَحَقُّهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا؛ لِأَنَّهُ عَنْ مُوجَبٍ، وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَنَظْمُهَا أَنْ تَكُونَ الْجُمَلُ الثَّلَاثُ بِمَجْمُوعِهِنَّ جَزَاءَ الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَنْ قَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ فَاجْلِدُوهُمْ وَرُدُّوا شَهَادَتَهُمْ وَفَسِّقُوهُمْ، أَيْ: فَاجْمَعُوا لَهُمُ الْجَلْدَ وَالرَّدَّ وَالتَّفْسِيقَ؛ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا عَنِ الْقَذْفِ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُمْ فَيَنْقَلِبُونَ غَيْرَ مَجْلُودِينَ وَلَا مَرْدُودِينَ وَلَا مُفَسَّقِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْكَافِرُ يَقْذِفُ فَيَتُوبُ عَنِ الْكُفْرِ فَتُقْبَلُ شَهَادَتُهُ بِالْإِجْمَاعِ، وَالْقَاذِفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتُوبُ عَنِ الْقَذْفِ فَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– كَأَنَّ الْقَذْفَ مَعَ الْكُفْرِ أَهْوَنُ مِنَ الْقَذْفِ مَعَ الْإِسْلَامِ؟

قُلْتُ: الْمُسْلِمُونَ لَا يَعْبَئُونَ بِسَبِّ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ شُهِّرُوا بِعَدَاوَتِهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْبَاطِلِ؛ فَلَا يَلْحَقُ الْمَقْذُوفُ بِقَذْفِ الْكَافِرِ مِنَ الشَّيْنِ وَالشَّنَارِ مَا يَلْحَقُهُ بِقَذْفِ مُسْلِمٍ مِثْلِهِ، فَشَدَّدَ عَلَى الْقَاذِفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدْعًا وَكَفًّا عَنْ إِلْحَاقِ الشَّنَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِلْمَقْذُوفِ أَوْ لِلْإِمَامِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ حَدِّ الْقَاذِفِ؟

قُلْتُ: لَهُمَا ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَشْهَدَ الشُّهُودُ وَيَثْبُتَ الْحَدُّ، وَالْمَقْذُوفُ مَنْدُوبٌ إِلَى أَلَّا يُرَافِعَ الْقَاذِفَ وَلَا يُطَالِبَهُ بِالْحَدِّ، وَيَحْسُنُ مِنَ الْأَمَامِ أَنْ يَحْمِلَ الْمَقْذُوفَ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ، وَيَقُولَ لَهُ: أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَدَعْهُ لِوَجْهِ اللَّهِ قَبْلَ ثَبَاتِ الْحَدِّ، فَإِذَا ثَبَتَ لَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَعْفُوَ؛ لِأَنَّهُ خَالِصُ حَقِّ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُصَالَحَ عَنْهُ بِمَالٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يُوَرَّثُ الْحَدُّ؟

قُلْتُ: عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَا يُوَرَّثُ؛ لِقَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْحَدُّ لَا يُوَرَّثُ"، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: يُوَرَّثُ.

وَإِذَا تَابَ الْقَاذِفُ قَبْلَ أَنْ يَثْبُتَ الْحَدُّ سَقَطَ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حِينَ تَابَ مِمَّا قَالَ فِي عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]

قَاذِفُ امْرَأَتِهِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا حُرًّا بَالِغًا عَاقِلًا، غَيْرَ مَحْدُودٍ فِي الْقَذْفِ، وَالْمَرْأَةُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَعَ الْعِفَّةِ: صَحَّ اللِّعَانُ بَيْنَهُمَا، إِذَا قَذَفَهَا بِصَرِيحِ الزِّنَى، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: يَا زَانِيَةُ، أَوْ زَنَيْتِ، أَوْ رَأَيْتُكَ تَزْنِينَ، وَإِذَا كَانَ الزَّوْجُ عَبْدًا، أَوْ مَحْدُودًا فِي قَذْفٍ، وَالْمَرْأَةُ مُحْصَنَةٌ: حُدَّ كَمَا فِي قَذْفِ الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَمَا لَمْ تَرَافِعْهُ إِلَى الْإِمَامِ لَمْ يَجِبِ اللِّعَانُ، وَاللِّعَانُ: أَنْ يَبْدَأَ الرَّجُلُ فَيَشْهَدُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَى، وَيَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَى، وَتَقُولُ الْمَرْأَةُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَانِي بِهِ مِنَ الزِّنَى، ثُمَّ تَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَانِي بِهِ مِنَ الزِّنَى.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: يُقَامُ الرَّجُلُ قَائِمًا حَتَّى يَشْهَدَ وَالْمَرْأَةُ قَاعِدَةٌ، وَتُقَامُ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ قَاعِدٌ حَتَّى تَشْهَدَ، وَيَأْمُرُ الْإِمَامُ مَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى فِيهِ وَيَقُولُ لَهُ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ لَمْ تَكُنْ صَادِقًا أَنْ تَبُوءَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَقَالَ: اللِّعَانُ بِمَكَّةَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْبَيْتِ، وَبِالْمَدِينَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي مَسْجِدِهِ، وَلِعَانُ الْمُشْرِكِ فِي الْكَنِيسَةِ،

---

[1] سورة ، الآية .

وَحَيْثُ يُعَظَّمُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ دِينٌ فَفِي مَسَاجِدِنَا إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[1].

ثُمَّ يُفَرِّقُ الْقَاضِي بَيْنَهُمَا، وَلَا تَقَعُ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِتَفْرِيقِهِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– إِلَّا عِنْدَ زُفَرَ؛ فَإِنَّ الْفُرْقَةَ تَقَعُ بِاللِّعَانِ، وَعَنْ عُثْمَانَ الْبَتِّيِّ: لَا فُرْقَةَ أَصْلًا، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: تَقَعُ بِلِعَانِ الزَّوْجِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْفُرْقَةُ فِي حُكْمِ التَّطْلِيقَةِ الْبَائِنَةِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– وَلَا يَتَأَبَّدُ حُكْمُهَا، فَإِذَا أَكْذَبَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَحُدَّ جَازَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَزُفَرَ وَالْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ وَالشَّافِعِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–: هِيَ فُرْقَةٌ بِغَيْرِ طَلَاقٍ تُوجِبُ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، لَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَجْتَمِعَا بَعْدَ ذَلِكَ بِوَجْهٍ.

وَرُوِيَ أَنَّ آيَةَ الْقَذْفِ لَمَّا نَزَلَتْ، قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– فَقَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، إِنْ وَجَدَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَأَخْبَرَ جُلِدَ ثَمَانِينَ وَرُدَّتْ شَهَادَتُهُ أَبَدًا وَفُسِّقَ، وَإِنْ ضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ قُتِلَ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَإِلَى أَنْ يَجِيءَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَقَدْ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَمَضَى: اللَّهُمَّ افْتَحْ، وَخَرَجَ فَاسْتَقْبَلَهُ هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ أَوْ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: شَرٌّ: وَجَدْتُ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ –وَهِيَ بِنْتُ عَاصِمٍ– شَرِيكَ بْنَ سَحْمَاءَ، فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ سُؤَالِي، مَا أَسْرَعَ مَا ابْتُلِيتُ بِهِ! فَرَاجَعَا، فَأَخْبَرَ عَاصِمٌ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَكَلَّمَ خَوْلَةَ فَقَالَتْ: لَا أَدْرِي، أَلِغَيْرَةٍ أَدْرَكَتْهُ؟ أَمْ بُخْلًا عَلَى الطَّعَامِ – وَكَانَ شَرِيكٌ نَزِيلَهُمْ– وَقَالَ هِلَالٌ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ عَلَى بَطْنِهَا؛ فَنَزَلَتْ، وَلَاعَنَ بَيْنَهُمَا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عِنْدَ قَوْلِهِ وَقَوْلِهَا: أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِنَّ غَضَبَ اللَّهَ عَلَيْهَا: آمِينَ، وَقَالَ الْقَوْمُ: آمِينَ، وَقَالَ لَهَا: "إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاعْتَرِفِي بِهِ، فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، إِنَّ غَضَبَهُ هُوَ النَّارُ، وَقَالَ: تَحَيَّنُوا بِهَا الْوِلَادَةَ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ أُثَيْبِجَ يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ، فَهُوَ لِشَرِيكٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا جَمَالِيًّا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِغَيْرِ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: فَجَاءَتْ بِأَشْبَهَ خَلْقِ اللَّهِ لِشَرِيكٍ، فَقَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ".

---

[1] سورة التَّوْبَةَ، الآية 28.

وَقُرِئَ: "وَلَمْ تَكُنْ"؛ بِالتَّاءِ؛ لِأَنَّ الشُّهَدَاءَ جَمَاعَةٌ، أَوْ لِأَنَّهُمْ فِي مَعْنَى الْأَنْفُسِ الَّتِي هِيَ بَدَلٌ، وَوَجَّهَ مَنْ قَرَأَ أَرْبَعَ أَنْ يَنْتَصِبَ؛ لِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْمَصْدَرِ وَالْعَامِلُ فِيهِ الْمَصْدَرُ الَّذِي هُوَ:﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾[1]، وَهِيَ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ الْخَبَرِ، تَقْدِيرُهُ: وَاجِبُ شَهَادَةِ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ.

وَقُرِئَ: "أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ"، وَ"أَنْ غَضَبُ اللَّهِ": عَلَى تَخْفِيفِ أَنْ وَرَفْعِ مَا بَعْدَهَا، وَقُرِئَ: "أَنْ غَضِبَ اللَّهُ": عَلَى فِعْلِ الْغَضَبِ، وَقُرِئَ: بِنَصْبِ الْخَامِسَتَيْنِ، عَلَى مَعْنَى: وَتَشْهَدُ الْخَامِسَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خُصَّتِ الْمُلَاعَنَةُ بِأَنْ تُخَمَّسَ بِغَضَبِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: تَغْلِيظًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ أَصْلُ الْفُجُورِ وَمَنْبَعُهُ بِخِلَابَتِهَا وَإِطْمَاعِهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُقَدَّمَةً فِي آيَةِ الْجَلْدِ؛ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –لِخَوْلَةَ: "فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ".

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[2]

الْفَضْلُ: التَّفَضُّلُ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾[3]: مَتْرُوكٌ، وَتَرْكُهُ دَالٌّ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ لَا يُكْتَنَهُ، وَرُبَّ مَسْكُوتٍ عَنْهُ أَبْلَغُ مِنْ مَنْطُوقٍ بِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

الْإِفْكُ: أَبْلَغُ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ، وَقِيلَ: هُوَ الْبُهْتَانُ لَا تَشْعُرُ بِهِ حَتَّى يَفْجَأَكَ، وَأَصْلُهُ: الْأَفْكُ، وَهُوَ الْقَلْبُ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مَأْفُوكٌ عَنْ وَجْهِهِ، وَالْمُرَادُ: مَا أُفِكَ بِهِ عَلَى عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–.

وَالْعُصْبَةُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الْعَشْرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ، وَكَذَلِكَ الْعِصَابَةُ، وَاعْصَوْصَبُوا: اجْتَمَعُوا، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ رَأْسُ النِّفَاقِ، وَزَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَمِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَمَنْ سَاعَدَهُمْ، وَقُرِئَ: "كُبْرَهُ": بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ، وَهُوَ عِظَمُهُ، وَالَّذِي تَوَلَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ؛ لِإِمْعَانِهِ فِي عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَانْتِهَازِهِ الْفُرَصَ، وَطَلَبِهِ سَبِيلًا إِلَى الْغَمِيزَةِ.

أَيْ: يُصِيبُ كُلَّ خَائِضٍ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ مِنْ تِلْكَ الْعُصْبَةِ نَصِيبُهُ مِنَ الْإِثْمِ عَلَى مِقْدَارِ خَوْضِهِ، وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ لِعَبْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ الشَّرِّ كَانَ مِنْهُ.

يُحْكَى أَنَّ صَفْوَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– مَرَّ بِهَوْدَجِهَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَلَإٍ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: عَائِشَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– فَقَالَ: وَاللَّهِ، مَا نَجَتْ مِنْهُ وَلَا نَجَا مِنْهَا، وَقَالَ: امْرَأَةُ نَبِيِّكُمْ بَاتَتْ مَعَ رَجُلٍ حَتَّى أَصْبَحَتْ ثُمَّ جَاءَ يَقُودُهَا.

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1]: لِمَنْ سَاءَهُ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاصَّةً رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَبَا بَكْرٍ ، وَعَائِشَةَ ، وَصَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–.

وَمَعْنَى كَوْنِهِ خَيْرًا لَهُمْ: أَنَّهُمُ اكْتَسَبُوا فِيهِ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَلَاءً مُبِينًا وَمِحْنَةً ظَاهِرَةً، وَأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَا هُوَ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَسْلِيَةٌ لَهُ، وَتَنْزِيهٌ لِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ –رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا– وَتَطْهِيرٌ لِأَهْلِ الْبَيْتِ، وَتَهْوِيلٌ لِمَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ أَوْ سَمِعَ بِهِ فَلَمْ تَمُجَّهُ أُذُنَاهُ، وَعِدَّةُ أَلْطَافٍ لِلسَّامِعِينَ وَالتَّالِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفَوَائِدُ دِينِيَّةٌ، وَأَحْكَامٌ وَآدَابٌ لَا تَخْفَى عَلَى مُتَأَمِّلِيهَا.

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[2]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]، أَيْ: بِالَّذِينِ مِنْهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[2].

وَذَلِكَ نَحْوَ مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ لِأُمِّ أَيُّوبَ: أَلَا تَرَيْنَ مَا يُقَالُ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كُنْتَ بَدَلَ صَفْوَانَ أَكُنْتَ تَظُنُّ بِحُرْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُوءًا؟ قَالَ: لَا، قَالَتْ: وَلَوْ كُنْتُ أَنَا بَدَلَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مَا خُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَعَائِشَةُ خَيْرٌ مِنِّي، وَصَفْوَانُ خَيْرٌ مِنْكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ خَيْرًا وَقُلْتُمْ؟ وَلِمَ عَدَلَ عَنِ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَعَنِ الضَّمِيرِ إِلَى الظَّاهِرِ؟

قُلْتُ: لِيُبَالِغَ فِي التَّوْبِيخِ بِطَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، وَلِيُصَرِّحَ بِلَفْظِ الْإِيمَانِ؛ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِيهِ مُقْتَضٍ أَنْ لَا يُصَدِّقَ مُؤْمِنٌ عَلَى أَخِيهِ، وَلَا مُؤْمِنَةٌ عَلَى أُخْتِهَا قَوْلَ غَائِبٍ وَلَا طَاعِنٍ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ إِذَا سَمِعَ قَالَةً فِي أَخِيهِ، أَنْ يَبْنِيَ الْأَمْرَ فِيهَا عَلَى الظَّنِّ لَا عَلَى الشَّكِّ، وَأَنْ يَقُولَ بِمَلْءِ فِيهِ بِنَاءً عَلَى ظَنِّهِ بِالْمُؤْمِنِ الْخَيْرَ: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[3]؛ هَكَذَا بِلَفْظِ الْمُصَرِّحِ بِبَرَاءَةِ سَاحَتِهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُسْتَيْقِنُ الْمُطَّلِعُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ، وَهَذَا مِنَ الْأَدَبِ الْحَسَنِ الَّذِي قَلَّ الْقَائِمُ بِهِ وَالْحَافِظُ لَهُ، وَلَيْتَكَ تَجِدُ مَنْ يَسْمَعُ فَيَسْكُتُ وَلَا يُشِيعُ مَا سَمِعَهُ بِأَخَوَاتٍ.

﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 11.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

جَعَلَ اللَّهُ التَّفْصِلَةَ بَيْنَ الرَّمْيِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ: ثُبُوتَ شَهَادَةِ الشُّهُودِ الْأَرْبَعَةِ وَانْتِفَاءَهَا، وَالَّذِينَ رَمَوْا عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– لَمْ تَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَةٌ عَلَى قَوْلِهِمْ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَكَانُوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾[1]، أَيْ: فِي حُكْمِهِ وَشَرِيعَتِهِ كَاذِبِينَ.

وَهَذَا تَوْبِيخٌ وَتَعْنِيفٌ لِلَّذِينِ سَمِعُوا الْإِفْكَ فَلَمْ يَجِدُّوا فِي دَفْعِهِ وَإِنْكَارِهِ، وَاحْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ بِمَا هُوَ ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ فِي الشَّرْعِ: مِنْ وُجُوبِ تَكْذِيبِ الْقَاذِفِ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَالتَّنْكِيلِ بِهِ إِذَا قَذَفَ امْرَأَةً مُحْصَنَةً مِنْ عَرْضِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ الصِّدِّيقَةِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ حُرْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَحَبِيبَةِ حَبِيبِ اللَّهِ؟

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[2]

لَوْلَا الْأُولَى: لِلتَّحْضِيضِ، وَهَذِهِ لِامْتِنَاعِ الشَّيْءِ لِوُجُودِ غَيْرِهِ، وَالْمَعْنَى: وَلَوْلَا أَنِّي قَضَيْتُ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِضُرُوبِ النِّعَمِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا الْإِمْهَالُ لِلتَّوْبَةِ، وَأَنْ أَتَرَحَّمَ عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ، لَعَاجَلْتُكُمْ بِالْعِقَابِ عَلَى مَا خُضْتُمْ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الْإِفْكِ، يُقَالُ: أَفَاضَ فِي الْحَدِيثِ، وَانْدَفَعَ، وَهَضَبَ، وَخَاضَ.

﴿إِذْ﴾[3]: ظَرْفٌ لِمَسَّكُمْ، أَوْ لِأَفَضْتُمْ، ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾[4]: يَأْخُذُهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، يُقَالُ: تَلَقَّى الْقَوْلَ وَتَلَقَّنَهُ وَتَلَقَّفَهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[5]، وَقُرِئَ عَلَى الْأَصْلِ: "تَتَلَقَّوْنَهُ" وَ"إِذْ تَلَقَّوْنَهُ": بِإِدْغَامِ الذَّالِ فِي التَّاءِ، وَ"تَلْقَوْنَهُ"، مِنْ لَقِيَهُ بِمَعْنَى: لَقِفَهُ، وَ"تُلْقُونَهُ": مِنْ إِلْقَائِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَ"تُلْقُونَهُ" وَ"تَأْلِقُونَهُ"، مِنَ الْوَلْقِ وَالْأَلْقِ: وَهُوَ الْكَذِبُ، وَ"تُلْقُونَهُ": مَحْكِيَّةٌ عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 37.

وَعَنْ سُفْيَانَ سَمِعْتُ أُمِّي تَقْرَأُ: "إِذْ تَثْقَفُونَهُ"، وَكَانَ أَبُوهَا يَقْرَأُ بِحَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[1]، وَالْقَوْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفَمِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الشَّيْءَ الْمَعْلُومَ يَكُونُ عِلْمُهُ فِي الْقَلْبِ، فَيُتَرْجِمُ عَنْهُ اللِّسَانُ، وَهَذَا الْإِفْكُ لَيْسَ إِلَّا قَوْلًا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ وَيَدُورُ فِي أَفْوَاهِكُمْ مِنْ غَيْرِ تَرْجَمَةٍ عَنْ عِلْمٍ بِهِ فِي الْقَلْبِ؛ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2]، أَيْ: تَحْسَبُونَهُ صَغِيرَةً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَبِيرَةٌ وَمُوجِبَةٌ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: فَقَالَ: أَخَافُ ذَنْبًا لَمْ يَكُنْ مِنِّي عَلَى بَالٍ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَفِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ: لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ مِنْ سَيِّئَاتِكَ حَقِيرٌ، فَلَعَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ نَخْلَةٌ وَهُوَ عِنْدَكَ نَقِيرٌ، وَصَفَهُمْ بِارْتِكَابِ ثَلَاثَةِ آثَامٍ وَعَلَّقَ مَسَّ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ بِهَا.

– أَحَدُهَا: تَلَقِّي الْإِفْكِ بِأَلْسِنَتِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا وَرَاءَكَ؟ فَيُحَدِّثُهُ بِحَدِيثِ الْإِفْكِ حَتَّى شَاعَ وَانْتَشَرَ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ وَلَا نَادٍ إِلَّا طَارَ فِيهِ.

– وَالثَّانِي: التَّكَلُّمُ مِمَّا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ، وَالثَّالِثُ: اسْتِصْغَارُهُمْ لِذَلِكَ وَهُوَ عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَظَائِمِ.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ الْفَصْلُ بَيْنَ لَوْلَا وَقُلْتُمْ؟

قُلْتُ: لِلظُّرُوفِ شَأْنٌ وَهُوَ تَنَزُّلُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ مَنْزِلَةَ أَنْفُسِهَا؛ لِوُقُوعِهَا فِيهَا، وَأَنَّهَا لَا تَنْفَكُّ عَنْهَا؛ فَلِذَلِكَ يُتَّسَعُ فِيهَا مَا لَا يُتَّسَعُ فِي غَيْرِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ حَتَّى أُوقِعَ فَاصِلًا؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 167.

[3] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ: بَيَانُ أَنَّهُ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَفَادَوْا أَوَّلَ مَا سَمِعُوا بِالْإِفْكِ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْوَقْتِ أَهَمَّ وَجَبَ التَّقْدِيمُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى يَكُونُ، وَالْكَلَامُ بِدُونِهِ مُنْتَظِمٌ لَوْ قِيلَ: مَا لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ مَعْنَى: يَنْبَغِي، وَيَصِحُّ، أَيْ: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، وَمَا يَصِحُّ لَنَا؛ وَنَحْوُهُ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ.

وَ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [1] لِلتَّعَجُّبِ مِنْ عِظَمِ الْأَمْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى التَّعَجُّبِ فِي كَلِمَةِ التَّسْبِيحِ؟

قُلْتُ: الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ: أَنْ يُسَبِّحَ اللَّهَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَجِيبِ مِنْ صَنَائِعِهِ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ مُتَعَجَّبٍ مِنْهُ، أَوْ لِتَنْزِيهِ اللَّهِ -تَعَالَى- مِنْ أَنْ تَكُونَ حُرْمَةُ نَبِيِّهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَاجِرَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةُ النَّبِيِّ كَافِرَةً كَامْرَأَةِ نُوحٍ وَلُوطٍ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَكُونَ فَاجِرَةً؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَبْعُوثُونَ إِلَى الْكُفَّارِ لِيَدْعُوَهُمْ وَيَسْتَعْطِفُوهُمْ، فَيَجِبُ أَلَّا يَكُونَ مَعَهُمْ مَا يُنَفِّرُهُمْ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنِ الْكُفْرُ عِنْدَهُمْ مِمَّا يُنَفِّرُ.

وَأَمَّا الْخَشْخَنَةُ، فَمِنْ أَعْظَمِ الْمُنَفِّرَاتِ.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [2]

أَيْ: كَرَاهَةَ ﴿أَنْ تَعُودُوا﴾ [3]، أَوْ فِي أَنْ تَعُودُوا؛ مِنْ قَوْلِكَ: وَعَظْتُ فُلَانًا فِي كَذَا فَتَرَكَهُ، وَأَبَدَهُمْ مَا دَامُوا أَحْيَاءَ مُكَلَّفِينَ.

وَ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [4]: فِيهِ تَهْيِيجٌ لَهُمْ لِيَتَّعِظُوا، وَتَذْكِيرٌ بِمَا يُوجِبُ تَرْكَ الْعَوْدِ، وَهُوَ اتِّصَافُهُمْ بِالْإِيمَانِ الصَّادِّ عَنْ كُلِّ مُقَبَّحٍ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الدَّلَالَاتِ عَلَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بِمَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَيُعَلِّمُكُمْ مِنَ الْآدَابِ الْجَمِيلَةِ، وَيَعِظُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ الشَّافِيَةِ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَاعِلٌ لِمَا يَفْعَلُهُ بِدَوَاعِي الْحِكْمَةِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1]

الْمَعْنَى: يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ عَنْ قَصْدٍ إِلَى الْإِشَاعَةِ، وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ لَهَا، وَعَذَابُ الدُّنْيَا: الْحَدُّ.

وَلَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَحَسَّانَ وَمِسْطَحًا، وَقَعَدَ صَفْوَانُ لِحَسَّانَ، فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، وَكَفَّ بَصَرَهُ.

وَقِيلَ: هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾[2].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾[3]: مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ، ﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[4]، يَعْنِي: أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ مَحَبَّةَ مَنْ أَحَبَّ الْإِشَاعَةَ، وَهُوَ مُعَاقِبُهُ عَلَيْهَا.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[5]

وَكَرَّرَ الْمِنَّةَ بِتَرْكِ الْمُعَاجَلَةِ بِالْعِقَابِ، حَاذِفًا جَوَابَ لَوْلَا كَمَا حَذَفَهُ ثَمَّةَ، وَفِي هَذَا التَّكْرِيرِ مَعَ حَذْفِ الْجَوَابِ مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَذَلِكَ فِي التَّوَّابِ وَالرَّءُوفِ وَالرَّحِيمِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة النُّورَ، الآية 11.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

الْفَحْشَاءُ وَالْفَاحِشَةُ: مَا أَفْرَطَ قُبْحُهُ.

قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ:

ضَرَائِرُ حِرْمِيٍّ تَفَاحَشَ غَارُهَا

أَيْ: أَفْرَطَتْ غَيْرَتُهَا، وَالْمُنْكَرُ: مَا تُنْكِرُهُ النُّفُوسُ فَتَنْفِرُ عَنْهُ وَلَا تَرْتَضِيهِ، وَقُرِئَ: "خَطَوَاتِ": بِفَتْحِ الطَّاءِ وَسُكُونِهَا، وَزَكَّى بِالتَّشْدِيدِ، وَالضَّمِيرُ لِلَّهِ –تَعَالَى–.

وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْبَةِ الْمُمَحِّصَةِ، لَمَا طَهُرَ مِنْكُمْ أَحَدٌ آخِرَ الدَّهْرِ مِنْ دَنَسِ إِثْمِ الْإِفْكِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُطَهِّرُ التَّائِبِينَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ إِذَا مَحَضُوهَا.

وَهُوَ ﴿سَمِيعٌ﴾[2]: لِقَوْلِهِمْ، ﴿عَلِيمٌ﴾[3]: بِضَمَائِرِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ.

﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4]

وَهُوَ مِنَ ائْتَلَى إِذَا حَلَفَ: افْتِعَالٌ مِنَ الْأَلْيَةِ، وَقِيلَ: مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا أَلَوْتُ جُهْدًا، إِذَا لَمْ تَدَّخِرْ مِنْهُ شَيْئًا، وَيَشْهَدُ لِلْأَوَّلِ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ: "وَلَا يَتَأَلَّ" ، وَالْمَعْنَى: لَا يَحْلِفُوا عَلَى أَلَّا يُحْسِنُوا إِلَى الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْإِحْسَانِ، أَوْ لَا يُقَصِّرُوا فِي أَنْ يُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ شَحْنَاءُ لِجِنَايَةٍ اقْتَرَفُوهَا، فَلْيَعُودُوا عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، وَلْيَفْعَلُوا بِهِمْ مِثْلَ مَا يَرْجُونَ أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ رَبُّهُمْ، مَعَ كَثْرَةِ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ؛ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مِسْطَحٍ، وَكَانَ ابْنَ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– وَكَانَ فَقِيرًا مِنْ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَطَ مِنْهُ مَا فَرَطَ، آلَى أَنْ لَا يُنْفِقَ عَلَيْهِ، وَكَفَى بِهِ دَاعِيًا إِلَى الْمُجَامَلَةِ وَتَرْكِ الِاشْتِغَالِ بِالْمُكَافَأَةِ لِلْمُسِيءِ.

وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَرَأَهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: بَلَى أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، وَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ نَفَقَتَهُ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا أَبَدًا، وَقَرَأَ أَبُو حَيْوَةَ وَابْنُ قُطَيْبٍ: "أَنْ تُؤْتُوا": بِالتَّاءِ عَلَى الِالْتِفَاتِ؛ وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]

﴿الْغَافِلَاتِ﴾[3]: السَّلِيمَاتُ الصُّدُورِ، النَّقِيَّاتُ الْقُلُوبِ، اللَّاتِي لَيْسَ فِيهِنَّ دَهَاءٌ وَلَا مَكْرٌ؛ لِأَنَّهُنَّ لَمْ يُجَرِّبْنَ الْأُمُورَ وَلَمْ يَزْنُنَّ الْأَحْوَالَ، فَلَا يَفْطَنَّ لِمَا تَفْطَنُ لَهُ الْمُجَرِّبَاتُ الْعَرَّافَاتُ.

قَالَ:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطَفْلَةٍ مَيَّالَةٍ بَلْهَاءَ تُطْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

وَكَذَلِكَ الْبُلْهُ مِنَ الرِّجَالِ فِي قَوْلِهِ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ".

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "يَشْهَدُ": بِالْيَاءِ، وَالْحَقَّ: بِالنَّصْبِ صِفَةٌ لِلدِّينِ وَهُوَ الْجَزَاءُ، وَبِالرَّفْعِ: صِفَةٌ لِلَّهِ، وَلَوْ فَلَّيْتَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَفَتَّشْتَ عَمَّا أُوعِدُ بِهِ مِنَ الْعُصَاةِ لَمْ تَرَ اللَّهَ –تَعَالَى– قَدْ غَلَّظَ فِي شَيْءٍ تَغْلِيظَهُ فِي إِفْكِ عَائِشَةَ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا– وَلَا أَنْزَلَ مِنَ الْآيَاتِ الْقَوَارِعِ، الْمَشْحُونَةِ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالْعِتَابِ الْبَلِيغِ وَالزَّجْرِ الْعَنِيفِ، وَاسْتِعْظَامِ مَا رَكِبَ مِنْ ذَلِكَ، وَاسْتِفْظَاعِ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، مَا أَنْزَلَ فِيهِ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَسَالِيبَ مُفْتَنَّةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ فِي بَابِهِ، وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا هَذِهِ الثَّلَاثُ لَكَفَى بِهَا؛ حَيْثُ جَعَلَ الْقَذَفَةَ مَلْعُونِينَ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَبِأَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا أَفَكُوا وَبَهِتُوا، وَأَنَّهُ يُوَفِّيهِمْ جَزَاءَهُمُ الْحَقَّ الْوَاجِبَ الَّذِي هُمْ أَهْلُهُ؛ حَتَّى يَعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[1]، فَأَوْجَزَ فِي ذَلِكَ وَأَشْبَعَ، وَفَصَّلَ وَأَجْمَلَ، وَأَكَّدَ وَكَرَّرَ، وَجَاءَ بِمَا لَمْ يَقَعْ فِي وَعِيدِ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ إِلَّا مَا هُوَ دُونَهُ فِي الْفَظَاعَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا الْأَمْرُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَنَّهُ كَانَ بِالْبَصْرَةِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَكَانَ يُسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، حَتَّى سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالَ: مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ثُمَّ تَابَ مِنْهُ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ إِلَّا مَنْ خَاضَ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، وَهَذِهِ مِنْهُ مُبَالَغَةٌ وَتَعْظِيمٌ لِأَمْرِ الْإِفْكِ.

وَلَقَدْ بَرَّأَ اللَّهُ –تَعَالَى– أَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ: بَرَّأَ يُوسُفَ بِلِسَانِ الشَّاهِدِ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾[2]، وَبَرَّأَ مُوسَى مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ فِيهِ بِالْحَجَرِ الَّذِي ذَهَبَ بِثَوْبِهِ، وَبَرَّأَ مَرْيَمَ بِإِنْطَاقِ وَلَدِهَا حِينَ نَادَى مِنْ حِجْرِهَا: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَبَرَّأَ عَائِشَةَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْعِظَامِ فِي كِتَابِهِ الْمُعْجِزِ الْمَتْلُوِّ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، مِثْلَ هَذِهِ التَّبْرِئَةِ بِهَذِهِ الْمُبَالَغَاتِ.

فَانْظُرْ، كَمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تَبْرِئَةِ أُولَئِكَ؟ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِظْهَارِ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالتَّنْبِيهِ عَلَى إِنَافَةِ مَحَلِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَخِيرَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَحُجَّةِ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَحَقَّقَ عَظَمَةَ شَأْنِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَقَدُّمَ قَدَمِهِ وَإِحْرَازَهُ لِقَصَبِ السَّبْقِ دُونَ كُلِّ سَابِقٍ، فَلْيَتَلَقَّ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْإِفْكِ، وَلْيَتَأَمَّلْ كَيْفَ غَضِبَ اللَّهُ فِي حُرْمَتِهِ؟ وَكَيْفَ بَالَغَ فِي نَفْيِ التُّهْمَةِ عَنْ حِجَابِهِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية 26.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ هِيَ الْمُرَادَةُ، فَكَيْفَ قِيلَ الْمُحْصَنَاتُ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

- أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنْ يُخَصَّصْنَ بِأَنَّ مَنْ قَذَفَهُنَّ فَهَذَا الْوَعِيدُ لَاحِقٌ بِهِ، وَإِذَا أَرَدْنَ عَائِشَةَ كُبْرَاهُنَّ مَنْزِلَةً وَقُرْبَةً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَتِ الْمُرَادَةَ أَوَّلًا.

- وَالثَّانِي: أَنَّهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَجُمِعَتْ إِرَادَةً لَهَا وَلِبَنَاتِهَا مِنْ نِسَاءِ الْأُمَّةِ الْمَوْصُوفَاتِ بِالْإِحْصَانِ وَالْغَفْلَةِ وَالْإِيمَانِ؛ كَمَا قَالَ:

قَدْنِي مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي

أَرَادَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَأَشْيَاعَهُ، وَكَانَ أَعْدَاؤُهُ يُكَنُّونَهُ بِخُبَيْبٍ ابْنِهِ، وَكَانَ مَضْعُوفًا، وَكُنْيَتُهُ الْمَشْهُورَةُ: أَبُو بَكْرٍ، إِلَّا أَنَّ هَذَا فِي الِاسْمِ وَذَاكَ فِي الصِّفَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: ذُو الْحَقِّ الْبَيِّنِ، أَيِ: الْعَادِلُ الظَّاهِرُ الْعَدْلِ، الَّذِي لَا ظُلْمَ فِي حُكْمِهِ، وَالْمُحِقُّ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِبَاطِلٍ، وَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَمْ تَسْقُطْ عِنْدَهُ إِسَاءَةُ مُسِيءٍ وَلَا إِحْسَانُ مُحْسِنٍ، فَحَقُّ مِثْلِهِ أَنْ يُتَّقَى وَيُجْتَنَبَ مَحَارِمُهُ.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]

أَيِ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ [2]مِنَ الْقَوْلِ تُقَالُ أَوْ تُعَدُّ، ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾[3]: مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾[4]: مِنْهُمْ يَتَعَرَّضُونَ، ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾[5] مِنَ الْقَوْلِ؛ وَكَذَلِكَ "الطَّيِّبَاتُ" ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾[6]، وَ﴿أُولَئِكَ﴾[7]: إِشَارَةٌ إِلَى الطَّيِّبِينَ، وَأَنَّهُمْ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُ الْخَبِيثُونَ مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

خَبِيثَاتِ الْكَلِمِ، وَهُوَ كَلَامٌ جَارٍ مَجْرَى الْمَثَلِ لِعَائِشَةَ وَمَا رُمِيَتْ بِهِ مِنْ قَوْلٍ لَا يُطَابِقُ حَالَهَا فِي النَّزَاهَةِ وَالطِّيبِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿أُولَئِكَ﴾[1]: إِشَارَةً إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُمْ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُ أَهْلُ الْإِفْكِ، وَأَنْ يُرَادَ بِالْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ: النِّسَاءُ، أَيِ: الْخَبَائِثُ يَتَزَوَّجْنَ الْخَبَاثَ، وَالْخَبَاثُ الْخَبَائِثَ؛ وَكَذَلِكَ أَهْلِ الطِّيبِ، وَذِكْرُ الرِّزْقِ الْكَرِيمِ هَا هُنَا مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ: لَقَدْ أُعْطِيتُ تِسْعًا مَا أُعْطِيَتْهُنَّ امْرَأَةٌ: لَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بِصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حِينَ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يَتَزَوَّجَنِي وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بِكْرًا وَمَا تَزَوَّجَ بِكْرًا غَيْرِي، وَلَقَدْ تُوُفِّيَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَفِي حِجْرِي، وَلَقَدْ قُبِرَ فِي بَيْتِي، وَلَقَدْ حَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي بَيْتِي، وَإِنَّ الْوَحْيَ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي أَهْلِهِ فَيَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ، وَإِنَّهُ كَانَ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ وَأَنَا مَعَهُ فِي لِحَافِهِ، وَإِنِّي لَابْنَةُ خَلِيفَتِهِ وَصِدِّيقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ خُلِقْتُ طَيِّبَةً عِنْدَ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]

﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾:[4] فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مِنَ الِاسْتِئْنَاسِ الظَّاهِرِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الِاسْتِيحَاشِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَطْرُقُ بَابَ غَيْرِهِ لَا يَدْرِي أَيُؤْذَنُ لَهُ أَمْ لَا؟ فَهُوَ كَالْمُسْتَوْحِشِ مِنْ خَفَاءِ الْحَالِ عَلَيْهِ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ اسْتَأْنَسَ، فَالْمَعْنَى: حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[5].

---

7 سورة ، الآية .

1 سورة ، الآية .

2 سورة الْأَحْزَابَ، الآية 31.

3 سورة الْأَحْزَابَ، الآية 53.

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ وَالْإِرْدَافِ، لِأَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الِاسْتِئْنَاسِ يُرْدِفُ الْإِذْنَ، فَوُضِعَ مَوْضِعَ الْإِذْنِ.

– وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الِاسْتِئْنَاسِ الَّذِي هُوَ الِاسْتِعْلَامُ وَالِاسْتِكْشَافُ: اسْتِفْعَالٌ مِنْ أَنِسَ الشَّيْءَ: إِذَا أَبْصَرَهُ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا، وَالْمَعْنَى حَتَّى تَسْتَعْلِمُوا وَتَسْتَكْشِفُوا الْحَالَ، هَلْ يُرَادُ دُخُولُكُمْ أَمْ لَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: اسْتَأْنِسْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، وَاسْتَأْنَسْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، أَيْ: تَعَرَّفْتُ وَاسْتَعْلَمْتُ؛ وَمِنْهُ بَيْتُ النَّابِغَةِ:

عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِـــــــــــدِ

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِنْسِ، وَهُوَ أَنْ يَتَعَرَّفَ هَلْ ثَمَّةَ إِنْسَانٌ.

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الِاسْتِئْنَاسُ؟ قَالَ: يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بِالتَّسْبِيحَةِ وَالتَّكْبِيرَةِ وَالتَّحْمِيدَةِ وَيَتَنَحْنَحُ: يُؤْذِنُ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَالتَّسْلِيمُ: أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا رَجَعَ".

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ أَتَى بَابَ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: "الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثًا "وَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى –رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: أَأَلِجُ؟ فَقَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِامْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: رَوْضَةُ : "قَوْمِي إِلَى هَذَا فَعَلِّمِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ، قَوْلِي لَهُ: يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ؟ أَأَدْخُلُ؟ فَسَمِعَهَا الرَّجُلُ فَقَالَهَا، فَقَالَ: ادْخُلْ"، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِهِ: حُيِّيتُمْ صَبَاحًا، وَحُيِّيتُمْ مَسَاءً، ثُمَّ يَدْخُلُ، فَرُبَّمَا أَصَابَ الرَّجُلَ مَعَ امْرَأَتِهِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ، فَصَدَّ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَعَلَّمَ الْأَحْسَنَ وَالْأَجْمَلَ، وَكَمْ مِنْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الدِّينِ هُوَ عِنْدَ النَّاسِ كَالشَّرِيعَةِ الْمَنْسُوخَةِ قَدْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَبَابُ الِاسْتِئْذَانِ مِنْ ذَلِكَ: بَيْنَا أَنْتَ فِي بَيْتِكَ، إِذَا رَعَفَ عَلَيْكَ الْبَابُ بِوَاحِدٍ، مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ وَلَا تَحِيَّةٍ مِنْ تَحَايِي إِسْلَامٍ وَلَا جَاهِلِيَّةٍ، وَهُوَ مِمَّنْ سَمِعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلَكِنْ أَيْنَ الْأُذُنُ الْوَاعِيَةُ؟ وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: "حَتَّى تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَتَسْتَأْذِنُوا"، فَأَخْطَأَ الْكَاتِبُ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: "حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا"، ﴿ذَلِكُمْ﴾[1]: الِاسْتِئْذَانُ

---

[1] سورة ، الآية .

وَالتَّسْلِيمُ، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1]: مِنْ تَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالدُّمُورِ –وَهُوَ الدُّخُولُ بِغَيْرِ إِذْنٍ– وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الدَّمَارِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ، كَأَنَّ صَاحِبَهُ دَامِرٌ لِعِظَمِ مَا ارْتَكَبَ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "مَنْ سَبَقَتْ عَيْنُهُ اسْتِئْذَانَهُ، فَقَدْ دُمِّرَ".

وَرُوِيَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَأَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ قَالَ: "نَعَمْ "، قَالَ: إِنَّهَا لَيْسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي، أَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قَالَ: "أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟" قَالَ الرَّجُلُ: لَا، قَالَ: "فَاسْتَأْذِنْ".

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، أَيْ: أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، أَوْ قِيلَ: لَكُمْ هَذَا إِرَادَةَ أَنْ تَذْكُرُوا وَتَتَّعِظُوا وَتَتَعَلَّمُوا بِمَا أُمِرْتُمْ بِهِ فِي بَابِ الِاسْتِئْذَانِ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[3]

يُحْتَمَلُ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾[4]: مِنَ الْآذِنِينَ، ﴿فَلا تَدْخُلُوهَا﴾[5]: وَاصْبِرُوا حَتَّى تَجِدُوا مَنْ يَأْذَنُ لَكُمْ، وَيُحْتَمَلُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا وَلَكُمْ فِيهَا حَاجَةٌ، فَلَا تَدْخُلُوهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الِاسْتِئْذَانَ لَمْ يُشْرَعْ؛ لِئَلَّا يَطَّلِعَ الدَّامِرُ عَلَى عَوْرَةٍ، وَلَا تَسْبِقُ عَيْنُهُ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ فَقَطْ؛ وَإِنَّمَا شُرِعَ لِئَلَّا يُوقَفَ عَلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي يَطْوِيهَا النَّاسُ فِي الْعَادَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ وَيَتَحَفَّظُونَ مِنَ اطِّلَاعِ أَحَدٍ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهُ تَصَرُّفٌ فِي مِلْكِ غَيْرِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِرِضَاهُ، وَإِلَّا أَشْبَهَ الْغَصْبَ وَالتَّغَلُّبَ.

﴿فَارْجِعُوا﴾[6]، أَيْ: لَا تُلِحُّوا فِي إِطْلَاقِ الْإِذْنِ، وَلَا تَلُجُّوا فِي تَسْهِيلِ الْحِجَابِ، وَلَا تَقِفُوا عَلَى الْأَبْوَابِ مُنْتَظِرِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا مِمَّا يَجْلِبُ الْكَرَاهَةَ وَيَقْدَحُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ خُصُوصًا إِذَا كَانُوا ذَوِي مُرُوءَةٍ وَمُرْتَاضِينَ بِالْآدَابِ الْحَسَنَةِ، وَإِذَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ لِأَدَائِهِ إِلَى الْكَرَاهَةِ،

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَجَبَ الِانْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا: مِنْ قَرْعِ الْبَابِ بِعُنْفٍ، وَالتَّصْفِيحِ بِصَاحِبِ الدَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عَادَاتِ مَنْ لَمْ يَتَهَذَّبْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ: مَا قَرَعْتُ بَابًا عَلَى عَالِمٍ قَطُّ، وَكَفَى بِقِصَّةِ بَنِي أَسَدٍ زَاجِرَةً وَمَا نَزَلَ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَكُمْ وَأُمِرْتُمْ بِالرُّجُوعِ فَامْتَثِلُوا، وَلَا تَدْخُلُوا مَعَ كَرَاهَتِهِمْ؟

قُلْتُ: بَعْدَ أَنْ جَزَمَ النَّهْيَ عَنِ الدُّخُولِ مَعَ فَقْدِ الْإِذْنِ وَحْدَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ حَاضِرِينَ وَغَائِبِينَ، لَمْ تَبْقَ شُبْهَةٌ فِي كَوْنِهِ مَنْهِيًّا عَنْهُ مَعَ انْضِمَامِ الْأَمْرِ بِالرُّجُوعِ إِلَى فَقْدِ الْإِذْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا عَرَضَ أَمْرٌ فِي دَارٍ: مَنْ حَرِيقٍ، أَوْ هُجُومِ سَارِقٍ، أَوْ ظُهُورِ مُنْكَرٍ يَجِبُ إِنْكَارُهُ؟

قُلْتُ: ذَلِكَ مُسْتَثْنَى بِالدَّلِيلِ، أَيِ: الرُّجُوعُ أَطْيَبُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ سَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرِّيبَةِ، أَوْ أَنْفَعُ وَأَنْمَى خَيْرًا، ثُمَّ أَوْعَدَ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِمَّا خُوطِبُوا بِهِ فَمُوفٍ جَزَاءَهُ عَلَيْهِ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[2]

اسْتَثْنَى مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي يَجِبُ الِاسْتِئْذَانُ عَلَى دَاخِلِهَا: مَا لَيْسَ بِمَسْكُونٍ مِنْهَا؛ وَذَلِكَ نَحْوَ الْفَنَادِقِ، وَهِيَ الْخَانَاتُ وَالرُّبُطُ وَحَوَانِيتُ الْبَيَّاعِينَ، وَالْمَتَاعُ: الْمَنْفَعَةُ، كَالِاسْتِكْنَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَإِيوَاءِ الرِّحَالِ وَالسِّلَعِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ.

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى– قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ آيَةً فِي الِاسْتِئْذَانِ، وَإِنَّا نَخْتَلِفُ فِي تِجَارَاتِنَا فَنَنْزِلُ هَذِهِ الْخَانَاتِ أَفَلَا نَدْخُلُهَا إِلَّا بِإِذْنٍ؟ فَنَزَلَتْ، وَقِيلَ: الْخَرِبَاتُ يُتَبَرَّزُ فِيهَا، وَالْمَتَاعُ: التَّبَرُّزُ.

---

[1] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 1.

[2] سورة ، الآية .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[1]: وَعِيدٌ لِلَّذِينِ يَدْخُلُونَ الْخَرِبَاتِ وَالدُّورَ الْخَالِيَةَ مِنْ أَهْلِ الرِّيبَةِ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2]

﴿مِنْ﴾[3] لِلتَّبْعِيضِ، وَالْمُرَادُ غَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا يَحْرُمُ، وَالِاقْتِصَارُ بِهِ عَلَى مَا يَحِلُّ، وَجَوَّزَ الْأَخْفَشُ أَنْ تَكُونَ مَزِيدَةً، وَأَبَاهُ سِيبَوَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ دَخَلَتْ فِي غَضِّ الْبَصَرِ دُونَ حِفْظِ الْفُرُوجِ؟

قُلْتُ: دَلَالَةً عَلَى أَنَّ أَمْرَ النَّظَرِ أَوْسَعُ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَحَارِمَ لَا بَأْسَ بِالنَّظَرِ إِلَى شُعُورِهِنَّ، وَصُدُورِهِنَّ، وَثَدْيِهِنَّ، وَأَعْضَادِهِنَّ، وَأَسْوُقِهِنَّ، وَأَقْدَامِهِنَّ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِي الْمُسْتَعْرَضَاتُ، وَالْأَجْنَبِيَّةُ يُنْظَرُ إِلَى وَجْهِهَا وَكَفَّيْهَا وَقَدَمَيْهَا فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ، وَأَمَّا أَمْرُ الْفَرْجِ فَمُضَيَّقٌ، وَكَفَاكَ فَرْقًا أَنْ أُبِيحَ النَّظَرُ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْهُ، وَحُظِرَ الْجِمَاعُ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ –مَعَ حِفْظِهَا عَنِ الْإِفْضَاءِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ– حِفْظُهَا عَنِ الْإِبْدَاءِ، وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ : كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ فَهُوَ عَنِ الزِّنَا، إِلَّا هَذَا فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ الِاسْتِتَارَ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ: –خَبِيرٌ– بِأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَكَيْفَ يُجِيلُونَ أَبْصَارَهُمْ؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ بِسَائِرِ حَوَاسِّهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ؟ فَعَلَيْهِمْ –إِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ– أَنْ يَكُونُوا مِنْهُ عَلَى تَقْوَى وَحَذَرٍ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]

النِّسَاءُ مَأْمُورَاتٌ –أَيْضًا بِغَضِّ الْأَبْصَارِ، وَلَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ إِلَى مَا تَحْتَ سُرَّتِهِ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَإِنِ اشْتَهَتْ غَضَّتْ بَصَرَهَا رَأْسًا، وَلَا تَنْظُرْ مِنَ الْمَرْأَةِ إِلَّا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَغَضُّهَا بَصَرَهَا مِنَ الْأَجَانِبِ أَصْلًا أَوْلَى بِهَا وَأَحْسَنُ.

وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ، فَأَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ –وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ– فَدَخَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: احْتَجِبَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُ؟ قَالَ: " أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟".

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُدِّمَ غَضُّ الْأَبْصَارِ عَلَى حِفْظِ الْفُرُوجِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ النَّظَرَ بَرِيدُ الزِّنَى وَرَائِدُ الْفُجُورِ، وَالْبَلْوَى فِيهِ أَشَدُّ وَأَكْثَرُ، وَلَا يَكَادُ يُقْدَرُ عَلَى الِاحْتِرَاسِ مِنْهُ، الزِّينَةُ: مَا تَزَيَّنَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ حُلِيٍّ أَوْ كُحْلٍ أَوْ خِضَابٍ، فَمَا كَانَ ظَاهِرًا مِنْهَا كَالْخَاتَمِ وَالْفَتْخَةِ وَالْكُحْلِ وَالْخِضَابِ، فَلَا بَأْسَ بِإِبْدَائِهِ لِلْأَجَانِبِ، وَمَا خَفِيَ مِنْهَا كَالسُّوَارِ وَالْخَلْخَالِ وَالدُّمْلُجِ وَالْقِلَادَةِ وَالْإِكْلِيلِ وَالْوِشَاحِ وَالْقُرْطِ، فَلَا تُبْدِيهِ إِلَّا لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَذَكَرَ الزِّينَةَ دُونَ مَوَاقِعِهَا: لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّصَوُّنِ وَالتَّسَتُّرِ؛ لِأَنَّ هَذَا الزَّيْنَ وَاقِعَةٌ عَلَى مَوَاضِعَ مِنَ الْجَسَدِ لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهَا لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، وَهِيَ الذِّرَاعُ وَالسَّاقُ وَالْعَضُدُ وَالْعُنُقُ وَالرَّأْسُ وَالصَّدْرُ وَالْأُذُنُ، فَنَهَى عَنْ إِبْدَاءِ الزِّينِ نَفْسِهَا، لِيُعْلَمَ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا لَمْ يَحِلَّ إِلَيْهَا لِمُلَابَسَتِهَا تِلْكَ الْمَوَاقِعَ –بِدَلِيلِ أَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا غَيْرُ مُلَابَسَةٍ لَهَا لَا مَقَالَ فِي حِلِّهِ– كَانَ النَّظَرُ إِلَى الْمَوَاقِعِ أَنْفُسِهَا مُتَمَكِّنًا فِي الْحَظْرِ، ثَابِتَ الْقَدَمِ فِي الْحُرْمَةِ، شَاهِدًا عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ حَقُّهُنَّ أَنْ يَحْتَطْنَ فِي سَتْرِهَا وَيَتَّقِينَ اللَّهَ فِي الْكَشْفِ عَنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا تَقُولُ فِي الْقَرَامِيلِ، هَلْ يَحِلُّ نَظَرُ هَؤُلَاءِ إِلَيْهَا؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ مَوْقِعُهَا الظَّهْرَ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمُ النَّظَرُ إِلَى ظَهْرِهَا وَبَطْنِهَا، وَرُبَّمَا وَرَدَ الشَّعَرُ فَوَقَعَتِ الْقَرَامِيلُ عَلَى مَا يُحَاذِي مَا تَحْتَ السُّرَّةِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْأَمْرُ كَمَا قُلْتَ، وَلَكِنَّ أَمْرَ الْقَرَامِيلِ خِلَافُ أَمْرِ سَائِرِ الْحُلِيِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا فَوْقَ اللِّبَاسِ، وَيَجُوزُ النَّظَرُ إِلَى الثَّوْبِ الْوَاقِعِ عَلَى الظَّهْرِ وَالْبَطْنِ لِلْأَجَانِبِ فَضْلًا عَنْ هَؤُلَاءِ، إِلَّا إِذَا كَانَ يَصِفُ لِرِقَّتِهِ فَلَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، فَلَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَى الْقَرَامِيلِ وَاقِعَةً عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِمَوْقِعِ الزِّينَةِ؟ ذَلِكَ الْعُضْوُ كُلُّهُ، أَمِ الْمُقَلَّدُ الَّذِي تُلَابِسُهُ الزِّينَةُ مِنْهُ؟

قُلْتُ: الصَّحِيحُ: أَنَّهُ الْعُضْوُ كُلُّهُ كَمَا فُسِّرَتْ مَوَاقِعُ الزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ؛ وَكَذَلِكَ مَوَاقِعُ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ: الْوَجْهُ مَوْقِعُ الْكُحْلِ فِي عَيْنَيْهِ، وَالْخِضَابِ بِالْوَسْمَةِ فِي حَاجِبَيْهِ وَشَارِبَيْهِ، وَالْغَمْرَةِ فِي خَدَّيْهِ، وَالْكَفُّ وَالْقَدَمُ مَوْقِعَا الْخَاتَمِ وَالْفَتْخَةِ وَالْخِضَابِ بِالْحِنَّاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُومِحَ مُطْلَقًا فِي الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ سَتْرَهَا فِيهِ حَرَجٌ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَجِدُ بُدًّا مِنْ مُزَاوَلَةِ الْأَشْيَاءِ بِيَدَيْهَا، وَمِنَ الْحَاجَةِ إِلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، خُصُوصًا فِي الشَّهَادَةِ وَالْمُحَاكَمَةِ وَالنِّكَاحِ، وَتَضْطَرُّ إِلَى الْمَشْيِ فِي الطُّرُقَاتِ وَظُهُورِ قَدَمَيْهَا، وَخَاصَّةً الْفَقِيرَاتِ مِنْهُنَّ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1]، يَعْنِي: إِلَّا مَا جَرَتِ الْعَادَةُ وَالْجِبِلَّةُ عَلَى ظُهُورِهِ وَالْأَصْلُ فِيهِ الظُّهُورُ؛ وَإِنَّمَا سُومِحَ فِي الزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ، أُولَئِكَ الْمَذْكُورُونَ لَمَّا كَانُوا مُخْتَصِّينَ بِهِ مِنَ الْحَاجَةِ الْمُضْطَرَّةِ إِلَى مُدَاخَلَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ، وَلِقِلَّةِ تَوَقُّعِ الْفِتْنَةِ مِنْ جِهَاتِهِمْ، وَلِمَا فِي الطِّبَاعِ مِنَ النَّفْرَةِ عَنْ مُمَاسَّةِ الْقَرَائِبِ، وَتَحْتَاجُ الْمَرْأَةُ إِلَى صُحْبَتِهِمْ فِي الْأَسْفَارِ لِلنُّزُولِ وَالرُّكُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَانَتْ جُيُوبُهُنَّ وَاسِعَةً تَبْدُو مِنْهَا نُحُورُهُنَّ وَصُدُورُهُنَّ وَمَا حَوَالَيْهَا، وَكُنَّ يَسْدِلْنَ الْخُمُرَ مِنْ وَرَائِهِنَّ فَتَبْقَى مَكْشُوفَةً، فَأُمِرْنَ بِأَنْ يَسْدِلْنَهَا مِنْ قُدَّامِهِنَّ حَتَّى يُغَطِّينَهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْجُيُوبِ: الصُّدُورُ؛ تَسْمِيَةً بِمَا يَلِيهَا وَيُلَابِسُهَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَاصِحُ الْجَيْبِ، وَقَوْلُكَ: ضَرَبَتْ بِخِمَارِهَا عَلَى جَيْبِهَا؛ كَقَوْلِكَ: ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الْحَائِطِ: إِذَا وَضَعْتَهَا عَلَيْهَا.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: مَا رَأَيْتُ نِسَاءً خَيْرًا مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ؛ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى مَرْطِهَا الْمُرَحَّلِ فَصَدَعَتْ مِنْهُ صَدْعَةً، فَاخْتَمَرْنَ، فَأَصْبَحْنَ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغِرْبَانَ، وَقُرِئَ: "جِيُوبِهِنَّ ": بِكَسْرِ الْجِيمِ لِأَجْلِ الْيَاءِ؛ وَكَذَلِكَ:

---

[1] سورة ، الآية .

﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾[1]، قِيلَ فِي نِسَائِهِنَّ: هُنَّ الْمُؤْمِنَاتُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُؤْمِنَةِ أَنْ تَتَجَرَّدَ بَيْنَ يَدَيْ مُشْرِكَةٍ أَوْ كِتَابِيَّةٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ عَنِيَ بِنِسَائِهِنَّ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ: مَنْ فِي صُحْبَتِهِنَّ وَخِدْمَتِهِنَّ مِنَ الْحَرَائِرِ وَالْإِمَاءِ وَالنِّسَاءِ، كُلُّهُنَّ سَوَاءٌ فِي حِلِّ نَظَرِ بَعْضِهِنَّ إِلَى بَعْضٍ، وَقِيلَ: مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ هُمُ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ جَمِيعًا.

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– أَنَّهَا أَبَاحَتِ النَّظَرَ إِلَيْهَا لِعَبْدِهَا، وَقَالَتْ لِذَكْوَانَ: إِنَّكَ إِذَا وَضَعْتَنِي فِي الْقَبْرِ وَخَرَجْتَ فَأَنْتَ حُرٌّ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: مِثْلُهُ، ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: لَا تَغُرَّنَّكُمْ آيَةُ النُّورِ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْإِمَاءُ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الْمَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ الْأَجْنَبِيِّ مِنْهَا، خَصِيًّا كَانَ أَوْ فَحْلًا.

وَعَنْ مَيْسُونَ بِنْتِ بَحْدَلَ الْكِلَابِيَّةِ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَمَعَهُ خَصِيٌّ، فَتَقَنَّعَتْ مِنْهُ، فَقَالَ: هُوَ خَصِيٌّ، فَقَالَتْ: يَا مُعَاوِيَةُ، أَتَرَى أَنَّ الْمُثْلَةَ بِهِ تُحَلِّلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ؟!

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ: لَا يَحِلُّ اسْتِخْدَامُ الْخِصْيَانِ وَإِمْسَاكُهُمْ وَبَيْعُهُمْ وَشِرَاؤُهُمْ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ إِمْسَاكُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: رُوِيَ أَنَّهُ أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَصِيٌّ فَقَبِلَهُ.

قُلْتُ: لَا يُقْبَلُ فِيمَا تَعُمُّ بِهِ الْبَلْوَى إِلَّا حَدِيثٌ مَكْشُوفٌ، فَإِنْ صَحَّ فَلَعَلَّهُ قَبِلَهُ لِيُعْتِقَهُ، أَوْ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ.

﴿الْإِرْبَةِ﴾[2]: الْحَاجَةُ، قِيلَ: هُمُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَكُمْ لِيُصِيبُوا مِنْ فَضْلِ طَعَامِكُمْ، وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ بُلْهٌ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِنَّ، أَوْ شُيُوخٌ صُلَحَاءُ إِذَا كَانُوا مَعَهُنَّ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ، أَوْ بِهِمْ عِنَانَةٌ، وَقُرِئَ: "غَيْرَ": بِالنَّصْبِ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ أَوِ الْحَالِ، وَالْجَرُّ عَلَى الْوَصْفِيَّةِ، وُضِعَ الْوَاحِدُ مَوْضِعَ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ الْجِنْسَ. وَيُبَيِّنُ مَا بَعْدَهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الْجَمْعُ؛ وَنَحْوُهُ: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلا﴾[3].

﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: إِمَّا مِنْ ظَهَرَ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ، أَيْ: لَا يَعْرِفُونَ مَا الْعَوْرَةُ وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا، وَإِمَّا مِنْ ظَهَرَ عَلَى فُلَانٍ، إِذَا قَوِيَ عَلَيْهِ، وَظَهَرَ عَلَى الْقُرْآنِ: أَخَذَهُ وَأَطَاقَهُ، أَيْ: لَمْ يَبْلُغُوا أَوَانَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْوَطْءِ، وَقُرِئَ: "عَوْرَاتِ"، وَهِيَ لُغَةُ هُذَيْلٍ.

---

[1] سورة النُّورَ، الآية 27.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْحَجَّ، الآية 5.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ الْأَعْمَامَ وَالْأَخْوَالَ؟

قُلْتُ: سُئِلَ الشَّعْبِيُّ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: لِئَلَّا يَصِفَهَا الْعَمُّ عِنْدَ ابْنِهِ، وَالْخَالُ كَذَلِكَ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ سَائِرَ الْقَرَابَاتِ يَشْتَرِكُ الْأَبُ وَالِابْنُ فِي الْمَحْرَمِيَّةِ إِلَّا الْعَمَّ وَالْخَالَ وَأَبْنَاءَهُمَا، فَإِذَا رَآهَا الْأَبُ فَرُبَّمَا وَصَفَهَا لِابْنِهِ وَلَيْسَ بِمَحْرَمٍ، فَيُدَانِي تَصَوُّرُهُ لَهَا بِالْوَصْفِ نَظَرَهُ إِلَيْهَا.

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَلِيغَةِ عَلَى وُجُوبِ الِاحْتِيَاطِ عَلَيْهِنَّ فِي التَّسَتُّرِ، كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَضْرِبُ الأرض بِرِجْلِهَا لِيَتَقَعْقَعَ خَلْخَالُهَا، فَيُعْلَمُ أَنَّهَا ذَاتُ خَلْخَالٍ.

وَقِيلَ: كَانَتْ تَضْرِبُ بِإِحْدَى رِجْلَيْهَا الْأُخْرَى، لِيُعْلَمَ أَنَّهَا ذَاتُ خَلْخَالَيْنِ، وَإِذَا نُهِينَ عَنْ إِظْهَارِ صَوْتِ الْحُلِيِّ بَعْدَمَا نُهِينَ عَنْ إِظْهَارِ الْحُلِيِّ، عُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ النَّهْيَ عَنْ إِظْهَارِ مَوَاضِعِ الْحُلِيِّ، أَبْلَغُ وَأَبْلَغُ، أَوَامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ فِي كُلِّ بَابٍ لَا يَكَادُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ يَقْدِرُ عَلَى مُرَاعَاتِهَا، وَإِنْ ضَبَطَ نَفْسَهُ وَاجْتَهَدَ، وَلَا يَخْلُو مِنْ تَقْصِيرٍ يَقَعُ مِنْهُ؛ فَلِذَلِكَ وَصَّى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَبِتَأْمِيلِ الْفَلَاحِ إِذَا تَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: تُوبُوا مِمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ لَعَلَّكُمْ تَسْعَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ صَحَّتِ التَّوْبَةُ بِالْإِسْلَامِ، وَالْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، فَمَا مَعْنَى هَذِهِ التَّوْبَةِ؟

قُلْتُ: أَرَادَ بِهَا مَا يَقُولُهُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ثُمَّ تَابَ عَنْهُ، يَلْزَمُهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَهُ أَنْ يُجِدَّ عَنْهُ التَّوْبَةَ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُهُ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى نَدَمِهِ وَعَزْمِهِ إِلَى أَنْ يَلْقَى رَبَّهُ، وَقُرِئَ: "أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ": بِضَمِّ الْهَاءِ، وَوَجْهُهُ أَنَّهَا كَانَتْ مَفْتُوحَةً؛ لِوُقُوعِهَا قَبْلَ الْأَلِفِ، لَمَّا سَقَطَتِ الْأَلِفُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، أُتْبِعَتْ حَرَكَتُهَا حَرَكَةَ مَا قَبْلَهَا.

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

[1] سورة ، الآية .

﴿الأَيَامَى﴾[1]، وَالْيَتَامَى: أَصْلُهُمَا أَيَائِمُ وَيَتَائِمُ، فَقُلِبَا، وَالْأَيْمُ: لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَقَدْ آمَ وَآمَتْ وَتَأَيَّمَا: إِذَا لَمْ يَتَزَوَّجَا بِكْرَيْنِ كَانَا أَوْ ثَيِّبَيْنِ.

قَالَ:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمْ أَتَأَيَّمُ

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَيْمَةِ وَالْغَيْمَةِ وَالْأَيْمَةِ وَالْكَزْمِ وَالْقَرْمِ"، وَالْمُرَادُ: أَنْكِحُوا مَنْ تَأَيَّمَ مِنْكُمْ مِنَ الْأَحْرَارِ وَالْحَرَائِرِ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ مِنْ غِلْمَانِكُمْ وَجَوَارِيكُمْ، وَقُرِئَ: "مِنْ عَبِيدِكُمْ". وَهَذَا الْأَمْرُ لِلنَّدْبِ لِمَا عُلِمَ مِنْ أَنَّ النِّكَاحَ أَمْرٌ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْوُجُوبِ فِي حَقِّ الْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ طَلَبِ الْمَرْأَةِ ذَلِكَ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ الظَّوَاهِرِ: النِّكَاحُ وَاجِبٌ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مَنْدُوبًا إِلَيْهِ قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي وَهِيَ النِّكَاحُ"، وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ، فَلَيْسَ مِنَّا"، وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَجَّ شَيْطَانُهُ: يَا وَيْلَهُ، عَصَمَ ابْنُ آدَمَ مِنِّي ثُلُثَيْ دِينِهِ"، وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "يَا عِيَاضُ، لَا تَزَوَّجَنَّ عَجُوزًا وَلَا عَاقِرًا؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ".

وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْآثَارُ كَثِيرَةٌ، وَرُبَّمَا كَانَ وَاجِبَ التَّرْكِ إِذَا أَدَّى إِلَى مَعْصِيَةٍ أَوْ مَفْسَدَةٍ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِذَا أَتَى عَلَى أُمَّتِي مِائَةٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، فَقَدْ حَلَّتْ لَهُمُ الْعُزُوبَةُ وَالْعُزْلَةُ وَالتَّرَهُّبُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ". وَفِي الْحَدِيثِ: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا تُنَالُ فِيهِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ الْعُزُوبَةُ".

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ الصَّالِحِينَ؟

قُلْتُ: لِيُحَصِّنَ دِينَهُمْ، وَيَحْفَظَ عَلَيْهِمْ صَلَاحَهُمْ، وَلِأَنَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الْأَرِقَّاءِ الَّذِينَ مَوَالِيهِمْ يُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنْزِلَةَ الْأَوْلَادِ فِي الْأَثَرَةِ وَالْمَوَدَّةِ، فَكَانُوا مَظِنَّةً لِلتَّوْصِيَةِ بِشَأْنِهِمْ وَالِاهْتِمَامِ بِهِمْ وَتَقَبُّلِ الْوَصِيَّةِ فِيهِمْ، وَأَمَّا الْمُفْسِدُونَ مِنْهُمْ فَحَالُهُمْ عِنْدَ مَوَالِيهِمْ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، أَوْ أُرِيدَ بِالصَّلَاحِ: الْقِيَامُ بِحُقُوقِ النِّكَاحِ، يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ شَرِيطَةُ اللَّهِ غَيْرَ مَنْسِيَّةٍ فِي هَذَا الْمَوْعِدِ وَنَظَائِرُهُ وَهِيَ مَشِيئَتُهُ، وَلَا يَشَاءُ الْحَكِيمُ إِلَّا مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ

---

[1] سورة ، الآية .

وَمَا كَانَ مَصْلَحَةً؛ وَنَحْوُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[1]، وَقَدْ جَاءَتِ الشَّرِيطَةُ مَنْصُوصَةً فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وَمَنْ لَمْ يَنْسَ هَذِهِ الشَّرِيطَةَ، لَمْ يَنْتَصِبْ مُعْتَرِضًا بِعِزَبٍ كَانَ غَنِيًّا فَأَفْقَرَهُ النِّكَاحُ، وَبِفَاسِقٍ تَابَ وَاتَّقَى اللَّهَ، وَكَانَ لَهُ شَيْءٌ فَفَنِيَ وَأَصْبَحَ مِسْكِينًا.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْتَمِسُوا الرِّزْقَ بِالنِّكَاحِ". وَشَكَا إِلَيْهِ رَجُلٌ الْحَاجَةَ، فَقَالَ: "عَلَيْكَ بِالْبَاءَةِ".

وَعَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: عَجِبْتُ لِمَنْ لَا يَطْلُبُ الْغِنَى بِالْبَاءَةِ، وَلَقَدْ كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ رَازِحُ الْحَالِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ سِنِينَ وَقَدِ انْتَعَشَتْ حَالُهُ وَحَسُنَتْ، فَسَأَلْتُهُ؟ فَقَالَ: كُنْتُ فِي أَوَّلِ أَمْرِي عَلَى مَا عَلِمْتَ؛ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أُرْزَقَ وَلَدًا، فَلَمَّا رُزِقْتُ بِكْرَ وَلَدِي تَرَاخَيْتُ عَنِ الْفَقْرِ، فَلَمَّا وُلِدَ لِي الثَّانِي زِدْتُ خَيْرًا، فَلَمَّا تَتَامُّوا ثَلَاثَةً صَبَّ اللَّهُ عَلَيَّ الْخَيْرَ صَبًّا، فَأَصْبَحْتُ إِلَى مَا تَرَى.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾[3]، أَيْ: غَنِيٌّ ذُو سَعَةٍ لَا يَرْزَؤُهُ إِغْنَاءُ الْخَلَائِقِ، وَلَكِنَّهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾[4]: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدُرُ.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]

---

[1] سورة الطَّلَاقَ، الآيتان 2-3.

[2] سورة التَّوْبَةَ، الآية 28.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾[1]: وَلْيَجْتَهِدْ فِي الْعِفَّةِ وَظِلْفِ النَّفْسِ، كَأَنَّ الْمُسْتَعِفَّ طَالِبٌ مِنْ نَفْسِهِ الْعَفَافَ وَحَامِلُهَا عَلَيْهِ.

﴿لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[2]، أَيِ: اسْتِطَاعَةَ تَزَوُّجٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالنِّكَاحِ: مَا يُنْكَحُ بِهِ مِنَ الْمَالِ، ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾[3]: تَرْجِيَةٌ لِلْمُسْتَعَفِّينَ وَتَقْدِمَةُ وَعْدٍ بِالتَّفَضُّلِ عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى؛ لِيَكُونَ انْتِظَارُ ذَلِكَ وَتَأْمِيلُهُ لُطْفًا لَهُمْ فِي اسْتِعْفَافِهِمْ، وَرَبْطًا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلِيُظْهِرَ بِذَلِكَ أَنَّ فَضْلَهُ أَوْلَى بِالْإِعْفَاءِ وَأَدْنَى مِنَ الصُّلَحَاءِ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا رَتَّبَ هَذِهِ الْأَوَامِرَ: حَيْثُ أَمَرَ أَوَّلًا بِمَا يَعْصِمُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَيُبْعِدُ مُوَاقَعَةَ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ غَضُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ بِالنِّكَاحِ الَّذِي يُحَصِّنُ بِهِ الدِّينَ وَيَقَعُ بِهِ الِاسْتِغْنَاءُ بِالْحَلَالِ عَنِ الْحَرَامِ، ثُمَّ بِالْحَمْلِ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَعَزْفِهَا عَنِ الطُّمُوحِ إِلَى الشَّهْوَةِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ النِّكَاحِ إِلَى أَنْ يُرْزَقَ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾[4]: مَرْفُوعٌ عَلَى الِابْتِدَاءِ، أَوْ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾[5]، كَقَوْلِكَ: زَيْدًا فَاضْرِبْهُ، وَدَخَلَتِ الْفَاءُ؛ لِتَضَمُّنِ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَالْكِتَابُ وَالْمُكَاتَبَةُ، كَالْعِتَابِ وَالْمُعَاتَبَةِ: وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَمْلُوكِهِ: كَاتَبْتُكَ عَلَى أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَإِنْ أَدَّاهَا عُتِقَ، وَمَعْنَاهُ: كَتَبْتُ لَكَ عَلَى نَفْسِي أَنْ تُعْتَقَ مِنِّي إِذَا وَفَّيْتَ بِالْمَالِ، وَكَتَبْتَ لِي عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَفِيَ بِذَلِكَ، أَوْ كَتَبْتُ عَلَيْكَ الْوَفَاءَ بِالْمَالِ وَكَتَبْتَ عَلَيَّ الْعِتْقَ.

وَيَجُوزُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– حَالًّا وَمُؤَجَّلًا، وَمُنَجَّمًا وَغَيْرَ مُنَجَّمٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– لَمْ يَذْكُرِ التَّنْجِيمَ، وَقِيَاسًا عَلَى سَائِرِ الْعُقُودِ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا يَجُوزُ إِلَّا مُؤَجَّلًا مُنَجَّمًا، لَا يَجُوزُ عِنْدَهُ بِنَجْمٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، فَعَقْدُهُ حَالًّا مَنَعَ مِنْ حُصُولِ الْغَرَضِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَاءِ الْبَدَلِ عَاجِلًا.

وَيَجُوزُ عَقْدُهُ عَلَى مَالٍ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، وَعَلَى خِدْمَةٍ فِي مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ، وَعَلَى عَمَلٍ مَعْلُومٍ مُؤَقَّتٍ: مِثْلَ حَفْرِ بِئْرٍ فِي مَكَانٍ بِعَيْنِهِ مَعْلُومَةِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَبِنَاءِ دَارٍ قَدْ أَرَاهُ آجُرَهَا وَجَصَّهَا وَمَا يُبْنَى بِهِ، وَإِنْ كَاتَبَهُ عَلَى قِيمَتِهِ لَمْ يَجُزْ، فَإِنْ أَدَّاهَا عُتِقَ، وَإِنْ كَاتَبَهُ عَلَى

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

وَصِيفٍ، جَازَ، لِقِلَّةِ الْجَهَالَةِ وَوَجَبَ الْوَسَطُ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَطَأَ الْمُكَاتَبَةَ، وَإِذَا أَدَّى عُتِقَ، وَكَانَ وَلَاؤُهُ لِمَوْلَاهُ؛ لِأَنَّهُ جَادٌّ عَلَيْهِ بِالْكَسْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْأَصْلِ لَهُ، وَهَذَا الْأَمْرُ لِلنَّدْبِ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: لَيْسَ ذَلِكَ بِعَزْمٍ، إِنْ شَاءَ كَاتَبَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُكَاتِبْ، وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: هِيَ عَزْمَةٌ مِنْ عَزَمَاتِ اللَّهِ، وَعَنِ ابْنِ سِيرِينَ مِثْلُهُ، وَهُوَ مَذْهَبُ دَاوُدَ.

﴿خَيْرًا﴾[1]: قُدْرَةً عَلَى أَدَاءِ مَا يُفَارِقُونَ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: أَمَانَةً وَتَكَسُّبًا، وَعَنْ سَلْمَانَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنْ مَمْلُوكًا لَهُ ابْتَغَى أَنْ يُكَاتِبَهُ، فَقَالَ: أَعِنْدَكَ مَالٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَفَتَأْمُرُنِي أَنْ آكُلَ غِسَالَةَ أَيْدِي النَّاسِ.

﴿وَآتُوهُمْ﴾[2]: أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِ الْوُجُوبِ بِإِعَانَةِ الْمُكَاتَبِينَ وَإِعْطَائِهِمْ سَهْمَهُمُ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ؛ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[3]، عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَحِلُّ لِمَوْلَاهُ إِذَا كَانَ غَنِيًّا أَنْ يَأْخُذَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، وَكَذَلِكَ إِذَا لَمْ تَفِ الصَّدَقَةُ بِجَمِيعِ الْبَدَلِ وَعَجَزَ عَنْ أَدَاءِ الْبَاقِي طَابَ لِلْمَوْلَى مَا أَخَذَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ بِسَبَبِ الصَّدَقَةِ؛ وَلَكِنْ بِسَبَبِ عَقْدِ الْمُكَاتَبَةِ كَمَنِ اشْتَرَى الصَّدَقَةَ مِنَ الْفَقِيرِ أَوْ وَرِثَهَا أَوْ وُهِبَتْ لَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ: "هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ".

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: هُوَ إِيجَابٌ عَلَى الْمَوَالِي أَنْ يَحُطُّوا لَهُمْ مِنْ مَالِ الْكِتَابَةِ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا أُجْبِرُوا، وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يَحُطُّ لَهُ الرُّبُعَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: يَرْضَخُ لَهُ مِنْ كِتَابَتِهِ شَيْئًا، وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ كَاتَبَ عَبْدًا لَهُ يُكَنَّى: أَبَا أُمَيَّةَ، وَهُوَ أَوَّلُ عَبْدٍ كُوتِبَ فِي الْإِسْلَامِ، فَأَتَاهُ بِأَوَّلِ نَجْمٍ فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَقَالَ: اسْتَعِنْ بِهِ عَلَى مُكَاتَبَتِكَ فَقَالَ: لَوْ أَخَّرْتَهُ إِلَى آخِرِ نَجْمٍ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ لَا أُدْرِكَ ذَلِكَ، وَهَذَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَلَى وَجْهِ النَّدْبِ، وَقَالَ: إِنَّهُ عَقْدُ مُعَاوَضَةٍ، فَلَا يُجْبَرُ عَلَى الْحَطِيطَةِ كَالْبَيْعِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 17.

وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿وَآتُوهُمْ﴾[1]: أَسْلِفُوهُمْ، وَقِيلَ: أَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ يُؤَدُّوا وَيُعْتَقُوا، وَهَذَا كُلُّهُ مُسْتَحَبٌّ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لِحُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى مَمْلُوكٌ يُقَالُ لَهُ الصَّبِيحُ: سَأَلَ مَوْلَاهُ أَنْ يُكَاتِبَهُ فَأَبَى؛ فَنَزَلَتْ، كَانَتْ إِمَاءُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يُسَاعِينَ عَلَى مَوَالِيهِنَّ. وَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ رَأْسِ النِّفَاقِ سِتُّ جَوَارٍ: مُعَاذَةُ، وَمُسَيْكَةُ، وَأُمَيْمَةُ، وَعَمْرَةُ، وَأَرْوَى، وَقَتِيلَةُ: يُكْرِهُهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ، وَضَرَبَ عَلَيْهِنَّ ضَرَائِبَ، فَشَكَتِ اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فَنَزَلَتْ، وَيُكَنَّى بِالْفَتَى وَالْفَتَاةِ: عَنِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "لِيَقُلْ أَحَدُكُمْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلَا يَقُلْ عَبْدِي وَأَمَتِي".

وَ﴿الْبِغَاءِ﴾[2]: مَصْدَرُ الْبَغْيِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ أُقْحِمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[3]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا مَعَ إِرَادَةِ التَّحَصُّنِ، وَآمِرُ الطَّيِّعَةِ الْمُوَاتِيَةِ لِلْبِغَاءِ لَا يُسَمَّى مُكْرِهًا وَلَا أَمْرُهُ إِكْرَاهًا، وَكَلِمَةُ "إِنْ" وَإِيثَارُهَا عَلَى "إِذَا": إِيذَانٌ بِأَنَّ الْمُسَاعِيَاتِ كُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بِرَغْبَةٍ وَطَوَاعِيَةٍ مِنْهُنَّ، وَأَنَّ مَا وُجِدَ مِنْ مُعَاذَةَ وَمُسَيْكَةَ مِنْ حَيِّزِ الشَّاذِّ النَّادِرِ.

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4]: لَهُمْ أَوْ لَهُنَّ، أَوْ لَهُمْ وَلَهُنَّ إِنْ تَابُوا وَأَصْلَحُوا، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

فَإِنْ قُلْتَ: لَا حَاجَةَ إِلَى تَعْلِيقِ الْمَغْفِرَةِ بِهِنَّ؛ لِأَنَّ الْمُكْرَهَةَ عَلَى الزِّنَى بِخِلَافِ الْمُكْرِهِ عَلَيْهِ فِي أَنَّهَا غَيْرُ آثِمَةٍ.

قُلْتُ: لَعَلَّ الْإِكْرَاهَ كَانَ دُونَ مَا اعْتَبَرَتْهُ الشَّرِيعَةُ مِنْ إِكْرَاهٍ بِقَتْلٍ، أَوْ بِمَا يُخَافُ مِنْهُ التَّلَفُ أَوْ ذَهَابُ الْعُضْوِ، مِنْ ضَرْبٍ عَنِيفٍ أَوْ غَيْرِهِ حَتَّى تَسْلَمَ مِنَ الْإِثْمِ، وَرُبَّمَا قَصَّرَتْ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي تُعْذَرُ فِيهِ فَتَكُونُ آثِمَةً.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]

﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾[2]: هِيَ الْآيَاتُ الَّتِي بَيَّنَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَأَوْضَحَتْ فِي مَعَانِي الْأَحْكَامِ وَالْحُدُودِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ مُبَيَّنًا فِيهَا فَاتُّسِعَ فِي الظَّرْفِ، وَقُرِئَ بِالْكَسْرِ، أَيْ: بَيَّنَتْ هِيَ الْأَحْكَامَ وَالْحُدُودَ، جَعَلَ الْفِعْلَ لَهَا عَلَى الْمَجَازِ، أَوْ مِنْ "بَيَّنَ" بِمَعْنَى: تَبَيَّنَ؛ وَمِنْهُ الْمَثَلُ: قَدْ بَيَّنَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

﴿وَمَثَلا مِنَ﴾[3]: أَمْثَالَ مَنْ ﴿قَبْلِكُمْ﴾[4]، أَيْ: قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ مِنْ قِصَصِهِمْ كَقِصَّةِ يُوسُفَ وَمَرْيَمَ، يَعْنِي: قِصَّةَ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾[5]: مَا وُعِظَ بِهِ فِي الْآيَاتِ وَالْمَثَلِ، مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[6]، ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾[7]، ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾[8]، ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾[9].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[10]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة النُّورَ، الآية 2.

[7] سورة النُّورَ، الآية 12.

[8] سورة النُّورَ، الآية 16.

[9] سورة النُّورَ، الآية 18.

[10] سورة ، الآية .

نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾[1] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾[2]، وَ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾[3]: قَوْلُكَ: زَيْدٌ كَرَمٌ وُجُودٌ، ثُمَّ تَقُولُ: يُنْعِشُ النَّاسَ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ.

وَالْمَعْنَى: ذُو نُورِ السَّمَاوَاتِ، وَصَاحِبُ نُورِ السَّمَاوَاتِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض الْحَقُّ، شَبَّهَهُ بِالنُّورِ فِي ظُهُورِهِ وَبَيَانِهِ؛ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4]، أَيْ: مِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، وَأَضَافَ النُّورَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرض لِأَحَدِ مَعْنَيَيْنِ: إِمَّا لِلدَّلَالَةِ عَلَى سِعَةِ إِشْرَاقِهِ وَفُشُوِّ إِضَاءَتِهِ حَتَّى تُضِيءَ لَهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَأَنَّهُمْ يَسْتَضِيئُونَ بِهِ.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾[5]، أَيْ: صِفَةُ نُورِهِ الْعَجِيبَةُ الشَّأْنِ فِي الإِضَاءَةِ، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾[6]: كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ، وَهِيَ الْكُوَّةُ فِي الْجِدَارِ غَيْرُ النَّافِذَةِ، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[7]: سِرَاجٌ ضَخْمٌ ثَاقِبٌ، ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾[8]: أَرَادَ قِنْدِيلًا مِنْ زُجَاجٍ شَامِيٍّ أَزْهَرَ، شَبَّهَهُ فِي زَهْرَتِهِ بِأَحَدِ الدَّرَارِيِّ مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَهِيَ الْمَشَاهِيرُ، كَالْمُشْتَرِي وَالزُّهْرَةِ وَالْمِرِّيخِ وَسُهَيْلٍ وَنَحْوِهَا، ﴿يُوقَدُ﴾[9]: هَذَا الْمِصْبَاحُ، ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾[10]، أَيِ: ابْتَدَأَ ثُقُوبُهُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ، يَعْنِي: زُوِيَتْ ذُبَالَتُهُ بِزَيْتِهَا، ﴿مُبَارَكَةٍ﴾[11]: كَثِيرَةِ الْمَنَافِعِ، أَوْ: لِأَنَّهَا تَنْبُتُ فِي الأرض الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وَقِيلَ: بَارَكَ فِيهَا سَبْعُونَ نَبِيًّا، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الشَّجَرَةِ زَيْتِ الزَّيْتُونِ، فَتَدَاوَوْا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصَحَّةٌ مِنَ الْبَاسُورِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 257.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

[10] سورة ، الآية .

[11] سورة ، الآية .

﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾[1]، أَيْ: مَنْبَتُهَا الشَّامُ، وَأَجْوَدُ الزَّيْتُونِ: زَيْتُونُ الشَّامِ، وَقِيلَ: لَا غَبَّ مَضْحَى وَلَا مَقْنَأَةَ، وَلَكِنَّ الشَّمْسَ وَالظِّلَّ يَتَعَاقَبَانِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَجْوَدُ لِحَمْلِهَا وَأَصْفَى لِدُهْنِهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ فِي مَقْنَأَةٍ، وَلَا نَبَاتَ فِي مَقْنَأَةٍ، وَلَا خَيْرَ فِيهِمَا فِي مَضْحَى"، وَقِيلَ: لَيْسَتْ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَفِي وَقْتِ شُرُوقِهَا أَوْ غُرُوبِهَا فَقَطْ، بَلْ تُصِيبُهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ جَمِيعًا، فَهِيَ شَرْقِيَّةٌ وَغَرْبِيَّةٌ، ثُمَّ وُصِفَ الزَّيْتُ بِالصَّفَاءِ وَالْوَبِيصِ، وَأَنَّهُ لِتَلَأْلُئِهِ.

﴿يَكَادُ﴾[2]: يُضِيءُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾[3]، أَيْ: هَذَا الَّذِي شُبِّهَتْ بِهِ الْحَقُّ نُورٌ مُتَضَاعِفٌ قَدْ تَنَاصَرَ فِيهِ الْمِشْكَاةُ وَالزُّجَاجَةُ وَالْمِصْبَاحُ وَالزَّيْتُ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ مِمَّا يُقَوِّي النُّورَ وَيَزِيدُهُ إِشْرَاقًا، وَيَمُدُّهُ بِإِضَاءَةٍ بَقِيَّةٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمِصْبَاحَ إِذَا كَانَ فِي مَكَانٍ مُتَضَايِقٍ كَالْمِشْكَاةِ كَانَ أَضْوَأَ لَهُ وَأَجْمَعَ لِنُورِهِ، بِخِلَافِ الْمَكَانِ الْوَاسِعِ؛ فَإِنَّ الضَّوْءَ يَنْبَثُّ فِيهِ، وَيَنْتَشِرُ، وَالْقِنْدِيلُ أَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى زِيَادَةِ الْإِنَارَةِ، وَكَذَلِكَ الزَّيْتُ وَصَفَاؤُهُ.

﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾[4]: لِهَذَا النُّورِ الثَّاقِبِ، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[5]: مِنْ عِبَادِهِ، أَيْ: يُوَفَّقُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ مَنْ نَظَرَ وَتَدَبَّرَ بِعَيْنِ عَقْلِهِ وَالْإِنْصَافِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْهَبْ عَنِ الْجَادَّةِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَمَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ، فَهُوَ كَالْأَعْمَى الَّذِي سَوَاءٌ عَلَيْهِ جُنْحُ اللَّيْلِ الدَّامِسِ وَضَحْوَةُ النَّهَارِ الشَّامِسِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض"، أَيْ: نَشَرَ فِيهَا الْحَقَّ وَبَثَّهُ فَأَضَاءَتْ بِنُورِهِ، أَوْ نَوَّرَ قُلُوبَ أَهْلِهَا بِهِ، وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقُرِئَ: "زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ": بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، "وَدُرِّيٌّ": مَنْسُوبٌ إِلَى الدُّرِّ، أَيْ: أَبْيَضُ مُتَلَأْلِئٌ، "وَدُرِّيءٌ": بِوَزْنِ سُكَيْتٍ: يَدْرَأُ الظَّلَامَ بِضَوْئِهِ، وَدُرِيءٌ كَمُرِيقٍ، وَدِرِّيٌّ كَالسِّكِّينَةِ، عَنْ أَبِي زَيْدٍ، وَتَوَقَّدُ: بِمَعْنَى: تَتَوَقَّدُ، وَالْفِعْلُ لِلزُّجَاجَةِ، "وَيُوقَدُ، وَتُوقَدُ":

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

بِالتَّخْفِيفِ، "وَيُوَقِّدُهُ": بِالتَّشْدِيدِ، "وَيَوْقَدُ": بِحَذْفِ التَّاءِ وَفَتْحِ الْيَاءِ؛ لِاجْتِمَاعِ حَرْفَيْنِ زَائِدَيْنِ وَهُوَ غَرِيبٌ، وَيَمَسُّهُ بِالْيَاءِ؛ لِأَنَّ التَّأْنِيثَ لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ، وَالضَّمِيرُ فَاصِلٌ.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]

﴿فِي بُيُوتٍ﴾[2]: يَتَعَلَّقُ بِمَا قَبْلَهُ، أَيْ: كَمِشْكَاةٍ فِي بَعْضِ بُيُوتِ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَثَلُ نُورِهِ كَمَا يُرَى فِي الْمَسْجِدِ نُورُ الْمِشْكَاةِ الَّتِي مِنْ صِفَتِهَا كَيْتُ وَكَيْتُ، أَوْ بِمَا بَعْدَهُ، وَهُوَ يُسَبِّحُ، أَيْ: يُسَبِّحُ لَهُ رِجَالٌ فِي بُيُوتٍ. وَفِيهَا تَكْرِيرٌ؛ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ فِي الدَّارِ جَالِسٌ فِيهَا، أَوْ بِمَحْذُوفٍ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾[3]، أَيْ: سَبِّحُوا فِي بُيُوتٍ، وَالْمُرَادُ بِالْإِذْنِ: الْأَمْرُ، وَرَفْعُهَا: بِنَاؤُهَا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[4]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾[5].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هِيَ الْمَسَاجِدُ، أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُبْنَى، أَوْ تَعْظِيمُهَا وَالرَّفْعُ مِنْ قَدْرِهَا، وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ بِالْبِنَاءِ، وَلَكِنْ بِالتَّعْظِيمِ، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[6] أَوْفَقُ لَهُ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ ذِكْرٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: وَأَنْ يُتْلَى فِيهَا كِتَابُهُ، وَقُرِئَ: "يُسَبَّحُ": عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَيُسْنَدُ إِلَى أَحَدِ الظُّرُوفِ الثَّلَاثَةِ، أَعْنِي: ﴿لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ﴾[7]، وَ﴿رِجَالٌ﴾[8]: مَرْفُوعٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿يُسَبِّحُ﴾[9]،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة النَّمْلَ، الآية 12.

[4] سورة النَّازِعَاتِ، الآيتان 27–28.

[5] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 127.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَهُوَ يُسَبِّحُ لَهُ، و"تُسَبِّحُ": بِالتَّاءِ وَكَسْرِ الْبَاءِ، وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: بِالتَّاءِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، وَوَجْهُهَا أَنْ يُسْنَدَ إِلَى أَوْقَاتِ الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ عَلَى زِيَادَةِ الْبَاءِ، وَتُجْعَلُ الْأَوْقَاتُ مُسَبِّحَةً، وَالْمُرَادُ رَبُّهَا، كَصَيْدٍ عَلَيْهِ يَوْمَانِ، وَالْمُرَادُ: وَحْشُهُمَا، وَالْآصَالُ: جَمْعُ أَصْلٍ وَهُوَ الْعَشِيُّ، وَالْمَعْنَى: بِأَوْقَاتِ الْغُدُوِّ، أَيْ: بِالْغَدَوَاتِ، وَقُرِئَ: "وَالْإِيصَالِ"، وَهُوَ الدُّخُولُ فِي الْأَصِيلِ، يُقَالُ: آصَلَ، كَأَظْهَرَ وَأَعْتَمَ، التِّجَارَةُ: صِنَاعَةُ التَّاجِرِ، وَهُوَ الَّذِي يَبِيعُ وَيَشْتَرِي لِلرِّبْحِ.

فَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ: لَا يَشْغَلُهُمْ نَوْعٌ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، ثُمَّ خَصَّ الْبَيْعَ، لِأَنَّهُ فِي الْإِلْهَاءِ أَدْخَلُ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ التَّاجِرَ إِذَا اتَّجَهَتْ لَهُ بَيْعَةٌ رَابِحَةٌ، وَهِيَ طِلْبَتُهُ الْكُلِّيَّةُ مِنْ صِنَاعَتِهِ: أَلْهَتْهُ مَا لَا يُلْهِيهِ شِرَاءُ شَيْءٍ يُتَوَقَّعُ فِيهِ الرِّبْحُ فِي الْوَقْتِ الثَّانِي؛ لِأَنَّ هَذَا يَقِينٌ وَذَلِكَ مَظْنُونٌ، وَإِمَّا أَنْ يُسَمَّى الشِّرَاءُ تِجَارَةً؛ إِطْلَاقًا لِاسْمِ الْجِنْسِ عَلَى النَّوْعِ، كَمَا تَقُولُ: رُزِقَ فُلَانٌ تِجَارَةً رَابِحَةً: إِذَا اتَّجَهَ لَهُ بَيْعٌ صَالِحٌ أَوْ شِرَاءٌ، وَقِيلَ: التِّجَارَةُ لِأَهْلِ الْجَلْبِ، اتَّجَرَ فُلَانٌ فِي كَذَا: إِذَا جَلَبَهُ، التَّاءُ فِي إِقَامَةِ: عِوَضٌ مِنَ الْعَيْنِ السَّاقِطَةِ لِلْإِعْلَالِ، وَالْأَصْلُ: "إِقْوَامٌ" فَلَمَّا أُضِيفَتْ أُقِيمَتِ الْإِضَافَةُ مَقَامَ حَرَفِ التَّعْوِيضِ، فَأُسْقِطَتْ؛ وَنَحْوُهُ:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

وَتَقَلُّبُ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ إِمَّا أَنْ تَتَقَلَّبَ وَتَتَغَيَّرَ فِي أَنْفُسِهَا: وَهُوَ أَنْ تَضْطَرِبَ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ وَتَشْخُصَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1]]الْأَحْزَابَ: 100]، وَإِمَّا أَنْ تَتَقَلَّبَ أَحْوَالُهَا وَتَتَغَيَّرَ فَتَفْقَهَ الْقُلُوبُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَطْبُوعًا عَلَيْهَا لَا تَفْقَهُ، وَتُبْصِرُ الْأَبْصَارُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عُمْيًا لَا تُبْصِرُ.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾[2]، أَيْ: أَحْسَنَ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾[3].

---

9 سورة ، الآية .

1 سورة الْأَحْزَابَ، الآية 10.

2 سورة ، الآية .

3 سورة يُونُسَ، الآية 26.

وَالْمَعْنَى: يُسَبِّحُونَ وَيَخَافُونَ؛ لِيَجْزِيَهُمْ ثَوَابَهُمْ مُضَاعَفًا وَيَزِيدُهُمْ عَلَى الثَّوَابِ تَفَضُّلًا، وَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[1]: الْمَثُوبَةُ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ عَلَيْهَا مِنَ التَّفَضُّلِ، وَعَطَاءُ اللَّهِ –تَعَالَى–: إِمَّا تَفَضُّلٌ، وَإِمَّا ثَوَابٌ، وَإِمَّا عِوَضٌ.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾[2]: مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]: فَأَمَّا الثَّوَابُ فَلَهُ حِسَابٌ؛ لِكَوْنِهِ عَلَى حَسَبِ الِاسْتِحْقَاقِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[4]

السَّرَابُ: مَا يُرَى فِي الْفَلَاةِ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ، يَسْرُبُ عَلَى وَجْهِ الأرض كَأَنَّهُ مَاءٌ يَجْرِي، وَالْقِيعَةُ: بِمَعْنَى: الْقَاعِ أَوْ جَمْعُ قَاعٍ، وَهُوَ الْمُنْبَسِطُ الْمُسْتَوِي مِنَ الأرض، كَجِيرَةٍ فِي جَارٍ، وَقُرِئَ: "بِقِيعَاتٍ": بِتَاءٍ مَمْطُوطَةٍ، كَدِيمَاتٍ وَقِيمَاتٍ، فِي دِيمَةٍ وَقِيمَةٍ، وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُهُمْ بِقِيعَاةٍ بِتَاءٍ مُدَوَّرَةٍ، كَرَجُلٍ عِزْهَاةٍ، شَبَّهَ مَا يَعْمَلُهُ مَنْ لَا يَعْتَقِدُ الْإِيمَانَ وَلَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَحْسَبُهَا تَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَتُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ ثُمَّ تُخَيِّبُ فِي الْعَاقِبَةِ أَمَلَهُ وَيَلْقَى خِلَافَ مَا قَدَّرَ، بِسَرَابٍ يَرَاهُ الْكَافِرُ بِالسَّاهِرَةِ وَقَدْ غَلَبَهُ الْعَطَشُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْسَبُهُ مَاءً، فَيَأْتِيهِ فَلَا يَجِدُ مَا رَجَاهُ وَيَجِدُ زَبَانِيَةَ اللَّهِ عِنْدَهُ يَأْخُذُونَهُ فَيَعْتِلُونَهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَسْقُونَهُ الْحَمِيمَ وَالْغَسَّاقَ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾[5]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[6]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[7].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْغَاشِيَةَ، الآية 3.

[6] سورة الْكَهْفَ، الآية 104.

[7] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 23.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِيعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ؛ قَدْ كَانَ تَعَبَّدَ وَلَبِسَ الْمُسُوحَ وَالْتَمَسَ الدِّينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ كَفَرَ فِي الْإِسْلَامِ.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[1]

اللُّجِّيُّ: الْعَمِيقُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ، مَنْسُوبٌ إِلَى اللُّجِّ وَهُوَ مُعْظَمُ مَاءِ الْبَحْرِ.

وَفِي ﴿أَخْرَجَ﴾[2] ضَمِيرُ الْوَاقِعِ فِيهِ ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[3] مُبَالَغَةٌ فِي لَمْ يَرَهَا: أَيْ: لَمْ يَقْرُبْ أَنْ يَرَاهَا: فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرَاهَا. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

أَيْ لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْبَرَاحِ فَمَا بَالُهُ يَبْرَحُ؟ شَبَّهَ أَعْمَالَهُمْ أَوَّلًا فِي فَوَاتِ نَفْعِهَا وَحُضُورِ ضَرَرِهَا بِسَرَابٍ لَمْ يَجِدْهُ مَنْ خَدَعَهُ مِنْ بَعِيدٍ شَيْئًا، وَلَمْ يَكْفِهِ خَيْبَةً وَكَمَدًا أَنْ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا كَغَيْرِهِ مِنَ السَّرَابِ، حَتَّى وَجَدَ عِنْدَهُ الزَّبَانِيَةَ تَعْتِلُهُ إِلَى النَّارِ، وَلَا يَقْتُلُ ظَمَأَهُ بِالْمَاءِ. وَشَبَّهَهَا ثَانِيًا فِي ظُلْمَتِهَا وَسَوَادِهَا لِكَوْنِهَا بَاطِلَةً، وَفِي خُلُوِّهَا عَنْ نُورِ الْحَقِّ بِظُلُمَاتٍ مُتَرَاكِمَةٍ مِنْ لُجِّ الْبَحْرِ وَالْأَمْوَاجِ وَالسَّحَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ لَمْ يُولِهِ نُورَ تَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُوَ فِي ظُلْمَةِ الْبَاطِلِ لَا نُورَ لَهُ.

وَهَذَا الْكَلَامُ مَجْرَاهُ مَجْرَى الْكِنَايَاتِ؛ لِأَنَّ الْأَلْطَافَ إِنَّمَا تَرْدُفُ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ أَوْ كَوْنُهُمَا مُتَرَقَّبَيْنِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[5]؟!

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْعَنْكَبُوتَ، الآية 69.

[5] سورة إِبْرَاهِيمَ، الآية 27.

وَقُرِئَ: "سَحَابُ ظُلُمَاتٍ"، عَلَى الْإِضَافَةِ. وَسَحَابٌ ظُلُمَاتٍ، بِرَفْعِ "سَحَابٌ" وَتَنْوِينِهِ وَجَرِّ "ظُلُمَاتٍ" بَدَلًا مِنْ "ظُلُمَاتٍ" الْأُولَى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[1]

﴿صَافَّاتٍ﴾ [2]يَصْفُقْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَلِمَ﴾ [3]لِكُلٍّ أَوْ لِلَّهِ. وَكَذَلِكَ فِي ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[4]، وَالصَّلَاةُ: الدُّعَاءُ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُلْهِمَ اللَّهُ الطَّيْرَ دُعَاءَهُ وَتَسْبِيحَهُ كَمَا أَلْهَمَهَا سَائِرَ الْعُلُومِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا يَكَادُ الْعُقَلَاءُ يَهْتَدُونَ إِلَيْهَا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5]

﴿يُزْجِي﴾[6] يَسُوقُ. وَمِنْهُ: الْبِضَاعَةُ الْمُزْجَاةُ: الَّتِي يُزْجِيهَا كُلُّ أَحَدٍ لَا يَرْضَاهَا. وَالسَّحَابُ يَكُونُ وَاحِدًا كَالْعَمَاءِ، وَجَمْعًا كَالرَّبَابِ.

وَمَعْنَى تَأْلِيفِ الْوَاحِدِ: أَنَّهُ يَكُونُ قُزَعًا فَيُضَمُّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. وَجَازَ بَيْنَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى بَيْنَ أَجْزَائِهِ؛ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ:

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَالرَّكَامُ: الْمُتَرَاكِمُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. وَالْوَدْقُ: الْمَطَرُ .

﴿مِنْ خِلالِهِ﴾[1] مِنْ فُتُوقِهِ وَمَخَارِجِهِ: جَمْعُ خَلَلٍ، كَجِبَالٍ فِي جَبَلٍ. وَقُرِئَ: "مِنْ خَلَلِهِ" "وَيُنَزِّلُ" بِالتَّشْدِيدِ. وَيَكَادُ سَنَا: عَلَى الْإِدْغَامِ. وَبَرْقُهُ: جَمْعُ بَرْقَةٍ، وَهِيَ الْمِقْدَارُ مِنَ الْبَرْقِ، كَالْغَرْفَةِ وَاللَّقْمَةِ. وَبُرُقُهُ: بِضَمَّتَيْنِ لِلْإِتْبَاعِ، كَمَا قِيلَ فِي جَمْعِ فُعْلَةٍ: فُعُلَاتٌ كَظُلُمَاتٍ.

وَ"سَنَاءُ بَرْقِهِ": عَلَى الْمَدِّ الْمَقْصُورِ، بِمَعْنَى الضَّوْءِ. وَالْمَمْدُودُ: بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ، مِنْ قَوْلِكَ: سِنِّيُّ الْمُرْتَفِعِ.

وَ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾[2] عَلَى زِيَادَةِ الْبَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾[3]، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَدَنِيِّ.

وَهَذَا مِنْ تَعْدِيدِ الدَّلَائِلِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَظُهُورِ أَمْرِهِ، حَيْثُ ذُكِرَ تَسْبِيحُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَكُلِّ مَا يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرض وَدُعَاؤُهُمْ لَهُ وَابْتِهَالُهُمْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَخَّرَ السَّحَابَ التَّسْخِيرَ الَّذِي وَصَفَهُ وَمَا يُحْدِثُ فِيهِ مِنْ أَفْعَالِهِ حَتَّى يُنْزِلَ الْمَطَرَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُقَسِّمُ رَحْمَتَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ وَيَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَيُرِيهِمُ الْبَرْقَ فِي السَّحَابِ الَّذِي يَكَادُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ، لِيَعْتَبِرُوا وَيَحْذَرُوا، وَيُعَاقِبُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيُخَالِفُ بَيْنَهُمَا بِالطُّولِ وَالْقِصَرِ.

وَمَا هَذِهِ إِلَّا بَرَاهِينُ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ عَلَى وُجُودِهِ وَثَبَاتِهِ، وَدَلَائِلُ مُنَادِيَةٌ عَلَى صِفَاتِهِ، لِمَنْ نَظَرَ وَفَكَّرَ وَتَبَصَّرَ وَتَدَبَّرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَتَى رَأَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَسْبِيحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَدُعَاءَهُمْ، وَتَسْبِيحَ الطَّيْرِ وَدُعَاءَهُ، وَتَنْزِيلَ الْمَطَرِ مِنْ جِبَالٍ بَرَدٍ فِي السَّمَاءِ، حَتَّى قِيلَ لَهُ: أَلَمْ تَرَ؟

قُلْتُ: عَلِمَهُ مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْوَحْيِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 195.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ مِنَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِنَ جِبَالٍ﴾[1]، ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾[2]؟

قُلْتُ: الْأُولَى لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ، وَالثَّالِثَةُ لِلْبَيَانِ، أَوِ الْأُولَيَانِ لِلِابْتِدَاءِ وَالْآخِرَةُ لِلتَّبْعِيضِ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُنَزِّلُ الْبَرَدَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا، وَعَلَى الْأَوَّلِ مَفْعُولُ ﴿يُنَزِّلُ﴾[3]: ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[5]؟

قُلْتُ: فِيهِ مَعْنَيَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ كَمَا خَلَقَ فِي الأرض جِبَالَ حَجَرٍ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يُرِيدَ الْكَثْرَةَ بِذِكْرِ الْجِبَالِ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ يَمْلِكُ جِبَالًا مِنْ ذَهَبٍ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]

وَقُرِئَ: "خَالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ".

وَلَمَّا كَانَ اسْمُ الدَّابَّةِ مُوقَعًا عَلَى الْمُمَيِّزِ وَغَيْرِ الْمُمَيِّزِ، غَلَّبَ الْمُمَيِّزَ فَأَعْطَى مَا وَرَاءَهُ حُكْمَهُ، كَأَنَّ الدَّوَابَّ كُلَّهُمْ مُمَيِّزُونَ. فَمِنْ ثَمَّةَ قِيلَ: فَمِنْهُمْ. وَقِيلَ: مَنْ يَمْشِي فِي الْمَاشِي عَلَى بَطْنٍ وَالْمَاشِي عَلَى أَرْبَعِ قَوَائِمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَكَّرَ الْمَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾[7]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الْمَاءِ مُخْتَصٍّ بِتِلْكَ الدَّابَّةِ. أَوْ خَلَقَهَا مِنْ مَاءٍ مَخْصُوصٍ وَهُوَ النُّطْفَةُ، ثُمَّ خَالَفَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ النُّطْفَةِ، فَمِنْهَا هَوَامُّ وَمِنْهَا بَهَائِمُ وَمِنْهَا نَاسٌ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بَالُهُ مُعَرَّفًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2]؟

قُلْتُ: قَصَدَ ثَمَّةَ مَعْنًى آخَرَ: وَهُوَ أَنَّ أَجْنَاسَ الْحَيَوَانِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ جِنْسُ الْمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ وَإِنْ تَخَلَّلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَسَائِطُ. قَالُوا: خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ رِيحٍ خَلَقَهَا مِنَ الْمَاءِ، وَالْجِنَّ مِنْ نَارٍ خَلَقَهَا مِنْهُ. وَآدَمَ مِنْ تُرَابٍ خَلَقَهُ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَاءَتِ الْأَجْنَاسُ الثَّلَاثَةُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ؟

قُلْتُ: قُدِّمَ مَا هُوَ أَعْرَقُ فِي الْقُدْرَةِ وَهُوَ الْمَاشِي بِغَيْرِ آلَةِ مَشْيٍ مِنْ أَرْجُلٍ أَوْ قَوَائِمَ، ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ الزَّحْفُ عَلَى الْبَطْنِ مَشْيًا؟

قُلْتُ: عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، كَمَا قَالُوا فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَمِرِّ: قَدْ مَشَى هَذَا الْأَمْرُ. وَيُقَالُ: فُلَانٌ لَا يَتَمَشَّى لَهُ أَمْرٌ. وَنَحْوُهُ: اسْتِعَارَةُ الشَّقَّةِ مَكَانَ الْجَحْفَلَةِ، وَالْمِشْفَرِ مَكَانَ الشَّفَةِ. وَنَحْوَ ذَلِكَ. أَوْ عَلَى طَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ لِذِكْرِ الزَّاحِفِ مَعَ الْمَاشِينَ.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[3]

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[4]: إِشَارَةٌ إِلَى الْقَائِلِينَ آمَنَّا وَأَطَعْنَا. أَوْ إِلَى الْفَرِيقِ الْمُتَوَلِّي، فَمَعْنَاهُ عَلَى الْأَوَّلِ: إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّ جَمِيعَهُمْ مُنْتَفٍ عَنْهُمُ الْإِيمَانُ لَا الْفَرِيقُ الْمُتَوَلِّي

---

[1] سورة الرَّعْدَ، الآية 4.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَحْدَهُ. وَعَلَى الثَّانِي: إِعْلَامٌ بِأَنَّ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّي لَمْ يَكُنْ مَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِيمَانًا، إِنَّمَا كَانَ ادِّعَاءً بِاللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ صَادِرًا عَنْ صِحَّةِ مُعْتَقَدٍ وَطُمَأْنِينَةِ نَفْسٍ لَمْ يَتَعَقَّبْهُ التَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضُ.

وَالتَّعْرِيفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[1] دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَرَفْتَ: وَهُمُ الثَّابِتُونَ الْمُسْتَقِيمُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْمَوْصُوفُونَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[2].

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[3]

مَعْنَى: ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4] إِلَى رَسُولِ اللَّهِ كَقَوْلِكَ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَمُهُ، تُرِيدُ: كَرَمَ زَيْدٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

غَلَّسْنَهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفُرَّطِهْ

أَرَادَ: قَبْلَ فَرْطِ الْقَطَا.

رُوِيَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بِشْرٍ الْمُنَافِقِ وَخَصْمِهِ الْيَهُودِيِّ حِينَ اخْتَصَمَا فِي أَرْضٍ، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَجُرُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالْمُنَافِقُ يَجُرُّهُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَيَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا.

وَرُوِيَ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ وَائِلٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– خُصُومَةٌ فِي مَاءٍ وَأَرْضٍ. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: أَمَّا مُحَمَّدٌ فَلَسْتُ آتِيهِ وَلَا أُحَاكِمُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُبْغِضُنِي وَأَنَا أَخَافُ أَنْ يَحِيفَ عَلَيَّ ﴿إِلَيْهِ﴾[5] صِلَةُ يَأْتُوا، لِأَنَّ "أَتَى" وَ"جَاءَ" قَدْ جَاءَا مُعَدَّيَيْنِ بِإِلَى، أَوْ يَتَّصِلُ بِمُذْعِنِينَ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى مُسْرِعِينَ فِي الطَّاعَةِ. وَهَذَا أَحْسَنُ لِتَقَدُّمِ صِلَتِهِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 15.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ إِلَّا الْحَقُّ الْمُرُّ وَالْعَدْلُ الْبَحْتُ. يَزُورُّونَ عَنِ الْمُحَاكَمَةِ إِلَيْكَ إِذَا رَكِبَهُمُ الْحَقُّ؛ لِئَلَّا تَنْتَزِعَهُ مِنْ أَحْدَاقِهِمْ بِقَضَائِكَ عَلَيْهِمْ لِخُصُومِهِمْ، وَإِنْ ثَبَتَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى خَصْمٍ أَسْرَعُوا إِلَيْكَ وَلَمْ يَرْضَوْا إِلَّا بِحُكُومَتِكَ، لِتَأْخُذَ لَهُمْ مَا ذَابَ لَهُمْ فِي ذِمَّةِ الْخَصْمِ.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1]

ثُمَّ قَسَّمَ الْأَمْرَ فِي صُدُودِهِمْ عَنْ حُكُومَتِهِ إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مَرْضَى الْقُلُوبِ مُنَافِقِينَ، أَوْ مُرْتَابِينَ فِي أَمْرِ نُبُوَّتِهِ، أَوْ خَائِفِينَ الْحَيْفَ فِي قَضَائِهِ.

ثُمَّ أَبْطَلَ خَوْفَهُمْ حَيْفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، أَيْ لَا يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ عَلَيْهِمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِحَالِهِ، وَإِنَّمَا هُمْ ظَالِمُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يَظْلِمُوا مَنْ لَهُ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ وَيَتِمَّ لَهُمْ جُحُودُهُ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَسْتَطِيعُونَهُ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَمِنْ ثَمَّةَ يَأْبَوْنَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَيْهِ.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]

وَعَنِ الْحَسَنِ: قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ، بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ أَقْوَى، لِأَنَّ أَوْلَى الِاسْمَيْنِ بِكَوْنِهِ اسْمًا لِكَانَ. أَوْغَلُهُمَا فِي التَّعْرِيفِ؛ وَأَنْ يَقُولُوا: أَوْغَلَ، لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ لِلتَّنْكِيرِ، بِخِلَافِ قَوْلِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾[1]، ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾[2]، وَقُرِئَ: "لِيُحْكَمَ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَامَ أَسْنَدَ يَحْكُمُ؟ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَاعِلٍ.

قُلْتُ: هُوَ مُسْنَدٌ إِلَى مَصْدَرِهِ. لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لِيَفْعَلَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ. وَمِثْلُهُ: جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ وَأَلْ بَيْنَهُمَا. وَمِثْلُهُ: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[3]، فِيمَنْ قَرَأَ "بَيْنَكُمْ" مَنْصُوبًا، أَيْ وَقَعَ التَّقَطُّعُ بَيْنَكُمْ. وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ مُجَاوِبَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿دُعُوا﴾[4].

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[5]

قُرِئَ: "وَيَتَّقِهِ"، بِكَسْرِ الْقَافِ وَالْهَاءِ مَعَ الْوَصْلِ وَبِغَيْرِ وَصْلٍ، وَبِسُكُونِ الْهَاءِ، وَبِسُكُونِ الْقَافِ وَكَسْرِ الْهَاءِ: شَبَّهَ تَقِهَ بِكَتِفٍ فَخَفَّفَ؛ كَقَوْلِهِ:

قَالَتْ سُلَيْمَى: اشْتَرِ لَنَا سَوِيقَا

وَلَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَسْبَابَ الْفَوْزِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِهَا: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ﴾[6] فِي فَرَائِضِهِ، ﴿وَرَسُولَهُ﴾[7] فِي سُنَنِهِ، ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾[8] عَلَى مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾[9] فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، وَعَنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ آيَةٍ كَافِيَةٍ فَتُلِيَتْ لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ.

---

[1] سورة مَرْيَمَ، الآية 35.

[2] سورة النُّورَ، الآية 16.

[3] سورة الْأَنْعَامَ، الآية 94.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]

جَهْدُ يَمِينِهِ: مُسْتَعَارٌ مِنْ جَهْدِ نَفْسِهِ: إِذَا بَلَغَ أَقْصَى وُسْعَهَا، وَذَلِكَ إِذَا بَالَغَ فِي الْيَمِينِ وَبَلَغَ غَايَةَ شِدَّتِهَا وَوَكَادَتِهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: مَنْ قَالَ بِاللَّهِ، جَهَدَ يَمِينَهُ، وَأَصْلُ: أَقْسَمَ جَهْدَ الْيَمِينِ: أَقْسَمَ يُجْهِدُ الْيَمِينَ جَهْدًا، فَحُذِفَ الْفِعْلُ وَقُدِّمَ الْمَصْدَرُ فَوُضِعَ مَوْضِعَهُ مُضَافًا إِلَى الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِ:﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[2].

وَحُكْمُ هَذَا الْمَنْصُوبِ حُكْمُ الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: جَاهِدِينَ أَيْمَانَهُمْ، وَ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾[3] خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ. أَوْ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ الْخَبَرِ، أَيْ: أَمْرُكُمْ وَالَّذِي يُطْلَبُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ لَا يُشَكُّ فِيهَا وَلَا يُرْتَابُ، كَطَاعَةِ الْخُلَّصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ طَابَقَ بَاطِنُ أَمْرِهِمْ ظَاهِرَهُ، لَا أَيْمَانَ تُقْسِمُونَ بِهَا بِأَفْوَاهِكُمْ وَقُلُوبُكُمْ عَلَى خِلَافِهَا، أَوْ طَاعَتُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، بِأَنَّهَا الْقَوْلُ دُونَ الْفِعْلِ، أَوْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ أَمْثَلُ وَأَوْلَى بِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ.

وَقَرَأَ الْيَزِيدِيُّ: "طَاعَةً مَعْرُوفَةً" بِالنَّصْبِ عَلَى مَعْنَى: أَطِيعُوا طَاعَةً، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾[4]، يَعْلَمُ مَا فِي ضَمَائِرِكُمْ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِكُمْ، وَأَنَّهُ فَاضِحُكُمْ لَا مَحَالَةَ وَمُجَازِيكُمْ عَلَى نِفَاقِكُمْ.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة مُحَمَّدَ، الآية 4.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة النُّورَ، الآية 53.

[5] سورة ، الآية .

صَرَفَ الْكَلَامَ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِهِمْ، يُرِيدُ: فَإِنْ تَتَوَلَّوْا فَمَا ضَرَرْتُمُوهُ وَإِنَّمَا ضَرَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا حَمَّلَهُ اللَّهُ وَكَلَّفَهُ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، فَإِذَا أَدَّى فَقَدْ خَرَجَ عَنْ عُهْدَةِ تَكْلِيفِهِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَعَلَيْكُمْ مَا كُلِّفْتُمْ مِنَ التَّلَقِّي بِالْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَوَلَّيْتُمْ فَقَدْ عَرَّضْتُمْ نُفُوسَكُمْ لِسُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُ فَقَدْ أَحْرَزْتُمْ نَصِيبَكُمْ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى، فَالنَّفْعُ وَالضَّرَرُ عَائِدَانِ إِلَيْكُمْ، وَمَا الرَّسُولُ إِلَّا نَاصِحٌ وَهَادٍ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغَ مَا لَهُ نَفْعٌ فِي قَبُولِكُمْ، وَلَا عَلَيْهِ ضَرَرٌ فِي تَوَلِّيكُمْ: وَالْبَلَاغُ: بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ، كَالْأَدَاءِ: بِمَعْنَى التَّأْدِيَةِ، وَمَعْنَى الْمُبِينِ: كَوْنُهُ مَقْرُونًا بِالْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]

الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلِمَنْ مَعَهُ. وَمِنْكُمْ: لِلْبَيَانِ، كَالَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ الْفَتْحِ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ الْإِسْلَامَ عَلَى الْكُفْرِ، وَيُورِثَهُمُ الأرض، وَيَجْعَلَهُمْ فِيهَا خُلَفَاءَ، كَمَا فَعَلَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَ أَوْرَثَهُمْ مِصْرَ وَالشَّامَ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْجَبَابِرَةِ، وَأَنْ يُمَكِّنَ الدِّينَ الْمُرْتَضَى وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ. وَتَمْكِينُهُ: تَثْبِيتُهُ وَتَوْطِيدُهُ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ سِرْبَهُمْ وَيُزِيلَ عَنْهُمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَصْحَابَهُ مَكَثُوا بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ خَائِفِينَ، وَلَمَّا هَاجَرُوا كَانُوا بِالْمَدِينَةِ يُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ وَيُمْسُونَ فِيهِ، حَتَّى قَالَ رَجُلٌ: مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ السِّلَاحَ؟ فَقَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تَغْبُرُونَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَ مَعَهُ حَدِيدَةٌ" ، فَأَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَافْتَتَحُوا بَعْدُ بِلَادَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَزَّقُوا مُلْكَ الْأَكَاسِرَةِ وَمَلَكُوا خَزَائِنَهُمْ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الدُّنْيَا، ثُمَّ خَرَجَ الَّذِينَ

[1] سورة ، الآية .

عَلَى خِلَافِ سِيرَتِهِمْ فَكَفَرُوا بِتِلْكَ الْأَنْعُمِ وَفَسَقُوا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُمَلِّكُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ فَتَصِيرُ مُلْكًا، ثُمَّ تَصِيرُ بِزِيزَى: قَطْعُ سَبِيلٍ، وَسَفْكُ دِمَاءٍ وَأَخْذُ أَمْوَالٍ بِغَيْرِ حَقِّهَا"، وَقُرِئَ: "كَمَا اسْتَخْلَفَ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾[1]: بِالتَّشْدِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ الْقَسَمُ الْمُلْتَقِي بِاللَّامِ وَالنُّونِ فِي ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[2]؟

قُلْتُ: هُوَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ، وَأَقْسَمَ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ، أَوْ نَزَلَ وَعْدُ اللَّهِ فِي تَحَقُّقِهِ مَنْزِلَةَ الْقَسَمِ. فَتَلَقَّى بِمَا يُتَلَقَّى بِهِ الْقَسَمُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقْسَمَ اللَّهُ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾[3]؟

قُلْتُ: إِنْ جَعَلْتَهُ اسْتِئْنَافًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحَلٌّ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَا لَهُمْ يُسْتَخْلَفُونَ وَيُؤَمَّنُونَ؟ فَقَالَ: يَعْبُدُونَنِي. وَإِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا عَنْ وَعْدِهِمْ، أَيْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي حَالِ عِبَادَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ، فَمَحَلُّهُ النَّصْبُ.

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾[4]، يُرِيدُ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾[5].

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[6]، أَيْ: هُمُ الْكَامِلُونَ فِي فِسْقِهِمْ، حَيْثُ كَفَرُوا تِلْكَ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَجَسَرُوا عَلَى غَمْطِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ؟

قُلْتُ: أَوْضَحُ دَلِيلٍ وَأَبْيَنُهُ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ هُمْ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة النَّحْلَ، الآية 112.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[1] مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2]، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَقَعَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فَاصِلٌ وَإِنْ طَالَ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْمَعْطُوفِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ. وَكُرِّرَتْ طَاعَةُ الرَّسُولِ: تَأْكِيدًا لِوُجُوبِهَا.

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3]

وَقُرِئَ: "لَا يَحْسَبَنَّ" بِالْيَاءِ، وَفِيهِ أَوْجُهٌ: أَنْ يَكُونَ ﴿مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾[4] هُمَا الْمَفْعُولَانِ.

وَالْمَعْنَى: لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَحَدًا يُعْجِزُ اللَّهَ فِي الأرض حَتَّى يَطْمَعُوا فِي مِثْلِ ذَلِكَ.

وَهَذَا مَعْنًى قَوِيٌّ جَيِّدٌ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهِ ضَمِيرُ الرَّسُولِ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ:﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[5]، وَأَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ: لَا يَحْسَبَنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ، ثُمَّ حُذِفَ الضَّمِيرُ الَّذِي هُوَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ، وَكَانَ الَّذِي سَوَّغَ ذَلِكَ أَنَّ الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَيْنِ لَمَّا كَانَتْ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ، اقْتَنَعَ بِذِكْرِ اثْنَيْنِ عَنْ ذِكْرِ الثَّالِثِ.

وَعَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[6] عَلَى لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَفُوتُونَ اللَّهَ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ. وَالْمُرَادُ بِهِمْ: الْمُقْسِمُونَ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة النُّورَ، الآية 54.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة النُّورَ، الآية 54.

[6] سورة ، الآية .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]

أَمَرَ بِأَنْ يَسْتَأْذِنَ الْعَبِيدُ. وَقِيلَ: الْعَبِيدُ وَالإِمَاءُ وَالأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَحْتَلِمُوا مِنَ الأَحْرَارِ ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾[2] فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ: قَبْلَ صَلاةِ الْفَجْرِ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ قِيَامٍ مِنَ الْمَضَاجِعِ وَطَرْحِ مَا يُنَامُ فِيهِ مِنَ الثِّيَابِ وَلُبْسِ ثِيَابِ الْيَقَظَةِ، وَبِالظَّهِيرَةِ: لِأَنَّهَا وَقْتُ وَضْعِ الثِّيَابِ لِلْقَائِلَةِ. وَبَعْدَ صَلاةِ الْعِشَاءِ: لِأَنَّهُ وَقْتُ التَّجَرُّدِ مِنْ ثِيَابِ الْيَقَظَةِ وَالِالْتِحَافِ بِثِيَابِ النَّوْمِ.

وَسَمَّى كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ عَوْرَةً؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَخْتَلُّ تَسَتُّرُهُمْ وَتَحَفُّظُهُمْ فِيهَا.

وَالْعَوْرَةُ: الْخَلَلُ، وَمِنْهَا: أَعْوَرُ الْفَارِسِ، وَأَعْوَرُ الْمَكَانِ، وَالأَعْوَرُ: الْمُخْتَلُّ الْعَيْنِ، ثُمَّ عَذَرَهُمْ فِي تَرْكِ الِاسْتِئْذَانِ وَرَاءَ هَذِهِ الْمَرَّاتِ.

وَبَيَّنَ وَجْهَ الْعُذْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّ بِكُمْ وَبِهِمْ حَاجَةً إِلَى الْمُخَالَطَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ: يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ بِالْخِدْمَةِ، وَتَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ لِلِاسْتِخْدَامِ؛ فَلَوْ جَزَمَ الأَمْرَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، لَأَدَّى إِلَى الْحَرَجِ.

وَرُوِيَ أَنَّ مُدْلِجَ بْنَ عَمْرٍو: وَكَانَ غُلَامًا أَنْصَارِيًّا: أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقْتَ الظُّهْرِ إِلَى عُمَرَ لِيَدْعُوَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ وَقَدِ انْكَشَفَ عَنْهُ ثَوْبُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: لَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَهَى آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَخَدَمَنَا أَنْ لَا يَدْخُلُوا عَلَيْنَا هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا بِإِذْنٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَوَجَدَهُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ، وَهِيَ إِحْدَى الآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ بِسَبَبِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي مُرْشِدٍ، قَالَتْ: إِنَّا لَنَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَلَعَلَّهُمَا يَكُونَانِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: دَخَلَ عَلَيْهَا غُلَامٌ لَهَا كَبِيرٌ فِي وَقْتٍ كَرِهَتْ دُخُولَهُ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: إِنَّ خَدَمَنَا وَغِلْمَانَنَا يَدْخُلُونَ عَلَيْنَا فِي حَالٍ نَكْرَهُهَا.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو: "الْحُلْمُ" بِالسُّكُونِ. وَقُرِئَ: "ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ" بِالنَّصْبِ بَدَلًا عَنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَيْ: أَوْقَاتَ ثَلَاثِ عَوْرَاتٍ. وَعَنِ الْأَعْمَشِ: عَوْرَاتٌ عَلَى لُغَةِ هُذَيْلٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ لَيْسَ عَلَيْكُمْ؟

قُلْتُ: إِذَا رَفَعْتَ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ كَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْوَصْفِ.

وَالْمَعْنَى: هُنَّ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ مَخْصُوصَةٌ بِالِاسْتِئْذَانِ، وَإِذَا نَصَبْتَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحَلٌّ وَكَانَ كَلَامًا مُقَرِّرًا لِلْأَمْرِ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ خَاصَّةً:

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ ارْتَفَعَ ﴿بَعْضُكُمْ﴾[1]؟

قُلْتُ: بِالِابْتِدَاءِ وَخَبَرُهُ ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾[2] عَلَى مَعْنَى: طَائِفٌ عَلَى بَعْضٍ، وَحُذِفَ، لِأَنَّ طَوَّافُونَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْتَفِعَ بِيَطُوفُ مُضْمَرًا لِتِلْكَ الدَّلَالَةِ.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3]

﴿الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ﴾[4]، أَيْ مِنَ الْأَحْرَارِ دُونَ الْمَمَالِيكِ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[5]، يُرِيدُ: الَّذِينَ بَلَغُوا الْحُلُمَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَهُمُ الرِّجَالُ. أَوِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾[6]، الْآيَةَ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ الْأَطْفَالَ مَأْذُونٌ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ إِلَّا فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ، فَإِذَا اعْتَادَ الْأَطْفَالُ ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حَدِّ الطُّفُولَةِ بِأَنْ يَحْتَلِمُوا أَوْ يَبْلُغُوا السِّنَّ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا عَلَيْهِمْ بِالْبُلُوغِ، وَجَبَ أَنْ يُفْطَمُوا عَنْ تِلْكَ الْعَادَةِ وَيُحْمَلُوا عَلَى أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي جَمِيعِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة النُّورَ ، الآية .

الْأَوْقَاتِ كَمَا الرِّجَالُ الْكِبَارُ الَّذِينَ لَمْ يَعْتَادُوا الدُّخُولَ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِإِذْنٍ: وَهَذَا مِمَّا النَّاسُ مِنْهُ فِي غَفْلَةٍ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالشَّرِيعَةِ الْمَنْسُوخَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: آيَةٌ لَا يُؤْمِنُ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ: آيَةُ الْإِذْنِ، وَإِنِّي لَآمِرٌ جَارَتِي أَنْ تَسْتَأْذِنَ عَلَيَّ.

وَسُئِلَ عَطَاءٌ: أَأَسْتَأْذِنُ عَلَى أُخْتِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حِجْرِكَ تُمَوِّنُهَا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَعَنْهُ: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَحَدَهُنَّ النَّاسُ: الْإِذْنُ كُلُّهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] ، فَقَالَ نَاسٌ: أَعْظَمُكُمْ بَيْتًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾[2].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا عَلَى آبَائِكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ يَقُولُونَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ، وَاللَّهِ مَا هِيَ مَنْسُوخَةٌ، وَلَكِنَّ النَّاسَ تَهَاوَنُوا بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ مَا السِّنُّ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِالْبُلُوغِ؟

قُلْتُ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً فِي الْغُلَامِ. وَسَبْعَ عَشْرَةَ فِي الْجَارِيَةِ. وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ فِيهِمَا.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ كَانَ يَعْتَبِرُ الْقَامَةَ وَيُقَدِّرُهُ بِخَمْسَةِ أَشْبَارٍ؛ وَبِهِ أَخَذَ الْفَرَزْدَقُ فِي قَوْلِهِ:

مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ فَسَمَا فَأَدْرَكَ خَمْسَةَ الْأَشْبَارِ

وَاعْتَبَرَ غَيْرُهُ الْإِنْبَاتَ.

وَعَنْ عُثْمَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ غُلَامٍ، فَقَالَ: هَلِ اخْضَرَّ إِزَارُهُ؟

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]

---

[1] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 13.

[2] سورة النِّسَاءَ، الآية 8.

[3] سورة ، الآية .

الْقَاعِدُ: الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَلَدِ لِكِبَرِهَا ﴿لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾[1] لَا يَطْمَعْنَ فِيهِ: وَالْمُرَادُ بِالثِّيَابِ: الثِّيَابُ الظَّاهِرَةُ كَالْمِلْحَفَةِ وَالْجِلْبَابِ الَّذِي فَوْقَ الْخِمَارِ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾[2] غَيْرَ مُظْهِرَاتٍ زِينَةً، يُرِيدُ: الزِّينَةَ الْخَفِيفَةَ الَّتِي أَرَادَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[3] أَوْ غَيْرَ قَاصِدَاتٍ بِالْوَضْعِ التَّبَرُّجَ، وَلَكِنِ التَّخَفُّفُ إِذَا احْتَجْنَ إِلَيْهِ.

وَالِاسْتِعْفَافُ مِنَ الْوَضْعِ خَيْرٌ لَهُنَّ لَمَّا ذَكَرَ الْجَائِزَ عَقَّبَهُ بِالْمُسْتَحَبِّ. بَعْثًا مِنْهُ عَنِ اخْتِيَارِ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَحْسَنِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حَقِيقَةُ التَّبَرُّجِ؟

قُلْتُ: تَكَلُّفُ إِظْهَارِ مَا يَجِبُ إِخْفَاؤُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَفِينَةٌ بَارِجٌ، لَا غِطَاءَ عَلَيْهَا. وَالْبَرَجُ: سِعَةُ الْعَيْنِ، يُرَى بَيَاضُهَا مُحِيطًا بِسَوَادِهَا كُلِّهِ لَا يَغِيبُ مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ اخْتُصَّ بِأَنْ تَتَكَشَّفَ الْمَرْأَةُ لِلرِّجَالِ بِإِبْدَاءِ زِينَتِهَا وَإِظْهَارِ مَحَاسِنِهَا، وَبَدَا، وَبَرَزَ، بِمَعْنَى: ظَهَرَ، مِنْ أَخَوَاتِ: تَبَرَّجَ وَتَبَلَّجَ، كَذَلِكَ.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَذْهَبُونَ بِالضُّعَفَاءِ وَذَوِي الْعَاهَاتِ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَإِلَى بُيُوتِ قُرَابَاتِهِمْ وَأَصْدِقَائِهِمْ فَيُطْعِمُونَهُمْ مِنْهَا، فَخَالَجَ قُلُوبَ الْمُطْعِمِينَ وَالْمُطْعَمِينَ رِيبَةٌ فِي

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 280.

[5] سورة ، الآية .

ذَلِكَ، وَخَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ فِيهِ حَرَجٌ؛ وَكَرِهُوا أَنْ يَكُونَ أَكْلًا بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1]، فَقِيلَ لَهُمْ: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ يَعْنِي: عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي مِثْلِ حَالِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي ذَلِكَ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: كَانَتِ الْأَنْصَارُ فِي أَنْفُسِهَا قَزَازَةٌ. فَكَانَتْ لَا تَأْكُلُ مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ إِذَا اسْتَغْنَوْا . وَقِيلَ: كَانَ هَؤُلَاءِ يَتَوَقَّوْنَ مُجَالَسَةَ النَّاسِ وَمُؤَاكَلَتَهُمْ لِمَا عَسَى يُؤَدِّي إِلَى الْكَرَاهَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ، وَلِأَنَّ الْأَعْمَى رُبَّمَا سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَى مَا سَبَقَتْ عَيْنَ أَكِيلِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَالْأَعْرَجُ يَتَفَسَّحُ فِي مَجْلِسِهِ وَيَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعِهِ فَيُضَيِّقُ عَلَى جَلِيسِهِ، وَالْمَرِيضُ لَا يَخْلُو مِنْ رَائِحَةٍ تُؤْذِي أَوْ جُرْحٍ يَبِضُّ أَوْ أَنْفٍ يَذِنُّ وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: كَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَى الْغَزْوِ وَيُخَلِّفُونَ الضُّعَفَاءَ فِي بُيُوتِهِمْ، وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِمُ الْمَفَاتِيحَ. وَيَأْذَنُونَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ فَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ.

حُكِيَ عَنِ الْحَرْثِ بْنِ عَمْرٍ وأَنَّهُ خَرَجَ غَازِيًا وَخَلَّفَ مَالِكَ بْنَ زَيْدٍ فِي بَيْتِهِ وَمَالِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ رَآهُ مَجْهُودًا، فَقَالَ: مَا أَصَابَكَ؟ قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي أَنْ آكُلَ مِنْ مَالِكَ، فَقِيلَ: لَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ حَرَجٌ فِيمَا تَحَرَّجُوا عَنْهُ، وَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ، وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ، وَكَذَلِكَ إِذَا فُسِّرَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، وَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنَ الْبُيُوتِ الْمَذْكُورَةِ، لِالْتِقَاءِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَنْفِيٌّ عَنْهَا الْحَرَجُ.

وَمِثَالُ هَذَا: أَنْ يَسْتَفْتِيَكَ مُسَافِرٌ عَنِ الْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ. وَحَاجٌّ مُفْرِدٌ عَنْ تَقْدِيمِ الْحَلْقِ عَلَى النَّحْرِ، فَقُلْتَ: لَيْسَ عَلَى الْمُسَافِرِ حَرَجٌ أَنْ يُفْطِرَ، وَلَا عَلَيْكَ يَا حَاجُّ أَنْ تُقَدِّمَ الْحَلْقَ عَلَى النَّحْرِ، فَقُلْتَ: هَلَّا ذَكَرَ الْأَوْلَادَ؛ قُلْتُ: دَخَلَ ذِكْرُهُمْ تَحْتَ قَوْلِهِ:﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾[2]، لِأَنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ بَعْضُهُ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ نَفْسِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الْمَرْءُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ، وَمَعْنَى: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾[3] مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي فِيهَا أَزْوَاجُكُمْ وَعِيَالُكُمْ، وَلِأَنَّ الْوَلَدَ أَقْرَبُ مِمَّنْ عَدَّدَ مِنَ الْقَرَابَاتِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 188.

[2] سورة النَّحْل، الآية 80.

[3] سورة ، الآية .

فَإِذَا كَانَ سَبَبُ الرُّخْصَةِ هُوَ الْقَرَابَةُ، كَانَ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ أَوْلَى.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾[1]؟

قُلْتُ: أَمْوَالُ الرَّجُلِ إِذَا كَانَ لَهُ عَلَيْهَا قَيِّمٌ وَوَكِيلٌ يَحْفَظُهَا لَهُ: أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ بُسْتَانِهِ وَيَشْرَبَ مِنْ لَبَنِ مَاشِيَتِهِ. وَمِلْكُ الْمَفَاتِحِ: كَوْنُهَا فِي يَدِهِ وَحِفْظِهِ. وَقِيلَ: بُيُوتُ الْمَمَالِيكِ؛ لِأَنَّ مَالَ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ. وَقُرِئَ: "مِفْتَاحَهُ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[2]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَوْ بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ. وَالصَّدِيقُ يَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا، وَكَذَلِكَ الْخَلِيطُ وَالْقَطِينُ وَالْعَدُوُّ.

يُحْكَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ دَخَلَ دَارَهُ وَإِذَا حَلْقَةٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَقَدِ اسْتَلُّوا سِلَالًا مِنْ تَحْتِ سَرِيرِهِ فِيهَا الْخَبِيصُ وَأَطَايِبُ الْأَطْعِمَةِ وَهُمْ مُكِبُّونَ عَلَيْهَا يَأْكُلُونَ، فَتَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ سُرُورًا، وَضَحِكَ وَقَالَ: هَكَذَا وَجَدْنَاهُمْ، يُرِيدُ كُبَرَاءَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ لَقِيَهُمْ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-. وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَدْخُلُ دَارَ صَدِيقِهِ، وَهُوَ غَائِبٌ فَيَسْأَلُ جَارِيَتَهُ كِيسَهُ فَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا شَاءَ، فَإِذَا حَضَرَ مَوْلَاهَا فَأَخْبَرَتْهُ أَعْتَقَهَا سُرُورًا بِذَلِكَ،

وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: مِنْ عِظَمِ حُرْمَةِ الصَّدِيقِ أَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْأُنْسِ وَالثِّقَةِ وَالِانْبِسَاطِ وَطَرْحِ الْحِشْمَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ وَالْأَبِ وَالْأَخِ وَالِابْنِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: الصَّدِيقُ أَكْبَرُ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، إِنَّ الْجَهَنَّمِيِّينَ لَمَّا اسْتَغَاثُوا لَمْ يَسْتَغِيثُوا بِالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، فَقَالُوا: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. وَقَالُوا: إِذَا دَلَّ ظَاهِرُ الْحَالِ عَلَى رِضَا الْمَالِكِ، قَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِذْنِ الصَّرِيحِ، وَرُبَّمَا سَمِجَ الِاسْتِئْذَانُ وَثَقُلَ، كَمَنْ قُدِّمَ إِلَيْهِ طَعَامٌ، فَاسْتَأْذَنَ صَاحِبَهُ فِي الْأَكْلِ مِنْهُ ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[3]، أَيْ مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ. نَزَلَتْ فِي بَنِي لَيْثِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ كِنَانَةَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ فَرُبَّمَا قَعَدَ مُنْتَظِرًا نَهَارَهُ إِلَى اللَّيْلِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُوَاكِلُهُ أَكَلَ ضَرُورَةً، وَقِيلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا مَعَ ضَيْفِهِمْ، وَقِيلَ: تَحَرَّجُوا عَنِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الْأَكْلِ وَزِيَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾[1] مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ لِتَأْكُلُوا فَابْدَؤُوا بِالسَّلَامِ عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ مِنْكُمْ دِينًا وَقَرَابَةً ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[2]، أَيْ ثَابِتَةً بِأَمْرِهِ، مَشْرُوعَةً مِنْ لَدُنْهِ. أَوْ لِأَنَّ التَّسْلِيمَ وَالتَّحِيَّةَ طَلَبُ سَلَامَةٍ وَحَيَاةٍ لِلْمُسَلَّمِ عَلَيْهِ وَالْمُحَيَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَوَصْفُهَا بِالْبِرْكَةِ وَالطِّيبِ: لِأَنَّهَا دَعْوَةُ مُؤْمِنٍ لِمُؤْمِنٍ يُرْجَى بِهَا مِنَ اللَّهِ زِيَادَةُ الْخَيْرِ وَطِيبُ الرِّزْقِ.

وَعَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَشْرَ سِنِينَ –وَرُوِيَ: تِسْعَ سِنِينَ– فَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ فِعْلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ كَسْرْتُهُ لِمَ كَسَرْتَهُ؟ وَكُنْتُ وَاقِفًا عَلَى رَأْسِهِ أَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: "أَلَا أُعْلِمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ تَنْتَفِعُ بِهَا؟ قُلْتُ: بَلَى بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَتَى لَقِيتَ مِنْ أُمَّتِي أَحَدًا فَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَطُلْ عُمُرُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى، فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَبْرَارِ الْأَوَّابِينَ.

وَقَالُوا: إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ فَلْيَقُلِ: السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَقُلِ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَانْتَصَبَ تَحِيَّةً بِسَلِّمُوا، لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى تَسْلِيمًا، كَقَوْلِكَ: قَعَدْتُ جُلُوسًا.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]

أَرَادَ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنْ يُرِيَهُمْ عِظَمَ الْجِنَايَةِ فِي ذَهَابِ الذَّاهِبِ عَنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِغَيْرِ إِذْنِهِ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ فَجَعَلَ تَرْكَ ذَهَابِهِمْ حَتَّى

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

يَسْتَأْذِنُوهُ ثَالِثَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمَا كَالتَّشْبِيبِ لَهُ وَالْبِسَاطِ لِذِكْرِهِ، وَذَلِكَ مَعَ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِإِنَّمَا وَإِيقَاعِ الْمُؤْمِنِينَ مُبْتَدَأً مُخْبَرًا عَنْهُ بِمَوْصُولٍ أَحَاطَتْ صِلَتُهُ بِذِكْرِ الْإِيمَانَيْنِ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِمَا يَزِيدُهُ تَوْكِيدًا وَتَشْدِيدًا، حَيْثُ أَعَادَهُ عَلَى أُسْلُوبٍ آخَرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] وَضَمَّنَهُ شَيْئًا آخَرَ، وَهُوَ: أَنَّهُ جَعَلَ الِاسْتِئْذَانَ كَالْمِصْدَاقِ لِصِحَّةِ الْإِيمَانَيْنِ، وَعَرَّضَ بِحَالِ الْمُنَافِقِينَ وَتَسَلُّلِهِمْ لِوَاذًا.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[2] لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ وَيَأْذَنَ لَهُمْ.

أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ عَلَّقَ الْأَمْرَ بَعْدَ وُجُودِ اسْتِئْذَانِهِمْ بِمَشِيئَتِهِ وَإِذْنِهِ لِمَنِ اسْتَصْوَبَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ؟!

وَالْأَمْرُ الْجَامِعُ: الَّذِي يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ، فَوُصِفَ الْأَمْرُ بِالْجَمْعِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، وَذَلِكَ نَحْوَ مُقَاتَلَةِ عَدُوٍّ، أَوْ تَشَاوُرٍ فِي خَطْبٍ مُهِمٍّ، أَوْ تَضَامٍّ لِإِرْهَابِ مُخَالِفٍ، أَوْ تَمَاسُحٍ فِي حِلْفٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. أَوِ الْأَمْرُ الَّذِي يَعُمُّ بِضَرَرِهِ أَوْ بِنَفْعِهِ. وَقُرِئَ: "أَمْرٍ جَمِيعٍ".

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾[3] أَنَّهُ خَطْبٌ جَلِيلٌ لَا بُدَّ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيهِ مِنْ ذَوِي رَأْيٍ وَقُوَّةٍ، يُظَاهِرُونَهُ عَلَيْهِ وَيُعَاوِنُونَهُ وَيَسْتَضِيءُ بِآرَائِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ فِي كِفَايَتِهِ، فَمُفَارَقَةُ أَحَدِهِمْ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ مِمَّا يَشُقُّ عَلَى قَلْبِهِ وَيَشْعَثُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ.

فَمِنْ ثَمَّةَ غَلَّظَ عَلَيْهِمْ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ فِي الِاسْتِئْذَانِ، مَعَ الْعُذْرِ الْمَبْسُوطِ وَمِسَاسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَاعْتِرَاضِ مَا يُهِمُّهُمْ وَيَعْنِيهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾[4]، وَذِكْرُ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُسْتَأْذِنِينَ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ الْأَفْضَلَ أَنْ لَا يُحَدِّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالذَّهَابِ وَلَا يَسْتَأْذِنُوا فِيهِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ وَكَانَ قَوْمٌ يَتَسَلَّلُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ. وَقَالُوا: كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مَعَ أَئِمَّتِهِمْ وَمُقَدَّمِيهِمْ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ يُظَاهِرُونَهُمْ وَلَا يَخْذُلُونَهُمْ فِي نَازِلَةٍ مِنَ النَّوَازِلِ وَلَا يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُمْ. وَالْأَمْرُ فِي الْإِذْنِ مُفَوَّضٌ إِلَى الْإِمَامِ: إِنْ شَاءَ أَذِنَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ، عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ رَأْيُهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]

إِذَا احْتَاجَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى اجْتِمَاعِكُمْ عِنْدَهُ لِأَمْرٍ فَدَعَاكُمْ فَلَا تَفَرَّقُوا عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَقِيسُوا دُعَاءَهُ إِيَّاكُمْ عَلَى دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَرُجُوعِكُمْ عَنِ الْمَجْمَعِ بِغَيْرِ إِذْنِ الدَّاعِي. أَوْ لَا تَجْعَلُوا تَسْمِيَتَهُ وَنِدَاءَهُ بَيْنَكُمْ كَمَا يُسَمِّي بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنَادِيهِ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَبَوَاهُ، وَلَا تَقُولُوا: يَا مُحَمَّدُ، وَلَكِنْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَيَا رَسُولَ اللَّهِ، مَعَ التَّوْقِيرِ وَالتَّعْظِيمِ وَالصَّوْتِ الْمَخْفُوضِ وَالتَّوَاضُعِ.

وَيُحْتَمَلُ: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ رَبَّهُ مِثْلَ مَا يَدْعُو صَغِيرُكُمْ وَكَبِيرُكُمْ وَفَقِيرُكُمْ غَنِيَّكُمْ، يَسْأَلُهُ حَاجَةً فَرُبَّمَا أَجَابَهُ وَرُبَّمَا رَدَّهُ، فَإِنَّ دَعَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَسْمُوعَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾[2] يَنْسَلُّونَ قَلِيلًا قَلِيلًا. وَنَظِيرُ "تَسَلَّلَ": "تَدَرَّجَ وَتَدَخَّلَ": وَاللِّوَاذُ: الْمُلَاوَذَةُ، وَهُوَ أَنْ يَلُوذَ هَذَا بِذَاكَ وَذَاكَ بِهَذَا، يَعْنِي: يَنْسَلُّونَ عَنِ الْجَمَاعَةِ فِي الْخُفْيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُلَاوَذَةِ وَاسْتِتَارِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

وَ﴿لِوَاذًا﴾[3] حَالٌ، أَيْ: مُلَاوِذِينَ. وَقِيلَ: كَانَ بَعْضُهُمْ يَلُوذُ بِالرَّجُلِ إِذَا اسْتَأْذَنَ فَيَأْذَنُ لَهُ، فَيَنْطَلِقُ الَّذِي لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ مَعَهُ. وَقُرِئَ: "لَوَاذًا" بِالْفَتْحِ، يُقَالُ: خَالَفَهُ إِلَى الْأَمْرِ، إِذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دُونَهُ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[4]، وَخَالَفَهُ عَنِ الْأَمْرِ: إِذَا صَدَّ عَنْهُ دُونَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة هُودَ، الآية 8.

وَمَعْنَى: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[1] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ أَمْرِهِ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ، لِأَنَّ الْغَرَضَ ذِكْرُ الْمُخَالِفِ وَالْمُخَالَفِ عَنْهُ. الضَّمِيرُ فِي أَمْرِهِ لِلَّهِ –سُبْحَانَهُ– أَوْ لِلرَّسُولِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَالْمَعْنَى: عَنْ طَاعَتِهِ وَدِينِهِ ﴿فِتْنَةٌ﴾[2] مِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] فِي الْآخِرَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: فِتْنَةُ قَتْلٍ.

وَعَنْ عَطَاءٍ: زَلَازِلُ وَأَهْوَالٌ. وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ: يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]

أَدْخَلَ ﴿قَدْ﴾[5] لِيُؤَكِّدَ عِلْمَهُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ عَنِ الدِّينِ وَالنِّفَاقِ وَمَرْجِعُ تَوْكِيدِ الْعِلْمِ إِلَى تَوْكِيدِ الْوَعِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّ ﴿قَدْ﴾[6] إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمُضَارِعِ كَانَتْ بِمَعْنَى "رُبَّمَا"، فَوَافَقَتْ "رُبَّمَا" فِي خُرُوجِهَا إِلَى مَعْنَى التَّكْثِيرِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ:

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَرُبَّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ

وَنَحْوُهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ

وَالْمَعْنَى: أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض مُخْتَصَّةٌ بِهِ خَلْقًا وَمِلْكًا وَعِلْمًا، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَإِنْ كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِهَا عَنِ الْعُيُونِ وَإِخْفَائِهَا، وَسَيُنَبِّئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا أَبْطَنُوا مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَسَيُجَازِيهِمْ حَقَّ جَزَائِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَالْخِطَابُ وَالْغَيْبَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾[1] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا الْمُنَافِقِينَ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾[2] عَامًّا، وَ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [3]لِلْمُنَافِقِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النُّورِ أَعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا بَقِيَ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سُورَةُ الفُرقَانِ

سورة الفرقان

مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتِ 68 وَ 69 وَ 70 فَمَدَنِيَّةٌ
وَآيَاتُهَا 77 [نَزَلَتْ بَعْدَ يس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]

الْبِرْكَةُ: كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَزِيَادَتُهُ. وَمِنْهَا: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾[2]، وَفِيهِ مَعْنَيَانِ: تَزَايَدَ خَيْرُهُ، وَتَكَاثَرَ. أَوْ تَزَايَدَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَعَالَى عَنْهُ فِي صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَ﴿الْفُرْقَانَ﴾[3]: مَصْدَرُ فَرَقَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا فَصَلَ بَيْنَهُمَا، وَسُمِّيَ بِهِ الْقُرْآنُ لِفَصْلِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ مَفْرُوقًا، مَفْصُولًا بَيْنَ بَعْضِهِ وَبَعْضٍ فِي الْإِنْزَالِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا﴾[4]، وَقَدْ جَاءَ الْفَرْقُ بِمَعْنَاهُ؟!

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَافَ، الآية 54.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْإِسْرَاءَ، الآية 106.

قَالَ:

وَمُشْرِكِيَّ كَافِرٌ بِالْفُـــــــــــرْقِ

وَعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: عَلَى عِبَادِهِ. وَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأُمَّتُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾[1]، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾[2].

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لِيَكُونَ﴾[3] لِعَبْدِهِ أَوْ لِلْفُرْقَانِ.

وَيُعَضِّدُ رُجُوعَهُ إِلَى الْفُرْقَانِ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾[4] لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ "نَذِيرًا "مُنْذِرًا أَيْ مُخَوِّفًا أَوْ إِنْذَارًا، كَالنَّكِيرِ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[5]، ﴿الَّذِي لَهُ﴾[6] رُفِعَ عَلَى الْإِبْدَالِ مِنَ الَّذِي نَزَلَ أَوْ رُفِعَ عَلَى الْمَدْحِ. أَوْ نُصِبَ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ الْفَصْلُ بَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمُبْدَلِ مِنْهُ؟

قُلْتُ: مَا فُصِلَ بَيْنَهُمَا بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ صِلَتُهُ نَزَلَ. وَ﴿لِيَكُونَ﴾[7] تَعْلِيلٌ لَهُ، فَكَأَنَّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ لَمْ يَتِمَّ إِلَّا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فِي الْخَلْقِ مَعْنَى التَّقْدِيرِ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[8]، كَأَنَّهُ قَالَ: وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى أَنَّهُ أَحْدَثَ كُلَّ شَيْءٍ إِحْدَاثًا مُرَاعًى فِيهِ التَّقْدِيرُ وَالتَّسْوِيَةُ، فَقَدَّرَهُ وَهَيَّأَهُ لِمَا يَصْلُحُ لَهُ، مِثَالُهُ: أَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ الْمُقَدَّرِ الْمُسَوَّى الَّذِي تَرَاهُ، فَقَدَّرَهُ لِلتَّكَالِيفِ وَالْمَصَالِحِ الْمَنُوطَةِ بِهِ فِي بَابَيِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ كُلُّ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ جَاءَ بِهِ عَلَى الْجِبِلَّةِ الْمُسْتَوِيَةِ الْمُقَدَّرَةِ بِأَمْثِلَةِ الْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ، فَقَدَّرَهُ لِأَمْرٍ مَا وَمَصْلَحَةٍ مُطَابِقًا لِمَا

---

[1] سورة الْأَنْبِيَاءَ، الآية 10.

[2] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 136.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْقَمَرَ، الآية 30.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

قُدِّرَ لَهُ غَيْرَ مُتَجَافٍ عَنْهُ. أَوْ سُمِّيَ إِحْدَاثُ اللَّهِ خَلْقًا لِأَنَّهُ لَا يُحْدِثُ شَيْئًا لِحِكْمَتِهِ إِلَّا عَلَى وَجْهِ التَّقْدِيرِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ.

فَإِذَا قِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ كَذَا فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: أَحْدَثَ وَأَوْجَدَ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى وَجْهِ الِاشْتِقَاقِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَوْجَدَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ فِي إِيجَادِهِ لَمْ يُوجِدْهُ مُتَفَاوِتًا. وَقِيلَ: فَجَعَلَ لَهُ غَايَةً وَمُنْتَهَى. وَمَعْنَاهُ: فَقَدَّرَهُ لِلْبَقَاءِ إِلَى أَمَدٍ مَعْلُومٍ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[1]

الْخَلْقُ بِمَعْنَى الِافْتِعَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[2].

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ آثَرُوا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ –سُبْحَانَهُ– عِبَادَةَ آلِهَةٍ لَا عَجْزَ أَبْيَنَ مِنْ عَجْزِهِمْ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَلَا مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، حَيْثُ لَا يَفْتَعِلُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُفْتَعَلُونَ، لِأَنَّ عَبَدَتَهُمْ يَصْنَعُونَهُمْ بِالنَّحْتِ وَالتَّصْوِيرِ.

﴿وَلا يَمْلِكُونَ﴾[3]، أَيْ: لَا يَسْتَطِيعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ دَفْعَ ضَرَرٍ عَنْهَا أَوْ جَلْبَ نَفْعٍ إِلَيْهَا وَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ، وَإِذَا عَجَزُوا عَنِ الِافْتِعَالِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ وَجَلْبِ النَّفْعِ الَّتِي يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْعِبَادُ كَانُوا عَنِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَالنُّشُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ أَعْجَزَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْعَنْكَبُوتَ، الآية 17.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾[1]، قِيلَ: هُمُ الْيَهُودُ. وَقِيلَ: عَدَّاسٌ مَوْلَى حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَيَسَارٌ مَوْلَى الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَأَبُو فُكَيْهَةَ الرُّومِيُّ: قَالَ ذَلِكَ النَّضْرُ بْنُ الْحَرْثِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ.

"جَاءَ" "وَأَتَى" يُسْتَعْمَلَانِ فِي مَعْنَى فَعَلَ، فَيُعَدَّيَانِ تَعْدِيَتَهُ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى مَعْنَى: وَرَدُوا ظُلْمًا، كَمَا تَقُولُ: جِئْتُ الْمَكَانَ. وَيَجُوزُ أَنْ يُحْذَفَ الْجَارُّ وَيُوصَلَ الْفِعْلُ. وَظُلْمُهُمْ: أَنْ جَعَلُوا الْعَرَبِيَّ يَتَلَقَّنُ مِنَ الْعَجَمِيِّ الرُّومِيِّ كَلَامًا عَرَبِيًّا أَعْجَزَ بِفَصَاحَتِهِ جَمِيعَ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ. وَالزُّورُ: أَنْ بَهَتُوهُ بِنِسْبَةِ مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3] مَا سَطَّرَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ نَحْوِ أَحَادِيثِ رُسْتُمَ وَاسْفِنْدِيَارَ، جَمْعُ: أَسْطَارٍ أَوْ أُسْطُورَةٍ كَأُحْدُوثَةٍ ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ [4]كَتَبَهَا لِنَفْسِهِ وَأَخَذَهَا، كَمَا تَقُولُ: اسْتَكَبَّ الْمَاءَ وَاصْطَبَّهُ: إِذَا سَكَبَهُ وَصَبَّهُ لِنَفْسِهِ وَأَخَذَهُ. وَقُرِئَ: "اكْتُتِبَهَا" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَالْمَعْنَى: اكْتَتَبَهَا كَاتِبٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِعْجَازِهِ؛ ثُمَّ حُذِفَتِ اللَّامُ، فَأَفْضَى الْفِعْلُ إِلَى الضَّمِيرِ، فَصَارَ اكْتَتَبَهَا إِيَّاهُ كَاتِبٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[5]؛ ثُمَّ بُنِيَ الْفِعْلُ لِلضَّمِيرِ الَّذِي هُوَ إِيَّاهُ فَانْقَلَبَ مَرْفُوعًا مُسْتَتِرًا بَعْدَ أَنْ كَانَ بَارِزًا مَنْصُوبًا، وَبَقِيَ ضَمِيرُ الْأَسَاطِيرِ عَلَى حَالِهِ، فَصَارَ ﴿اكْتَتَبَهَا﴾[6]، كَمَا تَرَى.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: اكْتَتَبَهَا، ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾[7]، وَإِنَّمَا يُقَالُ: أَمْلَيْتُ عَلَيْهِ فَهُوَ يَكْتُبُهَا؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْأَعْرَافَ، الآية 15.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَرَادَ اكْتِتَابَهَا أَوْ طَلَبَهُ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ.

– أَوْ كُتِبَتْ لَهُ، وَهُوَ أُمِّيٌّ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ: أَيْ تُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِ يَتَحَفَّظُهَا؛ لِأَنَّ صُورَةَ الْإِلْقَاءِ عَلَى الْحَافِظِ كَصُورَةِ الْإِلْقَاءِ عَلَى الْكَاتِبِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يُكَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ أَنْ لَوْ فُتِحَتِ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ الَّذِي فِي مَعْنَى الْإِنْكَارِ؛ وَوَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ نَحْوَ قَوْلِهِ:

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلَا

وَحَقُّ الْحَسَنِ أَنْ يَقِفَ عَلَى الْأَوَّلِينَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾[1]، أَيْ دَائِمًا، أَوْ فِي الْخُفْيَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَشِرَ النَّاسُ. وَحِينَ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2]

أَيْ يَعْلَمُ كُلَّ سِرٍّ خَفِيٍّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض.

وَمِنْ جُمْلَتِهِ: مَا تُسِرُّونَهُ أَنْتُمْ مِنَ الْكَيْدِ لِرَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَعَ عِلْمِكُمْ أَنَّ مَا تَقُولُونَهُ بَاطِلٌ وَزُورٌ، وَكَذَلِكَ بَاطِنُ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبَرَاءَتُهُ مِمَّا تَبْهَتُونَهُ بِهِ، وَهُوَ يُجَازِيكُمْ وَيُجَازِيهِ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْكُمْ وَعَلِمَ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[3] هَذَا الْمَعْنَى؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ مَا تَقَدَّمَهُ فِي مَعْنَى الْوَعِيدِ عَقَّبَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِلَّا الْقَادِرُ عَلَى الْعُقُوبَةِ. أَوْ هُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُمُ اسْتَوْجَبُوا بِمُكَابَرَتِهِمْ هَذِهِ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ صَبًّا، وَلَكِنْ صَرَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ: يُمْهِلُ وَلَا يُعَاجِلُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[1]

وَقَعَتِ اللَّامُ فِي الْمُصْحَفِ مَفْصُولَةً عَنْ هَذَا خَارِجَةً عَنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ. وَخَطُّ الْمُصْحَفِ سُنَّةٌ لَا تُغَيَّرُ.

وَفِي هَذَا اسْتِهَانَةٌ وَتَصْغِيرٌ لِشَأْنِهِ وَتَسْمِيَتُهُ بِالرَّسُولِ سُخْرِيَةٌ مِنْهُمْ وَطَنْزٌ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: مَا لِهَذَا الزَّاعِمِ أَنَّهُ رَسُولٌ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[2]، أَيْ: إِنْ صَحَّ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فَمَا بَالُهُ حَالُهُ مِثْلُ حَالِنَا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾[3]، كَمَا نَأْكُلُ؛ وَيَتَرَدَّدُ فِي الْأَسْوَاقِ لِطَلَبِ الْمَعَاشِ كَمَا نَتَرَدَّدُ، يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْأَكْلِ وَالتَّعَيُّشِ. ثُمَّ نَزَلُوا عَنِ اقْتِرَاحِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا إِلَى اقْتِرَاحِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا مَعَهُ مَلَكٌ، حَتَّى يَتَسَانَدَا فِي الْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ. ثُمَّ نَزَلُوا أَيْضًا فَقَالُوا: وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَرْفُودًا بِمَلَكٍ، فَلْيَكُنْ مَرْفُودًا بِكَنْزٍ يُلْقَى إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ يَسْتَظْهِرُ بِهِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ. ثُمَّ نَزَلُوا فَاقْتَنَعُوا بِأَنْ يَكُونَ رَجُلًا لَهُ بُسْتَانٌ يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَرْتَزِقُ كَمَا الدَّهَاقِينُ وَالْمَيَاسِيرُ. أَوْ يَأْكُلُونَ هُمْ مِنْ ذَلِكَ الْبُسْتَانِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي دُنْيَاهُمْ وَمَعَاشِهِمْ.

وَأَرَادَ بِالظَّالِمِينَ: إِيَّاهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ: وُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لِيُسَجِّلَ عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ فِيمَا قَالُوا. وَقُرِئَ: "فَيَكُونُ" بِالرَّفْعِ. أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ، بِالْيَاءِ، وَنَأْكُلُ، بِالنُّونِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهَ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ فِي فَيَكُونُ؟

قُلْتُ: النَّصْبُ لِأَنَّهُ جَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾[4] بِمَعْنَى "هَلَّا" وَحُكْمُهُ حُكْمُ الِاسْتِفْهَامِ. وَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى أَنْزَلَ، وَمَحَلُّهُ الرَّفْعُ، أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: لَوْلَا يَنْزِلُ بِالرَّفْعِ، وَقَدْ عُطِفَ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الشُّعَرَاءَ، الآية 27.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

عَلَيْهِ: يُلْقَى، وَتَكُونُ مَرْفُوعَيْنِ، وَلَا يَجُوزُ النَّصْبُ فِيهِمَا لِأَنَّهُمَا فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ بَعْدَ لَوْلَا، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَرْفُوعًا.

وَالْقَائِلُونَ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ النَّضْرُ بْنُ الْحَرْثِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَنَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ وَمَنْ ضَامَّهُمْ ﴿مَسْحُورًا﴾[1] سُحِرَ فَغُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ. أَوْ ذَا سِحْرٍ، وَهُوَ الرِّئَةُ: عَنَوْا أَنَّهُ بَشَرٌ لَا مَلَكٌ.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2]

﴿ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾[3]، أَيْ: قَالُوا فِيكَ تِلْكَ الْأَقْوَالَ وَاخْتَرَعُوا لَكَ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالَ النَّادِرَةَ، مِنْ نُبُوَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَمَلِكٍ. وَإِلْقَاءِ كَنْزٍ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَبَقُوا مُتَحَيِّرِينَ ضُلَّالًا، لَا يَجِدُونَ قَوْلًا يَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهِ. أَوْ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَجِدُونَ طَرِيقًا إِلَيْهِ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾[4]

تَكَاثَرَ خَيْرُ ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ﴾[5] وَهَبَ لَكَ فِي الدُّنْيَا ﴿خَيْرًا﴾[6] مِمَّا قَالُوا، وَهُوَ أَنْ يُعَجِّلَ لَكَ مِثْلَ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْقُصُورِ.

وَقُرِئَ: "وَيَجْعَلُ" بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى جَعَلَ؛ لِأَنَّ الشَّرْطَ إِذَا وَقَعَ مَاضِيًا، جَازَ فِي جَزَائِهِ الْجَزْمُ، وَالرَّفْعُ؛ كَقَوْلِهِ:

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ: لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمُ

وَيَجُوزُ فِي ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ﴾[1] إِذَا أُدْغِمَتْ: أَنْ تَكُونَ اللَّامُ فِي تَقْدِيرِ الْجَزْمِ وَالرَّفْعِ جَمِيعًا. وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ، عَلَى أَنَّهُ جَوَابُ الشَّرْطِ بِالْوَاوِ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[2]

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾[3] عُطِفَ عَلَى مَا حُكِيَ عَنْهُمْ. يَقُولُ: بَلْ أَتَوْا بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالسَّاعَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَّصِلَ بِمَا يَلِيهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، فَكَيْفَ يَلْتَفِتُونَ إِلَى هَذَا الْجَوَابِ، وَكَيْفَ يُصَدِّقُونَ بِتَعْجِيلِ مِثْلِ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؟!

السَّعِيرُ: النَّارُ الشَّدِيدَةُ الِاسْتِعَارِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ ﴿رَأَتْهُمْ﴾[4] مِنْ قَوْلِهِمْ: دَوْرُهُمْ تَتْرَا، أَيْ: وَتَتَنَاظَرُ.

وَمِنْ قَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا"، كَأَنَّ بَعْضَهَا يَرَى بَعْضًا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ.

وَالْمَعْنَى: إِذَا كَانَتْ مِنْهُمْ بِمَرْأَى النَّاظِرِ فِي الْبُعْدِ سَمِعُوا صَوْتَ غَلَيَانِهَا. وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِصَوْتِ الْمُتَغَيِّظِ وَالزَّافِرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: إِذَا رَأَتْهُمْ زَبَانِيَتُهَا تَغَيَّظُوا وَزَفَرُوا غَضَبًا عَلَى الْكُفَّارِ وَشَهْوَةً لِلِانْتِقَامِ مِنْهُمْ. الْكَرْبُ مَعَ الضِّيقِ، كَمَا أَنَّ الرَّوْحَ مَعَ السِّعَةِ، وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِأَنَّ عَرْضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالأرض.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَجَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ: أَنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْقُصُورِ وَالْجِنَانِ كَذَا وَكَذَا، وَلَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ أَنْوَاعَ التَّضْيِيقِ وَالْإِرْهَاقِ، حَيْثُ أَلْقَاهُمْ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ يَتَرَاصُّونَ فِيهِ تَرَاصًّا، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ يُضَيَّقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُضَيَّقُ الزُّجُّ فِي الرُّمْحِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ الضِّيقِ مُسَلْسَلُونَ مُقَرَّنُونَ فِي السَّلَاسِلِ، قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فِي الْجَوَامِعِ.

وَقِيلَ: يُقْرَنُ مَعَ كُلِّ كَافِرٍ شَيْطَانُهُ فِي سِلْسِلَةٍ وَفِي أَرْجُلِهِمُ الْأَصْفَادُ. وَالثُّبُورُ: الْهَلَاكُ. وَدُعَاؤُهُ أَنْ يُقَالَ: وَاثُبُورَاهُ، أَيْ: تَعَالَ يَا ثُبُورُ فَهَذَا حِينُكَ وَزَمَانُكَ.

﴿لا تَدْعُوا﴾[1]، أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، أَوْ هُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ قَوْلٌ وَمَعْنَى.

﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[2] أَنَّكُمْ وَقَعْتُمْ فِيمَا لَيْسَ ثُبُورُكُمْ فِيهِ وَاحِدًا، إِنَّمَا هُوَ ثُبُورٌ كَثِيرٌ. إِمَّا لِأَنَّ الْعَذَابَ أَنْوَاعٌ وَأَلْوَانٌ كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا ثُبُورٌ لِشِدَّتِهِ وَفَظَاعَتِهِ. أَوْ لِأَنَّهُمْ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بُدِّلُوا غَيْرَهَا، فَلَا غَايَةَ لِهَلَاكِهِمْ.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا﴾[3]

الرَّاجِعُ إِلَى الْمَوْصُولَيْنِ مَحْذُوفٌ، يَعْنِي: وَعَدَهَا الْمُتَّقُونَ وَمَا يَشَاءُونَهُ. وَإِنَّمَا قِيلَ: كَانَتْ؛ لِأَنَّ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهُوَ فِي تَحَقُّقِهِ كَأَنَّهُ قَدْ كَانَ. أَوْ كَانَ مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ قَبْلَ أَنْ بَرَأَهُمْ بِأَزْمِنَةٍ مُتَطَاوِلَةٍ: أَنَّ الْجَنَّةَ جَزَاؤُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾[4]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]، فَمَدَحَ الثَّوَابَ وَمَكَانَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2]، فَذَمَّ الْعِقَابَ وَمَكَانَهُ لِأَنَّ النَّعِيمَ لَا يَتِمُّ لِلْمُتَنَعِّمِ إِلَّا بِطِيبِ الْمَكَانِ وَسِعَتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْمُرَادِ وَالشَّهْوَةِ. وَأَنْ لَا تَنَغُّصَ، وَكَذَلِكَ الْعِقَابُ يَتَضَاعَفُ بِغَثَاثَةِ الْمَوْضِعِ وَضِيقِهِ وَظُلْمَتِهِ وَجَمْعِهِ لِأَسْبَابِ الِاجْتِوَاءِ وَالْكَرَاهَةِ، فَلِذَلِكَ ذُكِرَ الْمَصِيرُ مَعَ ذِكْرِ الْجَزَاءِ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿كَانَ﴾[3] لِمَا يَشَاؤُونَ.

وَالْوَعْدُ: الْمَوْعُودُ، أَيْ: كَانَ ذَلِكَ مَوْعُودًا وَاجِبًا عَلَى رَبِّكَ إِنْجَازُهُ، حَقِيقًا أَنْ يُسْأَلَ وَيُطْلَبَ؛ لِأَنَّهُ جَزَاءٌ وَأَجْرٌ مُسْتَحَقٌّ.

وَقِيلَ: قَدْ سَأَلَهُ النَّاسُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي دَعَوَاتِهِمْ:﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[4]، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[5]، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾[6].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾[7]

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾[8]: فَيَقُولُ كِلَاهُمَا بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، وَقُرِئَ: "يَحْشُرُهُمْ"، بِكَسْرِ الشِّينِ.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾[9]، يُرِيدُ: الْمَعْبُودِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمَسِيحِ وَعُزَيْرٍ.

---

[1] سورة الْكَهْفَ، الآية 31.

[2] سورة الْكَهْفَ، الآية 29.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 194.

[5] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 201.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: الْأَصْنَامُ يُنْطِقُهَا اللَّهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا لَهُمْ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ اسْتِعْمَالُ "مَا" فِي الْعُقَلَاءِ؟

قُلْتُ: هُوَ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعُمُومِ لِلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِكَ -إِذَا رَأَيْتَ شَبَحًا مِنْ بَعِيدٍ- مَا هُوَ؟ فَإِذَا قِيلَ لَكَ: إِنْسَانٌ، قُلْتَ حِينَئِذٍ: مَنْ هُوَ؟ وَيَدُلُّكَ قَوْلُهُمْ "مَنْ" لِمَا يَعْقِلُ. أَوْ أُرِيدَ بِهِ الْوَصْفُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَعْبُودِيهِمْ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ إِذَا أَرَدْتَ السُّؤَالَ عَنْ صِفَةِ زَيْدٍ: مَا زَيْدٌ؟ تَعْنِي: أَطَوِيلٌ أَمْ قَصِيرٌ؟ أَفَقِيهٌ أَمْ طَبِيبٌ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ أَنْتُمْ وَهُمْ؟ وَهَلَّا قِيلَ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِيَ هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ؟

قُلْتُ: لَيْسَ السُّؤَالُ عَنِ الْفِعْلِ وَوُجُودِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا وُجُودُهُ لَمَا تَوَجَّهَ هَذَا الْعِتَابُ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ مُتَوَلِّيهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ وَإِيلَائِهِ حَرْفَ الِاسْتِفْهَامِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ الْمَسْؤُولُ عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ- قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِالْمَسْؤُولِ عَنْهُ، فَمَا فَائِدَةُ هَذَا السُّؤَالِ؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ أَنْ يُجِيبُوا بِمَا أَجَابُوا بِهِ، حَتَّى يُبَكِّتَ عَبَدَتَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ، فَيَبْهَتُوا وَيَنْخَذِلُوا وَتَزِيدَ حَسْرَتُهُمْ، وَيَكُونَ ذَلِكَ نَوْعًا مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، وَيَغْتَبِطَ الْمُؤْمِنُونَ وَيَفْرَحُوا بِحَالِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنْ فَضِيحَةِ أُولَئِكَ، وَلِيَكُونَ حِكَايَةُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ لُطْفًا لِلْمُكَلَّفِينَ، وَفِيهِ كَسْرٌ بَيِّنٌ لِقَوْلِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُضِلُّ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، حَيْثُ يَقُولُ لِلْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِهِ: أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمُوهُمْ، أَمْ هُمْ ضَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ؟ فَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ إِضْلَالِهِمْ وَيَسْتَعِيذُونَ بِهِ أَنْ يَكُونُوا مُضِلِّينَ، وَيَقُولُونَ: بَلْ أَنْتَ تَفَضَّلْتَ مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ عَلَى هَؤُلَاءِ وَآبَائِهِمْ تَفَضُّلَ جَوَادٍ كَرِيمٍ، فَجَعَلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ سَبَبَ الشُّكْرِ، سَبَبَ الْكُفْرِ وَنِسْيَانَ الذِّكْرِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ، فَإِذَا بَرَّأَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ أَنْفُسَهُمْ مِنْ نِسْبَةِ الْإِضْلَالِ الَّذِي هُوَ عَمَلُ الشَّيَاطِينِ إِلَيْهِمْ وَاسْتَعَاذُوا مِنْهُ، فَهُمْ لِرَبِّهِمُ الْغَنِيِّ الْعَدْلِ أَشَدُّ تَبْرِئَةً وَتَنْزِيهًا مِنْهُ، وَلَقَدْ نَزَّهُوهُ حِينَ أَضَافُوا إِلَيْهِ التَّفَضُّلَ بِالنِّعْمَةِ وَالتَّمْتِيعَ بِهَا، وَأَسْنَدُوا

نِسْيَانَ الذِّكْرِ وَالتَّسَبُّبَ بِهِ لِلْبَوَارِ إِلَى الْكَفَرَةِ، فَشَرَحُوا الْإِضْلَالَ الْمَجَازِيَّ الَّذِي أَسْنَدَهُ اللَّهُ –تَعَالَى– إِلَى ذَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

وَلَوْ كَانَ هُوَ الْمُضِلَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لَكَانَ الْجَوَابُ الْعَتِيدُ أَنْ يَقُولُوا: بَلْ أَنْتَ أَضْلَلْتَهُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَأَنْتُمْ أَوْقَعْتُمُوهُمْ فِي الضَّلَالِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ؟ أَمْ هُمْ ضَلُّوا عَنْهُ بِأَنْفُسِهِمْ؟ وَضَلَّ: مُطَاوِعُ "أَضَلَّهُ" وَكَانَ الْقِيَاسُ: ضَلَّ عَنِ السَّبِيلِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْجَارَّ كَمَا تَرَكُوهُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ. وَالْأَصْلُ: إِلَى الطَّرِيقِ، وَلِلطَّرِيقِ.

وَقَوْلُهُمْ: أَضَلَّ الْبَعِيرَ، فِي مَعْنَى: جَعَلَهُ ضَالًّا، أَيْ: ضَائِعًا، لَمَّا كَانَ أَكْثَرُ ذَلِكَ بِتَفْرِيطٍ مِنْ صَاحِبِهِ وَقِلَّةِ احْتِيَاطٍ فِي حِفْظِهِ، قِيلَ: أَضَلَّهُ، سَوَاءٌ كَانَ مِنْهُ فِعْلٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ [2]تَعَجُّبٌ مِنْهُمْ، قَدْ تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ وَأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ، فَمَا أَبْعَدَهُمْ عَنِ الْإِضْلَالِ الَّذِي هُوَ مُخْتَصٌّ بِإِبْلِيسَ وَحِزْبِهِ أَوْ نَطَقُوا بِسُبْحَانَكَ لِيَدُلُّوا عَلَى أَنَّهُمُ الْمُسَبِّحُونَ الْمُتَقَدِّسُونَ الْمَوْسُومُونَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِحَالِهِمْ أَنْ يُضِلُّوا عِبَادَهُ؟! أَوْ قَصَدُوا بِهِ تَنْزِيهَهُ عَنِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ نَبِيٌّ أَوْ مَلَكٌ أَوْ غَيْرُهُمَا نِدًّا، ثُمَّ قَالُوا: مَا كَانَ يَصِحُّ لَنَا وَلَا يَسْتَقِيمُ وَنَحْنُ مَعْصُومُونَ أَنْ نَتَوَلَّى أَحَدًا دُونَكَ، فَكَيْفَ يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَحْمِلَ غَيْرَنَا عَلَى أَنْ يَتَوَلَّوْنَا دُونَكَ، أَوْ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَكُونَ أَمْثَالَ الشَّيَاطِينِ فِي تَوَلِّيهِمُ الْكُفَّارَ كَمَا تَوَلَّاهُمُ الْكُفَّارُ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾[3]، يُرِيدُ الْكَفَرَةَ، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[4]، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَدَنِيُّ : نُتَّخَذُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَهَذَا الْفِعْلُ أَعْنِي "اتَّخَذَ" يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، كَقَوْلِكَ: اتَّخَذَ وَلِيًّا وَإِلَى مَفْعُولَيْنِ كَقَوْلِكَ اتَّخَذَ فُلَانًا وَلِيًّا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ﴾[1]، وَقَالَ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا﴾[2]، فَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى مِنَ الْمُتَعَدِّي إِلَى وَاحِدٍ، وَهُوَ ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[3].

وَالْأَصْلُ: أَنْ نُتَّخَذَ أَوْلِيَاءَ، فَزِيدَتْ ﴿مِنْ﴾[4] لِتَأْكِيدِ مَعْنَى النَّفْيِ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ:

– فَالْأَوَّلُ مَا بُنِيَ لَهُ الْفِعْلُ.

– وَالثَّانِي: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[5].

وَمِنْ لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ: لَا نَتَّخِذُ بَعْضَ أَوْلِيَاءَ. وَتَنْكِيرُ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾[6] مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ مَخْصُوصُونَ وَهُمُ الْجِنُّ وَالْأَصْنَامُ وَالذِّكْرُ: ذِكْرُ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ، أَوِ الْقُرْآنُ وَالشَّرَائِعُ.

وَالْبُورُ: الْهَلَاكُ، يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ بَائِرٍ، كَعَائِذٍ وَعُوذٍ.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[7]

هَذِهِ الْمُفَاجَأَةُ بِالِاحْتِجَاجِ وَالْإِلْزَامِ حَسَنَةٌ رَائِعَةٌ وَخَاصَّةً إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهَا الِالْتِفَاتُ وَحَذْفُ الْقَوْلِ. وَنَحْوُهَا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٍ وَنَذِيرٌ﴾[8].

وَقَوْلُ الْقَائِلِ قَالُوا:

خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا

---

[1] سورة الْأَنْبِيَاءَ، الآية 21.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة الْمَائِدَةَ ، الآية 19.

وَقُرِئَ: "يَقُولُونَ" بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. فَمَعْنَى مَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِقَوْلِكُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ. وَمَعْنَى مَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَخْتَلِفُ حُكْمُ الْبَاءِ مَعَ التَّاءِ وَالْيَاءِ؟

قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ، وَهِيَ مَعَ التَّاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾[2]، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ. كَأَنَّهُ قِيلَ: فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا تَقُولُونَ: وَهِيَ مَعَ الْيَاءِ كَقَوْلِكَ: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ. وَقُرِئَ: "يَسْتَطِيعُونَ "، بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ أَيْضًا.

يَعْنِي: فَمَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْتُمْ يَا كُفَّارُ صَرْفَ الْعَذَابِ عَنْكُمْ. وَقِيلَ: الصَّرْفُ: التَّوْبَةُ وَقِيلَ: الْحِيلَةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ لَيَتَصَرَّفُ، أَيْ يَحْتَالُ أَوْ فَمَا يَسْتَطِيعُ آلِهَتُكُمْ أَنْ يَصْرِفُوا عَنْكُمُ الْعَذَابَ. أَوْ أَنْ يَحْتَالُوا لَكُمْ. الْخِطَابُ عَلَى الْعُمُومِ لِلْمُكَلَّفِينَ.

وَالْعَذَابُ الْكَبِيرُ لَاحِقٌ بِكُلِّ مَنْ ظَلَمَ، وَالْكَافِرُ ظَالِمٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وَالْفَاسِقُ ظَالِمٌ. لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4].

وَقُرِئَ: "يُذِقْهُ" بِالْيَاءِ. وَفِيهِ ضَمِيرُ اللَّهِ. أَوْ ضَمِيرُ مَصْدَرِ يَظْلِمُ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[5]

الْجُمْلَةُ بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾[6] صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة لُقْمَان، الآية 13.

[4] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 11.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ أَحَدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا آكِلِينَ وَمَاشِينَ. وَإِنَّمَا حُذِفَ اكْتِفَاءً بِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ. أَعْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -عَزَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[1] عَلَى مَعْنَى: وَمَا مِنَّا أَحَدٌ.

وَقُرِئَ: "وَيُمْشَوْنَ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: تُمْشِيهِمْ حَوَائِجُهُمْ أَوِ النَّاسُ. وَلَوْ قُرِئَ: "يَمْشُونَ"، لَكَانَ أَوْجَهَ لَوْلَا الرِّوَايَةُ.

وَقِيلَ: هُوَ احْتِجَاجٌ عَلَى مَنْ قَالَ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾[2].

﴿فِتْنَةً﴾[3]، أَيْ مِحْنَةً وَابْتِلَاءً. وَهَذَا تَصْبِيرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى مَا قَالُوهُ وَاسْتَبْدَعُوهُ، مِنْ أَكْلِهِ الطَّعَامَ وَمَشْيِهِ فِي الْأَسْوَاقِ بَعْدَ مَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِسَائِرِ الرُّسُلِ، يَقُولُ: وَجَرَتْ عَادَتِي وَمُوجِبُ حِكْمَتِي عَلَى ابْتِلَاءِ بَعْضِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِبَعْضٍ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ ابْتَلَى الْمُرْسَلِينَ بِالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، وَبِمُنَاصَبَتِهِمْ لَهُمُ الْعَدَاوَةَ، وَأَقَاوِيلِهِمُ الْخَارِجَةِ عَنْ حَدِّ الْإِنْصَافِ، وَأَنْوَاعِ أَذَاهُمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[4]، وَمَوْقِعُ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾[5] بَعْدَ ذِكْرِ الْفِتْنَةِ مُوقِعُ ﴿أَيُّكُمْ﴾[6] بَعْدَ الِابْتِلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[7].

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾[8] عَالِمًا بِالصَّوَابِ فِيمَا يَبْتَلِي بِهِ وَغَيْرُهُ، فَلَا يَضِيقَنَّ صَدْرُكَ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ أَقَاوِيلُهُمْ فَإِنَّ فِي صَبْرِكَ عَلَيْهَا سَعَادَتَكَ وَفَوْزَكَ فِي الدَّارَيْنِ. وَقِيلَ: هُوَ تَسْلِيَةٌ لَهُ عَمَّا عَيَّرُوهُ بِهِ مِنَ الْفَقْرِ، حِينَ قَالُوا: أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الْأَغْنِيَاءَ فِتْنَةً لِلْفُقَرَاءِ؛ لِيَنْظُرَ: هَلْ يَصْبِرُونَ؟ وَأَنَّهَا حِكْمَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ: يُغْنِي مَنْ يَشَاءُ وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ.

---

[1] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 164.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 186.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة هُودَ، الآية 7.

[8] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: جَعَلْنَاكَ فِتْنَةً لَهُمْ؛ لِأَنَّكَ لَوْ كُنْتَ غَنِيًّا صَاحِبَ كُنُوزٍ وَجِنَانٍ لَكَانَ مَيْلُهُمْ إِلَيْكَ وَطَاعَتُهُمْ لَكَ لِلدُّنْيَا، أَوْ مَمْزُوجَةً بِالدُّنْيَا؛ فَإِنَّمَا بَعَثْنَاكَ فَقِيرًا لِيَكُونَ طَاعَةُ مَنْ يُطِيعُكَ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ دُنْيَوِيٍّ.

وَقِيلَ: كَانَ أَبُو جَهْلٍ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ وَمَنْ فِي طَبَقَتِهِمْ يَقُولُونَ: إِنْ أَسْلَمْنَا، وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَنَا عَمَّارٌ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ تَرَفَّعُوا عَلَيْنَا إِدْلَالًا بِالسَّابِقَةِ، فَهُوَ افْتِيَانُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1]

أَيْ لَا يَأْمُلُونَ لِقَاءَنَا بِالْخَيْرِ لِأَنَّهُمْ كَفَرَةٌ. أَوْ لَا يَخَافُونَ لِقَاءَنَا الشَّرَّ. وَالرَّجَاءُ فِي لُغَةِ تِهَامَةَ الْخَوْفُ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[2] جُعِلَتِ الصَّيْرُورَةُ إِلَى دَارِ جَزَائِهِ بِمَنْزِلَةِ لِقَائِهِ لَوْ كَانَ مُلْقِيًا. اقْتَرَحُوا مِنَ الْآيَاتِ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَتُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقًا حَتَّى يُصَدِّقُوهُ. أَوْ يَرَوُا اللَّهَ جَهْرَةً فَيَأْمُرُهُمْ بِتَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ. وَلَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُرَى. وَإِنَّمَا عَلَّقُوا عَالِمِينَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكُونُ. وَإِمَّا أَلَا يَكُونُوا عَالِمِينَ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا أَرَادُوا التَّعَنُّتَ بِاقْتِرَاحِ آيَاتٍ سِوَى الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ وَقَامَتْ بِهَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، كَمَا فَعَلَ قَوْمُ مُوسَى حِينَ قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾[3]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَضْمَرُوا الِاسْتِكْبَارَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ فِي قُلُوبِهِمْ وَاعْتَقَدُوهُ. كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[4].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة]نُوحَ، الآية 13.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة غَافِرَ، الآية 56.

﴿وَعَتَوْا﴾ [1]وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الظُّلْمِ. يُقَالُ: عَتَا عَلَيْنَا فُلَانٌ. وَقَدْ وَصَفَ الْعُتُوَّ بِالْكَبِيرِ، فَبَالَغَ فِي إِفْرَاطِهِ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يَخْسَرُوا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْعَظِيمِ، إِلَّا لِأَنَّهُمْ بَلَغُوا غَايَةَ الِاسْتِكْبَارِ وَأَقْصَى الْعُتُوِّ، وَاللَّامُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ.

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي حُسْنِ اسْتِئْنَافِهَا غَايَةٌ، وَفِي أُسْلُوبِهَا قَوْلُ الْقَائِلِ:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأَنَا بِنَابِهَا كُلَيْبًا غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا

وَفِي فَحْوَى هَذَا الْفِعْلِ دَلِيلٌ عَلَى التَّعَجُّبِ مِنْ غَيْرِ لَفْظِ التَّعَجُّبِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى: مَا أَشَدَّ اسْتِكْبَارَهُمْ، وَمَا أَكْبَرَ عُتُوَّهُمْ، وَمَا أَغْلَى نَابًا بَوَاؤُهَا كُلَيْبٌ؟!

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾[2]

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ: إِمَّا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿لا بُشْرَى﴾[4]، أَيْ: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ يُمْنَعُونَ الْبُشْرَى أَوْ يُعْدَمُونَهَا. وَيَوْمَئِذٍ لِلتَّكْرِيرِ. وَإِمَّا بِإِضْمَارِ "اذْكُرْ"، أَيِ: اذْكُرْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾[5].

وَقَوْلُهُ:﴿ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [6]إِمَّا ظَاهِرُ ضَمِيرٍ. إِمَّا لِأَنَّهُ عَامٌّ، فَقَدْ تَنَاوَلَهُمْ بِعُمُومِهِ ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾[7]، ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ فِي بَابِ الْمَصَادِرِ غَيْرِ الْمُتَصَرِّفَةِ الْمَنْصُوبَةِ بِأَفْعَالٍ مَتْرُوكٍ إِظْهَارُهَا نَحْوَ: مَعَاذَ اللَّهِ، وَقَعَدَكَ اللَّهُ، وَعَمَّرَكَ اللَّهُ.

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِهَا عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوٍّ مُوتُورٍ أَوْ هُجُومِ نَازِلَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ: يَضَعُونَهَا مَوْضِعَ الِاسْتِعَاذَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: أَتَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: حِجْرًا، وَهِيَ مِنْ حَجَرَهُ إِذَا مَنَعَهُ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَعِيذَ طَالِبٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَمْنَعَ الْمَكْرُوهَ، فَلَا يَلْحَقُهُ، فَكَانَ الْمَعْنَى: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمْنَعَ ذَلِكَ مَنْعًا وَيَحْجُرُهُ حَجْرًا. وَمَجِيئُهُ عَلَى فِعْلٍ أَوْ فَعْلٍ فِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ، تَصَرُّفٌ فِيهِ لِاخْتِصَاصِهِ بِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ، كَمَا كَانَ قَعَدَكَ وَعَمَّرَكَ كَذَلِكَ؛ وَأَنْشَدْتُ لِبَعْضِ الرُّجَّازِ:

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ وَذُعْرُ عُوذٌ بِرَبِّي مِنْكُمُ وَحِجْرُ

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصَادِرِ، فَمَا مَعْنَى وَصْفِهِ بِمَحْجُورٍ؟

قُلْتُ: جَاءَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الْحِجْرِ، كَمَا قَالُوا. ذَيْلٌ ذَائِلٌ، وَالذَّيْلُ: الْهَوَانُ. وَمَوْتٌ مَائِتٌ.

وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ نُزُولَ الْمَلَائِكَةِ وَيَقْتَرِحُونَهُ، وَهُمْ إِذَا رَأَوْهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَرِهُوا لِقَاءَهُمْ وَفَزِعُوا مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَلْقَوْنَهُمْ إِلَّا بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ الْمُوتُورِ وَشِدَّةِ النَّازِلَةِ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ وَمَعْنَاهُ: حَرَامًا مُحَرَّمًا عَلَيْكُمُ الْغُفْرَانُ وَالْجَنَّةُ وَالْبُشْرَى، أَيْ: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَرَامًا عَلَيْكُمْ.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[1]

لَيْسَ هَا هُنَا قُدُومٌ وَلَا مَا يُشْبِهُ الْقُدُومَ، وَلَكِنَّ مَثَلًا حَالُ هَؤُلَاءِ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي كُفْرِهِمْ مِنْ صِلَةِ رَحِمٍ، وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ، وَقِرَى ضَيْفٍ، وَمَنٍّ عَلَى أَسِيرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِهِمْ وَمَحَاسِنِهِمْ بِحَالِ قَوْمٍ خَالَفُوا سُلْطَانَهُمْ وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ، فَقَدِمَ إِلَى أَشْيَائِهِمْ، وَقَصَدَ إِلَى مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ فَأَفْسَدَهَا وَمَزَّقَهَا كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ لَهَا أَثَرًا وَلَا عَثِيرًا وَالْهَبَاءُ: مَا يَخْرُجُ مِنَ الْكُوَّةِ مَعَ ضَوْءِ الشَّمْسِ شَبِيهَ الْغُبَارِ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَفِي أَمْثَالِهِمْ: أَقَلُّ مِنَ الْهَبَاءِ ﴿مَنْثُورًا﴾ [1]صِفَةٌ لِلْهَبَاءِ، شَبَّهَهُ بِالْهَبَاءِ فِي قِلَّتِهِ وَحَقَارَتِهِ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ، ثُمَّ بِالْمَنْثُورِ مِنْهُ؛ لِأَنَّكَ تَرَاهُ مُنْتَظِمًا مَعَ الضَّوْءِ، فَإِذَا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ رَأَيْتَهُ قَدْ تَنَاثَرَ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[2]، لَمْ يَكْفِ أَنْ شَبَّهَهُمْ بِالْعَصْفِ حَتَّى جَعَلَهُ مَؤُوفًا بِالْأَكَّالِ وَلَا أَنْ شَبَّهَ عَمَلَهُمْ بِالْهَبَاءِ حَتَّى جَعَلَهُ مُتَنَاثِرًا. أَوْ مَفْعُولٌ ثَالِثٌ لَجَعَلْنَاهُ أَيْ فَجَعَلْنَاهُ جَامِعًا لِحَقَارَةِ الْهَبَاءِ وَالتَّنَاثُرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[3]، أَيْ جَامِعِينَ لِلْمَسْخِ وَالْخَسْءِ. وَلَامُ الْهَبَّاءِ وَاوٌ، بِدَلِيلِ الْهَبْوَةِ.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[4]

الْمُسْتَقَرُّ: الْمَكَانُ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِمْ مُسْتَقِرِّينَ يَتَجَالَسُونَ وَيَتَحَادَثُونَ. وَالْمَقِيلُ: الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ لِلِاسْتِرْوَاحِ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ وَالتَّمَتُّعِ بِمُغَازَلَتِهِنَّ وَمُلَامَسَتِهِنَّ، كَمَا أَنَّ الْمُتْرَفِينَ فِي الدُّنْيَا يَعِيشُونَ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ يَفْرَغُ مِنَ الْحِسَابِ فِي نِصْفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَقِيلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ.

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[5]، قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الشُّغْلِ: افْتِضَاضُ الْأَبْكَارِ، وَلَا نَوْمَ فِي الْجَنَّةِ.

وَإِنَّمَا سُمِّيَ مَكَانُ دَعَتِهِمْ وَاسْتِرْوَاحِهِمْ إِلَى الْحُورِ مَقِيلًا عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ.

وَفِي لَفْظِ الْأَحْسَنِ: رَمْزٌ إِلَى مَا يُتَزَيَّنُ لَهُ مَقِيلُهُمْ. مِنْ حُسْنِ الْوُجُوهِ وَمَلَاحَةِ الصُّوَرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْتِحَاسِينِ وَالزَّيْنِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْفِيلِ، الآية 5.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 65.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة يس، الآيتان 55–56.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾[1]

وَقُرِئَ: ﴿تَشَقَّقُ﴾[2]، وَالْأَصْلُ: تَتَشَقَّقُ، فَحَذَفَ بَعْضُهُمُ التَّاءَ، وَغَيْرُهُ أَدْغَمَهَا.

وَلَمَّا كَانَ انْشِقَاقُ السَّمَاءِ بِسَبَبِ طُلُوعِ الْغَمَامِ مِنْهَا، جَعَلَ الْغَمَامَ كَأَنَّهُ الَّذِي تَشَقَّقُ بِهِ السَّمَاءُ، كَمَا تَقُولُ: شَقَّ السَّنَامَ بِالشَّفْرَةِ وَانْشَقَّ بِهَا.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِكَ: انْشَقَّتِ الأرض بِالنَّبَاتِ، وَانْشَقَّتْ عَنِ النَّبَاتِ؟

قُلْتُ: مَعْنَى انْشَقَّتْ بِهِ: أَنَّ اللَّهَ شَقَّهَا بِطُلُوعِهِ فَانْشَقَّتْ بِهِ. وَمَعْنَى: انْشَقَّتْ عَنْهُ: أَنَّ التُّرْبَةَ ارْتَفَعَتْ عَنْهُ عِنْدَ طُلُوعِهِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّمَاءَ تَنْفَتِحُ بِغَمَامٍ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَفِي الْغَمَامِ الْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ وَفِي أَيْدِيهِمْ صَحَائِفُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ.

وَرُوِيَ تَنْشَقُّ سَمَاءٌ سَمَاءٌ، وَتَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الأرض.

وَقِيلَ: هُوَ غَمَامٌ أَبْيَضُ رَقِيقٌ، مِثْلُ الضَّبَابَةِ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تِيهِهِمْ.

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾[4].

وَقُرِئَ: وَنُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ، وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ، وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ، وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ، وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ، وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ، وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ: عَلَى حَذْفِ النُّونِ الَّذِي هُوَ فَاءُ الْفِعْلِ مِنْ نُنَزِّلُ: قِرَاءَةُ أَهْلِ مَكَّةَ.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْمُزَّمِّلِ، الآية 18.

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 210.

[5] سورة ، الآية .

﴿الْحَقُّ﴾[1]: الثَّابِتُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُلْكٍ يَزُولُ يَوْمَئِذٍ وَيَبْطُلُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا مُلْكُهُ.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولًا﴾[2]

عَضُّ الْيَدَيْنِ وَالْأَنَامِلِ، وَالسُّقُوطُ فِي الْيَدِ، وَأَكْلُ الْبَنَانِ، وَحَرْقُ الْأَسْنَانِ وَالْأَرْمُ، وَقَرْعُهَا: كِنَايَاتٌ عَنِ الْغَيْظِ وَالْحَسْرَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ رَوَادِفِهَا، فَيُذْكَرُ الرَّادِفَةُ وَيَدُلُّ بِهَا عَلَى الْمَرْدُوفِ، فَيَرْتَفِعُ الْكَلَامُ بِهِ فِي طَبَقَةِ الْفَصَاحَةِ، وَيَجِدُ السَّامِعُ عِنْدَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ لَفْظِ الْمُكَنَّى عَنْهُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَقِيلَ: اتَّخَذَ ضِيَافَةً فَدَعَا إِلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ حَتَّى يَنْطِقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَفَعَلَ، وَكَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ صَدِيقَهُ، فَعَاتَبَهُ وَقَالَ: صَبَأْتَ يَا عُقْبَةُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ آلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي وَهُوَ فِي بَيْتِي، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ فَشَهِدْتُ لَهُ وَالشَّهَادَةُ لَيْسَتْ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ لَقِيتَ مُحَمَّدًا فَلَمْ تَطَأْ قَفَاهُ وَتَبْزُقْ فِي وَجْهِهِ وَتُلْطَمْ عَيْنَهُ، فَوَجَدَهُ سَاجِدًا فِي دَارِ النَّدْوَةِ فَفَعَلَ ذَلِكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ"، فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ: أَمَرَ عَلِيًّا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِقَتْلِهِ. وَقِيلَ: قَتَلَهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَفْلَحَ الْأَنْصَارِيُّ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِلَى مَنِ السَّبِيَّةُ قَالَ: إِلَى النَّارِ. وَطَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُبَيًّا بِأُحُدٍ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فَمَاتَ.

وَاللَّامُ فِي "الظَّالِمِ" يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ، يُرَادُ بِهِ عُقْبَةُ خَاصَّةً. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْجِنْسِ فَيَتَنَاوَلُ عُقْبَةَ وَغَيْرَهُ. تَمَنَّى أَنْ لَوْ صَحِبَ الرَّسُولَ وَسَلَكَ مَعَهُ طَرِيقًا وَاحِدًا وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ وَلَمْ يَتَشَعَّبْ بِهِ طُرُقُ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَى. أَوْ أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ ضَالًّا لَمْ يَكُنْ لِي سَبِيلٌ قَطُّ، فَلَيْتَنِي حَصَّلْتُ بِنَفْسِي فِي صُحْبَةِ الرَّسُولِ سَبِيلًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "يَا وَيْلَتِي" بِالْيَاءِ، وَهُوَ الْأَصْلُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يُنَادِي وَيْلَتَهِ وَهِيَ هَلَكَتُهُ، وَيَقُولُ لَهَا: تَعَالَيْ فَهَذَا أَوَانُكِ. وَإِنَّمَا قُلِبَتِ الْيَاءُ أَلِفًا كَمَا فِي: صَحَارَى، وَمَدَارَى. فُلَانٌ: كِنَايَةٌ عَنِ الْأَعْلَامِ، كَمَا أَنَّ الْهَنَ كِنَايَةٌ عَنِ الْأَجْنَاسِ فَإِنْ أُرِيدَ بِالظَّالِمِ عُقْبَةُ، فَالْمَعْنَى: لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ أُبَيًّا خَلِيلًا، فَكَنَّى عَنِ اسْمِهِ.

وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ، فَكُلُّ مَنِ اتَّخَذَ مِنَ الْمُضِلِّينَ خَلِيلًا كَانَ لِخَلِيلِهِ اسْمُ عَلَمٍ لَا مَحَالَةَ، فَجَعَلَهُ كِنَايَةً عَنْهُ ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾[1] عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أَوِ الْقُرْآنِ، أَوْ مَوْعِظَةِ الرَّسُولِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ نُطْقَهُ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ، وَعَزْمَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَالشَّيْطَانُ: إِشَارَةٌ إِلَى خَلِيلِهِ، سَمَّاهُ شَيْطَانًا، لِأَنَّهُ أَضَلَّهُ كَمَا يُضِلُّ الشَّيْطَانُ، ثُمَّ خَذَلَهُ وَلَمْ يَنْفَعْهُ فِي الْعَاقِبَةِ. أَوْ أَرَادَ إِبْلِيسَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى مُخَالَّةِ الْمُضِلِّ وَمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ، ثُمَّ خَذَلَهُ. أَوْ أَرَادَ الْجِنْسَ، وَكُلُّ مَنْ تَشَيْطَنَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾[2] حِكَايَةُ كَلَامِ الظَّالِمِ، وَأَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ. اتَّخَذْتُ: يُقْرَأُ عَلَى الْإِدْغَامِ وَالْإِظْهَارِ، وَالْإِدْغَامُ أَكْثَرُ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[3]

الرَّسُولُ: مُحَمَّدٌ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقَوْمُهُ قُرَيْشٌ، حَكَى اللَّهُ عَنْهُ شَكَوَاهُ قَوْمَهُ إِلَيْهِ. وَفِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ تَعْظِيمٌ لِلشِّكَايَةِ وَتَخْوِيفٌ لِقَوْمِهِ: لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا إِذَا الْتَجَئُوا إِلَيْهِ وَشَكَوْا إِلَيْهِ قَوْمَهُمْ: حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ وَلَمْ يُنْظَرُوا.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ مُسَلِّيًا وَمُوَاسِيًا وَوَاعِدًا النُّصْرَةَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [1]كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَكَ مُبْتَلَى بِعَدَاوَةِ قَوْمِهِ، وَكَفَاكَ بِي هَادِيًا إِلَى طَرِيقِ قَهْرِهِمْ وَالِانْتِصَارِ مِنْهُمْ، وَنَاصِرًا لَكَ عَلَيْهِمْ. مَهْجُورًا: تَرَكُوهُ وَصَدُّوا عَنْهُ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِهِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا لَمْ يَتَعَاهَدْهُ وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَبْدُكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ"، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ هَجَرَ، إِذَا هَذِيَ، أَيْ: جَعَلُوهُ مَهْجُورًا فِيهِ، فَحُذِفَ الْجَارُّ، وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: زَعْمُهُمْ أَنَّهُ هَذَيَانٌ وَبَاطِلٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

– وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَمِعُوهُ هَجَرُوا فِيهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[2].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْجُورُ بِمَعْنَى الْهُجْرِ، كَالْمَجْلُودِ وَالْمَعْقُولِ. وَالْمَعْنَى: اتَّخَذُوهُ هُجْرًا. وَالْعَدُوُّ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا وَجَمْعًا. كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾[3]، وَقِيلَ الْمَعْنَى: وَقَالَ الرَّسُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]

﴿نُزِّلَ﴾ [5]هَا هُنَا بِمَعْنَى أَنْزَلَ لَا غَيْرَ، كَخَبَّرَ بِمَعْنَى أَخْبَرَ، وَإِلَّا كَانَ مُتَدَفِّعًا، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ اعْتِرَاضَاتِهِمْ وَاقْتِرَاحَاتِهِمُ الدَّالَّةِ عَلَى شِرَادِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَتَجَافِيهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية 26.

[3] سورة الشُّعَرَاءَ، الآية 7.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قَالُوا: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ كَمَا أُنْزِلَتِ الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ، وَمَا لَهُ أُنْزِلَ عَلَى التَّفَارِيقِ. وَالْقَائِلُونَ: قُرَيْشٌ. وَقِيلَ: الْيَهُودُ.

وَهَذَا فُضُولٌ مِنَ الْقَوْلِ وَمُمَارَاةٌ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْإِعْجَازِ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ لَا يَخْتَلِفُ بِنُزُولِهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً أَوْ مُفَرَّقًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾[1] جَوَابٌ لَهُمْ، أَيْ: كَذَلِكَ أُنْزِلَ مُفَرَّقًا. وَالْحِكْمَةُ فِيهِ: أَنْ نُقَوِّيَ بِتَفْرِيقِهِ فُؤَادَكَ حَتَّى تَعِيَهُ وَتَحْفَظَهُ؛ لِأَنَّ الْمُتَلَقِّنَ إِنَّمَا يَقْوَى قَلْبُهُ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَجُزْأً عَقِيبَ جُزْءٍ. وَلَوْ أُلْقِيَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً لَبَعَلَ بِهِ وَتَعَيَّا بِحِفْظِهِ، وَالرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَارَقَتْ حَالُهُ حَالَ مُوسَى وَدَاوُدَ وَعِيسَى -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-، حَيْثُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَهُمْ كَانُوا قَارِئِينَ كَاتِبِينَ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنَ التَّلَقُّنِ وَالتَّحَفُّظِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ مُنَجَّمًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ.

وَأَيْضًا، فَكَانَ يَنْزِلُ عَلَى حَسَبِ الْحَوَادِثِ وَجَوَابَاتِ السَّائِلِينَ، وَلِأَنَّ بَعْضَهُ مَنْسُوخٌ وَبَعْضَهُ نَاسِخٌ، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا أُنْزِلَ مُفَرَّقًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ذَلِكَ فِي كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى شَيْءٍ تَقَدَّمَهُ، وَالَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ إِنْزَالُهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَكَيْفَ فَسَّرْتَهُ بِكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ مُفَرَّقًا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً: مَعْنَاهُ: لِمَ أُنْزِلَ مُفَرَّقًا؟ وَالدَّلِيلُ عَلَى فَسَادِ هَذَا الِاعْتِرَاضِ: أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِنَجْمٍ وَاحِدٍ مِنْ نُجُومِهِ، وَتُحُدُّوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَصْغَرَ السُّوَرِ، فَأَبْرَزُوا صَفْحَةَ عَجْزِهِمْ وَسَجَّلُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ حِينَ لَاذُوا بِالْمُنَاصَبَةِ وَفَزِعُوا إِلَى الْمُحَارَبَةِ، ثُمَّ قَالُوا: هَلَّا نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً؟ كَأَنَّهُمْ قَدَرُوا عَلَى تَفَارِيقِهِ حَتَّى يَقْدِرُوا عَلَى جُمْلَتِهِ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾[2] مَعْطُوفٌ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ كَذَلِكَ، كَأَنَّهُ قَالَ: كَذَلِكَ فَرَّقْنَاهُ وَرَتَّلْنَاهُ. وَمَعْنَى تَرْتِيلِهِ: أَنْ قَدَّرَهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وَوَقَفَهُ عَقِيبَ وَقْفِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَمَرْنَا بِتَرْتِيلِ قِرَاءَتِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾[3]، أَيِ اقْرَأْهُ بِتَرَسُّلٍ وَتَثَبُّتٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْمُزَّمِّل، الآية 4.

وَمِنْهُ حَدِيثُ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– فِي صِفَةِ قِرَاءَتِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– "لَا كَسَرْدِكُمْ هَذَا، لَوْ أَرَادَ السَّامِعُ أَنْ يَعُدَّ حُرُوفَهُ يَعُدُّهَا"، وَأَصْلُهُ: التَّرْتِيلُ فِي الْأَسْنَانِ: وَهُوَ تَفْلِيجُهَا. يُقَالُ: ثَغْرٌ رَتْلٌ وَمُرَتَّلٌ، وَيُشَبَّهُ بِنَوْرِ الْأُقْحُوَانِ فِي تَفْلِيجِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ أَنْ نَزَّلَهُ مَعَ كَوْنِهِ مُتَفَرِّقًا عَلَى تَمَكُّثٍ وَتَمَهُّلٍ فِي مُدَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ وَهِيَ عِشْرُونَ سَنَةً، وَلَمْ يُفَرِّقْهُ فِي مُدَّةٍ مُتَقَارِبَةٍ.

﴿وَلا يَأْتُونَكَ﴾[1] بِسُؤَالٍ عَجِيبٍ مِنْ سُؤَالَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ –كَأَنَّهُ مَثَلٌ فِي الْبُطْلَانِ– إِلَّا أَتَيْنَاكَ نَحْنُ بِالْجَوَابِ الْحَقِّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَبِمَا هُوَ أَحْسَنُ مَعْنًى، وَمَأْدًى مِنْ سُؤَالِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ التَّفْسِيرُ هُوَ التَّكْشِيفُ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، وُضِعَ مَوْضِعَ مَعْنَاهُ، فَقَالُوا: تَفْسِيرُ هَذَا الْكَلَامِ كَيْتَ وَكَيْتَ، كَمَا قِيلَ: مَعْنَاهُ كَذَا وَكَذَا. أَوْ لَا يَأْتُونَكَ بِحَالٍ وَصِفَةٍ عَجِيبَةٍ يَقُولُونَ: هَلَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَكَ وَحَالَكَ، نَحْوَ: أَنْ يُقْرَنَ بِكَ مَلَكٌ يُنْذِرُ مَعَكَ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْكَ كَنْزٌ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ، أَوْ يُنَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً، إِلَّا أَعْطَيْنَاكَ نَحْنُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَحِقُّ لَكَ فِي حِكْمَتِنَا وَمَشِيئَتِنَا أَنْ تُعْطَاهُ، وَمَا هُوَ أَحْسَنُ تَكْشِيفًا لِمَا بُعِثْتَ عَلَيْهِ وَدَلَالَةً عَلَى صِحَّتِهِ، يَعْنِي: أَنَّ تَنْزِيلَهُ مُفَرَّقًا وَتَحَدِّيَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِبَعْضِ تِلْكَ التَّفَارِيقِ كَمَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنْهَا: أَدْخَلُ فِي الْإِعْجَازِ وَأَنْوَرُ لِلْحُجَّةِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ كُلُّهُ جُمْلَةً وَيُقَالُ لَهُمْ جِيئُوا بِمِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ فِي فَصَاحَتِهِ مَعَ بُعْدِ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ حَامِلَكُمْ عَلَى هَذِهِ السُّؤَالَاتِ أَنَّكُمْ تُضَلِّلُونَ سَبِيلَهُ وَتَحْتَقِرُونَ مَكَانَهُ وَمَنْزِلَتَهُ. وَلَوْ نَظَرْتُمْ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ وَأَنْتُمْ مِنَ الْمَسْحُوبِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ. لَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَكَانَكُمْ شَرٌّ مِنْ مَكَانِهِ وَسَبِيلَكُمْ أَضَلُّ مِنْ سَبِيلِهِ.

وَفِي طَرِيقَتِهِ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[2] الْآيَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمَكَانِ: الشَّرَفُ وَالْمَنْزِلَةُ. وَأَنْ يُرَادَ الدَّارُ وَالْمَسْكَنُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[3]، وَوَصْفُ السَّبِيلِ بِالضَّلَالِ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ وَعَنِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْمَائِدَةَ، الآية .

[3] سورة مَرْيَمَ، الآية 73.

النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثِ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ عَلَى الدَّوَابِّ وَثُلُثٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَثُلُثٌ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يَنْسَلُّونَ نَسْلًا".

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾[1]

الْوِزَارَةُ: لَا تُنَافِي النُّبُوَّةَ، فَقَدْ كَانَ يُبْعَثُ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ أَنْبِيَاءُ يُؤْمَرُونَ بِأَنْ يُوَازِرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَالْمَعْنَى: فَذَهَبَا إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمَا فَدَمَّرْنَاهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾[2]، أَيْ: فَضَرَبَ فَانْفَلَقَ. أَرَادَ اخْتِصَارَ الْقِصَّةِ فَذَكَرَ حَاشِيَتَيْهَا أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا؛ لِأَنَّهُمَا الْمَقْصُودُ بِطُولِهَا أَعْنِي: إِلْزَامَ الْحُجَّةِ بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ وَاسْتِحْقَاقُ التَّدْمِيرِ بِتَكْذِيبِهِمْ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– فَدَمَّرْتُهُمْ. وَعَنْهُ فَدَمَّرَاهُمْ.

وَقُرِئَ: "فَدَمَّرَانَّهُمْ"، عَلَى التَّأْكِيدِ بِالنُّونِ الثَّقِيلَةِ.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3]

كَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا نُوحًا وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ صَرِيحًا. أَوْ كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ تَكْذِيبٌ لِلْجَمِيعِ أَوْ لَمْ يَرَوْا بِعْثَةَ الرُّسُلِ أَصْلًا كَالْبَرَاهِمَةِ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾: وَجَعَلْنَا إِغْرَاقَهُمْ أَوْ قِصَّتَهُمْ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ [4]إِمَّا أَنْ يَعْنِيَ بِهِمْ قَوْمَ نُوحٍ، وَأَصْلُهُ: وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ قَصَدَ تَظْلِيمَهُمْ فَأَظْهَرَ. وَإِمَّا أَنْ يَتَنَاوَلَهُمْ بِعُمُومِهِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الشُّعَرَاءِ، الآية 63.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[1]

عَطَفَ ﴿عَادًا﴾[2] عَلَى "هُمْ" فِي ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾[3] أَوْ عَلَى "الظَّالِمِينَ"، لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَوَعَدْنَا الظَّالِمِينَ. وَقُرِئَ: "وَثَمُودَ" عَلَى تَأْوِيلِهِ الْقَبِيلَةَ.

وَأَمَّا الْمُنْصَرِفُ فَعَلَى تَأْوِيلِ الْحَيِّ أَوْ لِأَنَّهُ اسْمُ الْأَبِ الْأَكْبَرِ. قِيلَ: فِي أَصْحَابِ الرَّسِّ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ أَصْحَابَ آبَارٍ وَمَوَاشٍ. فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَتَمَادَوْا فِي طُغْيَانِهِمْ وَفِي إِيذَائِهِ. فَبَيْنَا هُمْ حَوْلَ الرَّسِّ، وَهُوَ الْبِئْرُ غَيْرُ الْمَطْوِيَّةِ.

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: انْهَارَتْ بِهِمْ فَخُسِفَ بِهِمْ وَبِدِيَارِهِمْ. وَقِيلَ: الرَّسُّ قَرْيَةٌ بِفَلْجِ الْيَمَامَةِ، قَتَلُوا نَبِيَّهُمْ فَهَلَكُوا، وَهُمْ بَقِيَّةُ ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ. وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ، كَانُوا مُبْتَلِينَ بِالْعَنْقَاءِ وَهِيَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّيْرِ، سُمِّيَتْ لِطُولِ عُنُقِهَا، وَكَانَتْ تَسْكُنُ جَبَلَهُمُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ فَتْخٌ، وَهِيَ تَنْقَضُّ عَلَى صِبْيَانِهِمْ فَتَخْطَفُهُمْ، إِنْ أَعْوَزَهَا الصَّيْدُ، فَدَعَا عَلَيْهَا حَنْظَلَةُ فَأَصَابَتْهَا الصَّاعِقَةُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَتَلُوا حَنْظَلَةَ فَأُهْلِكُوا: وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ.

وَالرَّسُّ: هُوَ الْأُخْدُودُ. وَقِيلَ الرَّسُّ بِأَنْطَاكِيَّةَ قَتَلُوا فِيهَا حَبِيبًا النَّجَّارَ. وَقِيلَ: كَذَّبُوا نَبِيَّهُمْ وَرُسُّوهُ فِي بِئْرٍ، أَيْ: دَسُّوهُ فِيهَا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾[4]، أَيْ بَيْنَ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ، وَقَدْ يَذْكُرُ الذَّاكِرُ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً ثُمَّ يُشِيرُ إِلَيْهَا ذَلِكَ، وَيَحْسُبُ الْحَاسِبُ أَعْدَادًا مُتَكَاثِرَةً ثُمَّ يَقُولُ: فَذَلِكَ كَيْتَ وَكَيْتَ عَلَى مَعْنَى: فَذَلِكَ الْمَحْسُوبُ أَوِ الْمَعْدُودُ ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾[5] بَيَّنَّا لَهُ الْقِصَصَ الْعَجِيبَةَ مِنْ قَصَصِ الْأَوَّلِينَ، وَوَصَفْنَا لَهُمْ مَا أَجْرَوْا إِلَيْهِ مِنْ تَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ وَجَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَتَدْمِيرِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَالتَّتْبِيرُ: التَّفْتِيتُ وَالتَّكْسِيرُ. وَمِنْهُ: التِّبْرُ، وَهُوَ كِسَارُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالزُّجَاجِ. وَ﴿وَكُلا﴾ [1]الْأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾[2]، وَهُوَ: أَنْذَرْنَا. أَوْ: حَذَّرْنَا. وَالثَّانِي: بِتَبَّرْنَا، لِأَنَّهُ فَارِغٌ لَهُ.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[3]

أَرَادَ بِالْقَرْيَةِ "سَدُومَ" مِنْ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ، وَكَانَتْ خَمْسًا: أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعًا بِأَهْلِهَا وَبَقِيَتْ وَاحِدَةٌ. وَمَطَرُ السَّوْءِ: الْحِجَارَةُ، يَعْنِي أَنَّ قُرَيْشًا مَرُّوا مِرَارًا كَثِيرَةً فِي مَتَاجِرِهِمْ إِلَى الشَّامِ عَلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُهْلِكَتْ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا﴾[4] فِي مِرَارِ مُرُورِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِ عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ وَيَذَّكَّرُونَ، ﴿بَلْ كَانُوا﴾[5] قَوْمًا كَفَرَةً بِالْبَعْثِ لَا يَتَوَقَّعُونَ ﴿نُشُورًا﴾ [6]وَعَاقِبَةً، فَوُضِعَ الرَّجَاءُ مَوْضِعَ التَّوَقُّعِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَوَقَّعُ الْعَاقِبَةَ مَنْ يُؤْمِنُ فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَنْظُرُوا وَلَمْ يَذَّكَّرُوا، وَمَرُّوا بِهَا كَمَا مَرَّتْ رِكَابُهُمْ. أَوْ لَا يَأْمُلُونَ نُشُورًا كَمَا يَأْمُلُهُ الْمُؤْمِنُونَ لِطَمَعِهِمْ فِي الْوُصُولِ إِلَى ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ. أَوْ لَا يَخَافُونَ، عَلَى اللُّغَةِ التِّهَامِيَّةِ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

"إِنِ" الْأُولَى نَافِيَةٌ، وَالثَّانِيَةُ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَهُمَا.

وَاتَّخَذَهُ ﴿هُزُوًا﴾[1]: فِي مَعْنَى اسْتَهْزَأَ بِهِ، وَالْأَصْلُ: اتَّخَذَهُ مَوْضِعَ هُزُوٍ، أَوْ مَهْزُوءًا بِهِ "أَهَذَا" مُحْكَى بَعْدَ الْقَوْلِ الْمُضْمَرِ. وَهَذَا اسْتِصْغَارٌ.

وَ﴿بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا﴾[2] وَإِخْرَاجُهُ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيمِ وَالْإِقْرَارِ، وَهُمْ عَلَى غَايَةِ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ سُخْرِيَةً وَاسْتِهْزَاءً، وَلَوْ لَمْ يَسْتَهْزِئُوا لَقَالُوا: أَهَذَا الَّذِي زَعَمَ أَوِ ادَّعَى أَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَسُولًا.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾[3] دَلِيلٌ عَلَى فَرْطِ مُجَاهَدَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي دَعْوَتِهِمْ، وَبَذْلِهِ قُصَارَى الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ فِي اسْتِعْطَافِهِمْ، مَعَ عَرْضِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَارَفُوا بِزَعْمِهِمْ أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، لَوْلَا فَرْطُ لَجَاجِهِمْ وَاسْتِمْسَاكِهِمْ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ.

وَ﴿لَوْلَا﴾[4] فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ جَارٍ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى –لَا مِنْ حَيْثُ الصَّنْعَةِ– مَجْرَى التَّقْيِيدِ لِلْحُكْمِ الْمُطْلَقِ.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[5]: وَعِيدٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَهُ وَإِنْ طَالَتْ مُدَّةُ الْإِمْهَالِ، وَلَا بُدَّ لِلْوَعِيدِ أَنْ يَلْحَقَهُمْ فَلَا يَغُرَّنَّهُمُ التَّأْخِيرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾[6] كَالْجَوَابِ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾، لِأَنَّهُ نِسْبَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى الضَّلَالِ مِنْ حَيْثُ لَا يَضِلُّ غَيْرُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[1]

مَنْ كَانَ فِي طَاعَةِ الْهَوَى فِي دِينِهِ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَذَرُ لَا يَتَبَصَّرُ دَلِيلًا وَلَا يُصْغِي إِلَى بُرْهَانٍ. فَهُوَ عَابِدٌ هَوَاهُ وَجَاعِلُهُ إِلَهَهُ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ هَذَا الَّذِي لَا يَرَى مَعْبُودًا إِلَّا هَوَاهُ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْعُوَهُ إِلَى الْهُدَى أَفَتَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَتُجْبِرُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَقُولُ: لَا بُدَّ أَنْ تُسْلِمَ شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ؟ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[2]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[3].

وَيُرْوَى أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا رَأَى أَحْسَنَ مِنْهُ رَمَى بِهِ وَأَخَذَ آخَرَ. وَمِنْهُمُ الْحَرْثُ بْنُ قَيْسٍ السَّهْمِيُّ.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾[4]

﴿أَمْ﴾[5] هَذِهِ مُنْقَطِعَةٌ. مَعْنَاهُ؛ بَلْ أَتَحْسَبُ كَأَنَّ هَذِهِ الْمَذَمَّةَ أَشَدُّ مِنَ الَّتِي تَقَدَّمَتْهَا حَتَّى حُقَّتْ بِالْإِضْرَابِ عَنْهَا إِلَيْهَا، وَهِيَ كَوْنُهُمْ مَسْلُوبِي الْأَسْمَاعِ وَالْعُقُولِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُلْقُونَ إِلَى اسْتِمَاعِ الْحَقِّ أُذُنًا وَلَا إِلَى تَدَبُّرِهِ عَقْلًا، وَمُشَبَّهِينَ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي هِيَ مَثَلٌ فِي الْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ أَرْجَحُ ضَلَالَةً مِنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَخَّرَ هَوَاهُ وَالْأَصْلُ قَوْلُكَ: اتَّخَذَ الْهَوَى إِلَهًا؟

قُلْتُ: مَا هُوَ إِلَّا تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ لِلْعِنَايَةِ، كَمَا تَقُولُ: عَلِمْتُ مُنْطَلِقًا زَيْدًا: لِفَضْلِ عِنَايَتِكَ بِالْمُنْطَلِقِ،

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ذِكْرِ الْأَكْثَرِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ق، الآية 45.

[3] سورة الْغَاشِيَةَ، الآية 22.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَصُدُّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا دَاءٌ وَاحِدٌ: وَهُوَ حُبُّ الرِّيَاسَةِ، وَكَفَى بِهِ دَاءً عُضَالًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جُعِلُوا أَضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَنْقَادُ لِأَرْبَابِهَا الَّتِي تَعْلِفُهَا وَتَتَعَهَّدُهَا، وَتَعْرِفُ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهَا مِمَّنْ يُسِيءُ إِلَيْهَا، وَتَطْلُبُ مَا يَنْفَعُهَا وَتَجْتَنِبُ مَا يَضُرُّهَا، وَتَهْتَدِي لِمَرَاعِيهَا وَمَشَارِبِهَا. وَهَؤُلَاءِ لَا يَنْقَادُونَ لِرَبِّهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ إِسَاءَةِ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمْ، وَلَا يَطْلُبُونَ الثَّوَابَ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَنَافِعِ، وَلَا يَتَّقُونَ الْعِقَابَ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ الْمَضَارِّ وَالْمَهَالِكِ، وَلَا يَهْتَدُونَ لِلْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْمُشَرِّعُ الْهَنِي وَالْعَذْبُ الرَّوِي سَبِيلًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[1]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾[2]: أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى صُنْعِ رَبِّكَ وَقُدْرَتِهِ، وَمَعْنَى مَدِّ الظِّلِّ: أَنْ جَعَلَهُ يَمْتَدُّ وَيَنْبَسِطُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾[3]، أَيْ لَاصِقًا بِأَصْلِ كُلِّ مُظِلٍّ مِنْ جَبَلٍ وَبِنَاءٍ وَشَجَرَةٍ، غَيْرَ مُنْبَسِطٍ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أَحَدٌ: سُمِّيَ انْبِسَاطُ الظِّلِّ وَامْتِدَادُهُ تَحَرُّكًا مِنْهُ وَعَدَمُ ذَلِكَ سُكُونًا. وَمَعْنَى كَوْنِ الشَّمْسِ دَلِيلًا: أَنَّ النَّاسَ يَسْتَدِلُّونَ بِالشَّمْسِ وَبِأَحْوَالِهَا فِي مَسِيرِهَا عَلَى أَحْوَالِ الظِّلِّ، مِنْ كَوْنِهِ ثَابِتًا فِي مَكَانٍ زَائِلًا وَمُتَّسِعًا وَمُتَقَلِّصًا، فَيَبْنُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَى الظِّلِّ وَاسْتِغْنَاءَهُمْ عَنْهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. وَقَبْضُهُ إِلَيْهِ: أَنَّهُ يَنْسَخُهُ بِضَحِّ الشَّمْسِ.

﴿يَسِيرًا﴾[4]، أَيْ عَلَى مَهَلٍ. وَفِي هَذَا الْقَبْضِ الْيَسِيرِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَرُ، وَلَوْ قُبِضَ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ مَرَافِقِ النَّاسِ بِالظِّلِّ وَالشَّمْسِ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ثُمَّ فِي هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ كَيْفَ مَوْقِعُهَا؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: مَوْقِعُهَا لِبَيَانِ تَفَاضُلِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: كَانَ الثَّانِي أَعْظَمَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَالثَّالِثُ أَعْظَمَ مِنْهُمَا، تَشْبِيهًا لِتَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْفَضْلِ بِتَبَاعُدِ مَا بَيْنَ الْحَوَادِثِ فِي الْوَقْتِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّهُ مَدَّ الظِّلَّ حِينَ بَنَى السَّمَاءَ كَالْقُبَّةِ الْمَضْرُوبَةِ، وَدَحَا الأرض تَحْتَهَا فَأَلْقَتِ الْقُبَّةُ ظِلَّهَا عَلَى الأرض فَيْنَانًا مَا فِي أَدِيمِهِ جَوْبٌ لِعَدَمِ النَّيِّرِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مُسْتَقِرًّا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، ثُمَّ خَلَقَ الشَّمْسَ وَجَعَلَهَا عَلَى ذَلِكَ الظِّلِّ، أَيْ: سَلَّطَهَا عَلَيْهِ وَنَصَبَهَا دَلِيلًا مَتْبُوعًا لَهُ كَمَا يُتْبَعُ الدَّلِيلُ فِي الطَّرِيقِ، فَهُوَ يَزِيدُ بِهَا وَيَنْقُصُ، وَيَمْتَدُّ وَيَتَقَلَّصُ، ثُمَّ نَسَخَهُ بِهَا فَقَبَضَهُ قَبْضًا سَهْلًا يَسِيرًا غَيْرَ عَسِيرٍ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ: قَبْضَهُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ بِقَبْضِ أَسْبَابِهِ، وَهِيَ الْأَجْرَامُ الَّتِي تُلْقِي الظِّلَّ فَيَكُونُ قَدْ ذَكَرَ إِعْدَامَهُ بِإِعْدَامِ أَسْبَابِهِ كَمَا ذَكَرَ إِنْشَاءَهُ بِإِنْشَاءِ أَسْبَابِهِ، وَقَوْلُهُ: قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا: يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ يَسِيرًا، كَمَا قَالَ: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[2]

شَبَّهَ مَا يَسْتُرُ مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ بِاللِّبَاسِ السَّاتِرِ. وَالسُّبَاتُ: الْمَوْتُ. وَالْمَسْبُوتُ: الْمَيِّتُ؛ لِأَنَّهُ مَقْطُوعُ الْحَيَاةِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا فَسَّرْتَهُ بِالرَّاحَةِ؟

قُلْتُ: النُّشُورُ فِي مُقَابَلَتِهِ يَأْبَاهُ إِبَاءَ الْعُيُوفِ الْوِرْدَ وَهُوَ مُرَنَّقٌ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مَعَ دَلَالَتِهَا عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ فِيهَا إِظْهَارٌ لِنِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ؛ لِأَنَّ الِاحْتِجَابَ بِسَتْرِ اللَّيْلِ، كَمْ فِيهِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ فَوَائِدَ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ، وَالنَّوْمُ وَالْيَقَظَةُ وَشِبْهُهُمَا بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، أَيْ عِبْرَةٌ فِيهَا لِمَنِ اعْتَبَرَ.

وَعَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، كَمَا تَنَامُ فَتُوقَظُ، كَذَلِكَ تَمُوتُ فَتُنْشَرُ.

---

[1] سورة ق، الآية 4.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْأَنْعَامِ، الآية 60.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[1]

قُرِئَ: "الرِّيحَ". وَ"الرِّيَاحَ نَشْرًا": إِحْيَاءً. وَنَشْرًا: جَمْعَ نُشُورٍ، وَهِيَ الْمُحْيِيَةُ. وَنَشْرًا: تَخْفِيفُ نَشَرَ، وَبُشْرًا تَخْفِيفُ بَشَّرَ: جَمْعُ بُشُورٍ وَبُشْرَى.

وَ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[2] اسْتِعَارَةٌ مَلِيحَةٌ، أَيْ: قُدَّامَ الْمَطَرِ

﴿طَهُورًا﴾[3] بَلِيغًا فِي طَهَارَتِهِ.

وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى هُوَ مَا كَانَ طَاهِرًا فِي نَفْسِهِ مُطَهِّرًا لِغَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ مَا قَالَهُ شَرْحًا لِبَلَاغَتِهِ فِي الطَّهَارَةِ كَانَ سَدِيدًا.

وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[4]، وَإِلَّا فَلَيْسَ "فَعُولٌ" مِنَ التَّفْعِيلِ فِي شَيْءٍ.

وَالطَّهُورُ عَلَى وَجْهَيْنِ فِي الْعَرَبِيَّةِ: صِفَةٌ، وَاسْمٌ غَيْرُ صِفَةٍ؛ فَالصِّفَةُ قَوْلُكَ: مَاءٌ طَهُورٌ، كَقَوْلِكَ: طَاهِرٌ، وَالِاسْمُ قَوْلُكَ لِمَا يُتَطَهَّرُ بِهِ: طَهُورٌ، كَالْوَضُوءِ وَالْوَقُودِ، لِمَا يُتَوَضَّأُ بِهِ وَتُوقَدُ بِهِ النَّارُ. وَقَوْلُهُمْ: تَطَهَّرْتُ طَهُورًا حَسَنًا، كَقَوْلِكَ: وَضُوءً حَسَنًا، ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا صَلَاةَ إِلَّا بِطَهُورٍ"، أَيْ طَهَارَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الَّذِي يُزِيلُ عَنِ الْمَاءِ اسْمَ الطَّهُورِ؟

قُلْتُ: تَيَقُّنُ مُخَالَطَةِ النَّجَاسَةِ أَوْ غَلَبَتُهَا عَلَى الظَّنِّ، تَغَيَّرَ أَحَدُ أَوْصَافِهِ الثَّلَاثَةِ أَوْ لَمْ يَتَغَيَّرْ. أَوِ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْبَدَنِ لِأَدَاءِ عِبَادَةٍ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَعِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ أَحَدُ أَوْصَافِهِ فَهُوَ طَهُورٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي قَوْلِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ سُئِلَ عَنْ بِئْرِ بُضَاعَةَ، فَقَالَ: "الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا غَيَّرَ لَوْنَهُ أَوْ طَعْمَهُ أَوْ رِيحَهُ"؟

قُلْتُ: قَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ بِئْرُ بُضَاعَةَ طَرِيقًا لِلْمَاءِ إِلَى الْبَسَاتِينِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْأَنْفَالَ، الآية **11**.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[1]

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مَيْتًا﴾[2]، لِأَنَّ الْبَلْدَةَ فِي مَعْنَى الْبَلَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[3]، وَأَنَّهُ غَيْرُ جَارٍ عَلَى الْفِعْلِ كَفُعُولٍ وَمِفْعَالٍ وَمِفْعِيلٍ. وَقُرِئَ: "نَسْقِيهِ" بِالْفَتْحِ.

وَسَقَى، وَأَسْقَى: لُغَتَانِ. وَقِيلَ: أَسْقَاهُ: جَعَلَ لَهُ سُقْيَا. الْأَنَاسِيُّ: جَمْعُ إِنْسِيٍّ أَوْ إِنْسَانٍ. وَنَحْوُهُ ظَرَابِيُّ فِي ظِرْبَانٍ، عَلَى قَلْبِ النُّونِ يَاءً، وَالْأَصْلُ: أَنَاسِينَ وَظَرَابِينَ. وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ بِحَذْفِ يَاءِ أَفَاعِيلَ، كَقَوْلِكَ: أَنَاعِمُ، فِي: أَنَاعِيمُ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْزَالُ الْمَاءِ مَوْصُوفًا بِالطَّهَارَةِ وَتَعْلِيلُهُ بِالْإِحْيَاءِ وَالسَّقْيِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الطَّهَارَةَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ ذَلِكَ، كَمَا تَقُولُ: حَمَلَنِي الْأَمِيرُ عَلَى فَرَسٍ جَوَادٍ لِأَصِيدَ عَلَيْهِ الْوَحْشَ.

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ سَقْيُ الْأَنَاسِيِّ مِنْ جُمْلَةِ مَا أُنْزِلَ لَهُ الْمَاءُ، وَصَفَهُ بِالطَّهُورِ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَتَتْمِيمًا لِلْمِنَّةِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانًا أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ حِينَ أَرَادَ اللَّهُ لَهُمُ الطَّهَارَةَ وَأَرَادَهُمْ أَنْ يُؤْثِرُوهَا فِي بَوَاطِنِهِمْ ثُمَّ فِي ظَوَاهِرِهِمْ، وَأَنْ يَرْبَئُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُخَالَطَةِ الْقَاذُورَاتِ كُلِّهَا كَمَا رَبَأَ بِهِمْ رَبُّهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ الْأَنْعَامَ مِنْ بَيْنِ مَا خَلَقَ مِنَ الْحَيَوَانِ الشَّارِبِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الطَّيْرَ وَالْوَحْشَ تَبْعُدُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ فَلَا يَعُوزُهَا الشُّرْبُ، بِخِلَافِ الْأَنْعَامِ؛ وَلِأَنَّهَا قِنْيَةُ الْأَنَاسِيِّ، وَعَامَّةُ مَنَافِعِهِمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا، فَكَانَ الْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ بِسَقْيِ أَنْعَامِهِمْ كَالْإِنْعَامِ بِسَقْيِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى تَنْكِيرِ الْأَنْعَامِ وَالْأَنَاسِيِّ وَوَصْفِهَا بِالْكَثْرَةِ؟

قُلْتُ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ عِلْيَةَ النَّاسِ وَجُلَّهُمْ مُنِيخُونَ بِالْقُرْبِ مِنَ الْأَوْدِيَةِ وَالْأَنْهَارِ وَمَنَابِعِ الْمَاءِ، فَفِيهِمْ غَنِيَّةٌ عَنْ سَقْيِ السَّمَاءِ، وَأَعْقَابُهُمْ -وَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ- لَا يُعَيِّشُهُمْ إِلَّا مَا يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَسُقْيَا سَمَائِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾[4] يُرِيدُ بَعْضَ بِلَادِ هَؤُلَاءِ الْمُتَبَعِّدِينَ مِنْ مَظَانِّ الْمَاءِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة فَاطِر، الآية 9.

[4] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَدَّمَ إِحْيَاءَ الأرض وَسَقْيَ الْأَنْعَامِ عَلَى سَقْيِ الْأَنَاسِيِّ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ حَيَاةَ الْأَنَاسِيِّ بِحَيَاةِ أَرْضِهِمْ وَحَيَاةِ أَنْعَامِهِمْ، فَقَدَّمَ مَا هُوَ سَبَبُ حَيَاتِهِمْ وَتَعَيُّشِهِمْ عَلَى سَقْيِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ إِذَا ظَفِرُوا بِمَا يَكُونُ سُقْيَا أَرْضِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ، لَمْ يَعْدَمُوا سُقْيَاهُمْ.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾[1]

يُرِيدُ: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا هَذَا الْقَوْلَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ وَفِي سَائِرِ الْكُتُبِ وَالصُّحُفِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى الرُّسُلِ –عَلَيْهِمُ السَّلَامُ–، وَهُوَ ذِكْرُ إِنْشَاءِ السَّحَابِ وَإِنْزَالِ الْقَطْرِ– لِيُفَكِّرُوا وَيَعْتَبِرُوا، وَيَعْرِفُوا حَقَّ النِّعْمَةِ فِيهِ وَيَشْكُرُوا.

﴿فَأَبَى﴾[2] أَكْثَرُهُمْ إِلَّا كُفْرَانَ النِّعْمَةِ وَجُحُودَهَا وَقِلَّةَ الِاكْتِرَاثِ لَهَا. وَقِيلَ: صَرَّفْنَا الْمَطَرَ بَيْنَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَوْقَاتِ الْمُتَغَايِرَةِ، وَعَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَفَاوِتَةِ مِنْ وَابِلٍ وَطَلٍّ، وَجُودٍ وَرَذَاذٍ، وَدِيمَةٍ وَرِهَامٍ: فَأَبَوْا إِلَّا الْكُفُورَ وَأَنْ يَقُولُوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، وَلَا يَذْكُرُوا صُنْعَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: مَا مِنْ عَامٍ أَقَلَّ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَسَّمَ ذَلِكَ بَيْنَ عِبَادِهِ عَلَى مَا شَاءَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

وَرُوِيَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَعْرِفُونَ عَدَدَ الْمَطَرِ وَمِقْدَارَهُ فِي كُلِّ عَامٍ، لِأَنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ وَلَكِنْ تَخْتَلِفُ فِيهِ الْبِلَادُ. وَيُنْتَزَعُ مِنْ هَا هُنَا جَوَابٌ فِي تَنْكِيرِ الْبَلْدَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنَاسِيِّ، كَأَنَّهُ قَالَ: لِنُحْيِيَ بِهِ بَعْضَ الْبِلَادِ الْمَيِّتَةِ، وَنَسْقِيَهُ بَعْضَ الْأَنْعَامِ وَالْأَنَاسِيِّ، وَذَلِكَ الْبَعْضُ كَثِيرٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَكْفُرُ مَنْ يَنْسُبُ الْأَمْطَارَ إِلَى الْأَنْوَاءِ؟

قُلْتُ: إِنْ كَانَ لَا يَرَاهَا إِلَّا مِنَ الْأَنْوَاءِ وَيَجْحَدُ أَنْ تَكُونَ هِيَ وَالْأَنْوَاءُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ: فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنْ كَانَ يَرَى أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا وَقَدْ نَصَبَ الْأَنْوَاءَ دَلَائِلَ وَأَمَارَاتٍ عَلَيْهَا: لَمْ يَكْفُرْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1]

يَقُولُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾[2] لَخَفَّفْنَا عَنْكَ أَعْبَاءَ نِذَارَةِ جَمِيعِ الْقُرَى. وَ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾[3] نَبِيًّا يُنْذِرُهَا.

وَإِنَّمَا قَصَرْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ وَعَظَّمْنَاكَ بِهِ، وَأَجْلَلْنَاكَ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ، فَقَابِلْ ذَلِكَ بِالتَّشَدُّدِ وَالتَّصَبُّرِ ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾[4] فِيمَا يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا تَهْيِيجَهُ وَتَهْيِيجَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْرِيكَهُمْ.

وَالضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ أَوْ لِتَرْكِ الطَّاعَةِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿فَلا تُطِعِ﴾[5]، وَالْمُرَادُ: أَنَّ الْكُفَّارَ يَجِدُّونَ وَيَجْتَهِدُونَ فِي تَوْهِينِ أَمْرِكَ، فَقَابِلْهُمْ مِنْ جِدِّكَ وَاجْتِهَادِكَ وَعَضِّكَ عَلَى نَوَاجِذِكَ بِمَا تَغْلِبُهُمْ بِهِ وَتَعْلُوهُمْ، وَجَعَلَهُ جِهَادًا كَبِيرًا لِمَا يُحْتَمَلُ فِيهِ مِنَ الْمَشَاقِّ الْعِظَامِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ فِي "بِهِ" إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾[6] مِنْ كَوْنِهِ نَذِيرَ كَافَّةِ الْقُرَى، لِأَنَّهُ لَوْ بَعَثَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا لَوَجَبَتْ عَلَى كُلِّ نَذِيرٍ مُجَاهَدَةُ قَرْيَتِهِ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتِ كُلُّهَا، فَكَبُرَ جِهَادُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَظُمَ، فَقَالَ لَهُ ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾[7]، بِسَبَبِ كَوْنِكَ نَذِيرَ كَافَّةِ الْقُرَى ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾[8] جَامِعًا لِكُلِّ مُجَاهَدَةٍ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾[1]

سَمَّى الْمَاءَيْنِ الْكَثِيرِينَ الْوَاسِعِينَ: بَحْرَيْنِ، وَالْفُرَاتُ: الْبَلِيغُ الْعُذُوبَةِ حَتَّى يَضْرِبَ إِلَى الْحَلَاوَةِ. وَالْأُجَاجُ: نَقِيضُهُ. وَمَرَجَهُمَا: خَلَّاهُمَا مُتَجَاوِرَيْنِ مُتَلَاصِقَيْنِ، وَهُوَ بِقُدْرَتِهِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا وَيَمْنَعُهُمَا التَّمَازُجَ.

وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ اقْتِدَارِهِ. وَفِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ: وَبَحْرَانِ: أَحَدُهُمَا مَعَ الْآخَرِ مَمْرُوجٌ، وَمَاءُ الْعَذْبِ مِنْهُمَا بِالْأُجَاجِ مَمْزُوجٌ ﴿بَرْزَخًا﴾[2]حَائِلًا مِنْ قُدْرَتِهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[3]، يُرِيدُ بِغَيْرِ عَمَدٍ مَرْئِيَّةٍ، وَهُوَ قُدْرَتُهُ. وَقُرِئَ: "مَلْحٌ"، عَلَى فَعْلٍ، وَقِيلَ: كَأَنَّهُ حُذِفَ مِنْ مَالِحٍ تَخْفِيفًا، كَمَا قَالَ: وَصَلَيَانًا بَرْدًا، يُرِيدُ: بَارِدًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾[4] مَا مَعْنَاهُ؟

قُلْتُ: هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَقُولُهَا الْمُتَعَوِّذُ؛ وَقَدْ فَسَّرْنَاهَا، وَهِيَ هَا هُنَا وَاقِعَةٌ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِنْ صَاحِبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: حِجْرًا مَحْجُورًا، كَمَا قَالَ ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾[5]، أَيْ لَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ بِالْمُمَازَجَةِ، فَانْتِفَاءُ الْبَغْيِ ثَمَّةَ كَالتَّعَوُّذِ هَا هُنَا: جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صُورَةِ الْبَاغِي عَلَى صَاحِبِهِ، فَهُوَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُ وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِعَارَاتِ وَأَشْهَدُهَا عَلَى الْبَلَاغَةِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الرَّعْدَ، الآية 2.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الرَّحْمَنَ، الآية 20.

[6] سورة ، الآية .

أَرَادَ: فَقَسَّمَ الْبَشَرَ قِسْمَيْنِ ذَوِي نَسَبٍ، أَيْ: ذُكُورًا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ، فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَفُلَانَةُ بِنْتُ فُلَانٍ، وَذَوَاتِ صِهْرٍ: أَيْ إِنَاثًا يُصَاهَرُ بِهِنَّ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى– :﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[1].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[2]، حَيْثُ خَلَقَ مِنَ النُّطْفَةِ الْوَاحِدَةِ بَشَرًا نَوْعَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾[3]

الظَّهِيرُ وَالْمُظَاهِرُ، كَالْعَوِينِ وَالْمُعَاوِنِ. وَ"فَعِيلٌ" بِمَعْنَى مُفَاعِلٍ غَيْرُ عَزِيزٍ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكَافِرَ يُظَاهِرُ الشَّيْطَانَ عَلَى رَبِّهِ بِالْعَدَاوَةِ وَالشِّرْكِ.

رُوِيَ أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالظَّهِيرِ: الْجَمَاعَةَ، كَقَوْلِهِ:﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[4]، كَمَا جَاءَ: الصَّدِيقُ وَالْخَلِيطُ، يُرِيدُ بِالْكَافِرِ: الْجِنْسَ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ مُظَاهِرٌ لِبَعْضٍ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ دِينِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَكَانَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ –وَهُوَ عِبَادَةُ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ– عَلَى رَبِّهِ هَيِّنًا مُهِينًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: ظَهَرْتُ بِهِ، إِذَا خَلَّفْتَهُ خَلْفَ ظَهْرِكَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ.

وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[5].

---

[1] سورة الْقِيَامَةَ، الآية 39.

[2] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 54.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة التَّحْرِيمَ، الآية 4.

[5] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 7.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[1]

مِثَالَ: ﴿إِلّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[2]، وَالْمُرَادُ: إِلَّا فِعْلَ مَنْ شَاءَ وَاسْتِثْنَائِهِ عَنِ الْأَجْرِ قَوْلُ ذِي شَفَقَةٍ عَلَيْكَ قَدْ سَعَى لَكَ فِي تَحْصِيلِ مَالٍ: مَا أَطْلُبُ مِنْكَ ثَوَابًا عَلَى مَا سَعَيْتَ إِلَّا أَنْ تَحْفَظَ هَذَا الْمَالَ وَلَا تُضَيِّعَهُ، فَلَيْسَ حِفْظُكَ الْمَالَ لِنَفْسِكَ مِنْ جِنْسِ الثَّوَابِ، وَلَكِنْ صَوَّرَهُ هُوَ بِصُورَةِ الثَّوَابِ وَسَمَّاهُ بِاسْمِهِ، فَأَفَادَ فَائِدَتَيْنِ:

– إِحْدَاهُمَا: قَلْعُ شُبْهَةِ الطَّمَعِ فِي الثَّوَابِ مِنْ أَصْلِهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ حِفْظُكَ لِمَالِكَ ثَوَابًا فَإِنِّي أَطْلُبُ الثَّوَابَ.

– وَالثَّانِيَةُ: إِظْهَارُ الشَّفَقَةِ الْبَالِغَةِ وَأَنَّكَ إِنْ حَفِظْتَ مَالَكَ: اعْتَدَّ بِحِفْظِكَ ثَوَابًا وَرَضِيَ بِهِ كَمَا يَرْضَى الْمُثَابُ بِالثَّوَابِ.

وَلَعَمْرِي إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ مَعَ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ بِهَذَا الصَّدَدِ وَفَوْقَهُ.

وَمَعْنَى اتِّخَاذِهِمْ إِلَى اللَّهِ سَبِيلًا: تَقَرُّبُهُمْ إِلَيْهِ وَطَلَبُهُمْ عِنْدَهُ الزُّلْفَى بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ التَّقَرُّبُ بِالصَّدَقَةِ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[3]

أَمَرَهُ بِأَنْ يَثِقَ بِهِ وَيُسْنِدَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ فِي اسْتِكْفَاءِ شُرُورِهِمْ، مَعَ التَّمَسُّكِ بِقَاعِدَةِ التَّوَكُّلِ وَأَسَاسِ الِالْتِجَاءِ وَهُوَ طَاعَتُهُ وَعِبَادَتُهُ وَتَنْزِيهُهُ وَتَحْمِيدُهُ، وَعَرَّفَهُ أَنَّ الْحَيَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، حَقِيقٌ بِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَلَا يَتَّكِلُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قَرَأَهَا، فَقَالَ: لَا يَصِحُّ لِذِي عَقْلٍ أَنْ يَثِقَ بَعْدَهَا بِمَخْلُوقٍ، ثُمَّ أَرَاهُ أَنْ لَيْسَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ عِبَادِهِ شَيْءٌ، آمَنُوا أَمْ كَفَرُوا، وَأَنَّهُ خَبِيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ كَافٍ فِي جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[1]

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[2]، يَعْنِي فِي مُدَّةٍ: مِقْدَارُهَا هَذِهِ الْمُدَّةُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ نَهَارٌ وَلَا لَيْلٌ. وَقِيلَ: سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، وَكُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ سَنَةٍ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَحَدِ، وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ.

وَوَجْهُهُ: أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ تِلْكَ الْأَيَّامَ الْمُقَدَّرَةَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الشَّمْسَ وَأَدَارَهَا وَتَرَتَّبَ أَمْرُ الْعَالَمِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، جَرَتِ التَّسْمِيَةُ عَلَى هَذِهِ الْأَيَّامِ.

وَأَمَّا الدَّاعِي إِلَى هَذَا الْعَدَدِ –أَعْنِي السِّتَّةَ دُونَ سَائِرِ الْأَعْدَادِ–، فَلَا نَشُكُّ أَنَّهُ دَاعِي حِكْمَةٍ، لِعِلْمِنَا أَنَّهُ لَا يُقَدِّرُ تَقْدِيرًا إِلَّا بِدَاعِي حِكْمَةٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَطَّلِعُ عَلَيْهِ وَلَا نَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَتِهِ. وَمِنْ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ، وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةً، وَالشُّهُورِ اثْنَيْ عَشَرَ، وَالسَّمَاوَاتِ سَبْعًا وَالأرض كَذَلِكَ، وَالصَّلَوَاتِ خَمْسًا، وَأَعْدَادِ النِّصْبِ وَالْحُدُودِ وَالْكَفَّارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالْإِقْرَارُ بِدَوَاعِي الْحِكْمَةِ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، وَبِأَنَّ مَا قَدَّرَهُ حَقٌّ وَصَوَابٌ هُوَ الْإِيمَانُ.

وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

مَثَلًا﴾[1]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، وَهُوَ الْجَوَابُ أَيْضًا فِي أَنْ لَمْ يَخْلُقْهَا فِي لَحْظَةٍ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: إِنَّمَا خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَهَا فِي لَحْظَةٍ، تَعْلِيمًا لِخَلْقِهِ الرِّفْقَ وَالتَّثَبُّتَ. وَقِيلَ: اجْتَمَعَ خَلْقُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِي خُلِقَ مُبْتَدَأً. وَ﴿الرَّحْمَنُ﴾[3] خَبَرُهُ. أَوْ صِفَةٌ لِلْحَيِّ، وَالرَّحْمَنُ: خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ. أَوْ بَدَلٌ عَنِ الْمُسْتَتِرِ فِي اسْتَوَى. وَقُرِئَ: "الرَّحْمَنِ"، بِالْجَرِّ صِفَةٌ لِلْحَيِّ. وَقُرِئَ: "فَسَلْ" وَالْبَاءُ فِي بِهِ صِلَةُ سَلْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[4]، كَمَا تَكُونُ عَنْ صِلَتِهِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[5]، فَسَأَلَ بِهِ؛ كَقَوْلِهِ: اهْتُمَّ بِهِ، وَاعْتُنِيَ بِهِ؛ وَاشْتُغِلَ بِهِ. وَسَأَلَ عَنْهُ كَقَوْلِكَ: بَحَثَ عَنْهُ؛ وَفَتَّشَ عَنْهُ. وَنَقَّرَ عَنْهُ. أَوْ صِلَةُ خَبِيرًا: وَتَجْعَلُ خَبِيرًا مَفْعُولَ سَلْ، يُرِيدُ: فَسَلْ عَنْهُ رَجُلًا عَارِفًا يُخْبِرْكَ بِرَحْمَتِهِ. أَوْ فَسَلْ رَجُلًا خَبِيرًا بِهِ وَبِرَحْمَتِهِ. أَوْ: فَسَلْ بِسُؤَالِهِ خَبِيرًا؛ كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ بِهِ أَسَدًا، أَيْ بِرُؤْيَتِهِ.

وَالْمَعْنَى: إِنْ سَأَلْتَهُ وَجَدْتَهُ خَبِيرًا. أَوْ تَجْعَلُهُ حَالًا عَنِ الْهَاءِ، تُرِيدُ: فَسَلْ عَنْهُ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَقِيلَ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ مَذْكُورٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ: فَقِيلَ: فَسَلْ بِهَذَا الِاسْمِ مَنْ يُخْبِرُكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَنْ يُنْكِرُهُ. وَمِنْ ثَمَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا الَّذِي بِالْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مُسَيْلَمَةَ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: رَحْمَنُ الْيَمَامَةِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[6]

---

[1] سورة الْمُدَّثِّرَ، الآية 31.

[2] سورة الْمُدَّثِّرَ، الآية 31.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْمَعَارِجَ، الآية 11.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[1] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سُؤَالًا عَنِ الْمُسَمَّى بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَهُ بِهَذَا الِاسْمِ. وَالسُّؤَالُ عَنِ الْمَجْهُولِ بِـ ﴿مَا﴾[2].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سُؤَالًا عَنْ مَعْنَاهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْمَلًا فِي كَلَامِهِمْ كَمَا اسْتُعْمِلَ الرَّحِيمُ وَالرَّحُومُ وَالرَّاحِمُ. أَوْ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا إِطْلَاقَهُ عَلَى اللَّهِ –تَعَالَى– ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾[3]، أَيْ لِلَّذِي تَأْمُرُنَاهُ؛ بِمَعْنَى تَأْمُرُنَا سُجُودَهُ: عَلَى قَوْلِهِ: أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ. أَوْ لِأَمْرِكَ لَنَا.

وَقُرِئَ بِالْيَاءِ، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا مُحَمَّدٌ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. أَوْ يَأْمُرُنَا الْمُسَمَّى بِالرَّحْمَنِ وَلَا نَعْرِفُ مَا هُوَ.

وَفِي ﴿زَادَهُمْ﴾[4] ضَمِيرُ ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾[5]، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَقُولُ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[6]

الْبُرُوجُ: مَنَازِلُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ: الْحَمَلُ، وَالثَّوْرُ، وَالْجَوْزَاءُ، وَالسَّرَطَانُ، وَالْأَسَدُ، وَالسُّنْبُلَةُ، وَالْمِيزَانُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْقَوْسُ، وَالْجَدْيُ، وَالدَّلْوُ، وَالْحُوتُ: وَسُمِّيَتْ بِالْبُرُوجِ الَّتِي هِيَ الْقُصُورُ الْعَالِيَةُ؛ لِأَنَّهَا لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ كَالْمَنَازِلِ لِسُكَّانِهَا. وَاشْتِقَاقُ الْبُرْجِ مِنَ التَّبَرُّجِ؛ لِظُهُورِهِ. وَالسِّرَاجُ: الشَّمْسُ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[7]، وَقُرِئَ: "سُرُجًا"، وَهِيَ الشَّمْسُ وَالْكَوَاكِبُ الْكِبَارُ مَعَهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة نُوحَ، الآية **16**.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ: "وَقَمَرًا مُنِيرًا"، وَهِيَ جَمْعُ لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَذَا قَمَرٍ مُنِيرًا؛ لِأَنَّ اللَّيَالِيَ تَكُونُ قَمَرًا بِالْقَمَرِ، فَأَضَافَهُ إِلَيْهَا، وَنَظِيرُهُ –فِي بَقَاءِ حُكْمِ الْمُضَافِ بَعْدَ سُقُوطِهِ وَقِيَامِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ– قَوْلُ حَسَّانَ:

بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

يُرِيدُ: مَاءَ بَرَدَى، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْقَمَرُ بِمَعْنَى الْقَمَرِ، كَالرُّشْدِ وَالرَّشَدِ، وَالْعُرْبِ وَالْعَرَبِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1]

الْخِلْفَةُ مِنْ خَلِفَ، كَالرِّكْبَةِ مِنْ رَكِبَ: وَهِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَخْلُفُ عَلَيْهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ.

وَالْمَعْنَى: جَعَلَهُمَا ذَوِي خِلْفَةٍ، أَيْ: ذَوِي عَقَبَةٍ، أَيْ: يَعْقُبُ هَذَا ذَاكَ وَذَاكَ هَذَا. وَيُقَالُ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَخْتَلِفَانِ، كَمَا يُقَالُ: يَعْتَقِبَانِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[2]، وَيُقَالُ: بِفُلَانٍ خِلْفَةٌ وَاخْتِلَافٌ، إِذَا اخْتَلَفَ كَثِيرًا إِلَى مُتَبَرَّزِهِ. وَقُرِئَ: "يَذَّكَّرَ" وَ"يَذْكُرُ".

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يَتَذَكَّرُ.

وَالْمَعْنَى: لِيَنْظُرَ فِي اخْتِلَافِهِمَا النَّاظِرُ، فَيَعْلَمَ أَنْ لَا بُدَّ لِانْتِقَالِهِمَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَتَغَيُّرِهِمَا مِنْ نَاقِلٍ مُغَيِّرٍ.

وَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى عِظَمِ قُدْرَتِهِ، وَيَشْكُرُ الشَّاكِرُ عَلَى النِّعْمَةِ فِيهِمَا مِنَ السُّكُونِ بِاللَّيْلِ وَالتَّصَرُّفِ بِالنَّهَارِ، كَمَا قَالَ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[3]. أَوْ لِيَكُونَا وَقْتَيْنِ لِلْمُتَذَكِّرِينَ وَالشَّاكِرِينَ، مَنْ فَاتَهُ فِي أَحَدِهِمَا وِرْدَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ قَامَ بِهِ فِي الْآخَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 164.

[3] سورة الْقَصَصَ، الآية 73.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَنْ فَاتَهُ عَمَلُهُ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالشُّكْرِ بِالنَّهَارِ كَانَ لَهُ فِي اللَّيْلِ مُسْتَعْتَبٌ. وَمَنْ فَاتَهُ بِاللَّيْلِ: كَانَ لَهُ فِي النَّهَارِ مُسْتَعْتَبٌ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[1]

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾[2] مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ. كَأَنَّهُ قِيلَ: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَاتُهُمْ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾[3]، وَأَضَافَهُمْ إِلَى الرَّحْمَنِ تَخْصِيصًا وَتَفْضِيلًا. وَقُرِئَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾[4].

وَقُرِئَ: ﴿يَمْشُونَ﴾[5] ﴿هَوْنًا﴾[6] حَالٌ، أَوْ صِفَةٌ لِلْمَشْيِ، بِمَعْنَى: هَيِّنِينَ. أَوْ: مَشْيًا هَيِّنًا؛ إِلَّا أَنَّ فِي وَضْعِ الْمَصْدَرِ مَوْضِعَ الصِّفَةِ مُبَالَغَةٌ. وَالْهَوْنُ: الرِّفْقُ وَاللِّينُ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ "أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا". وَقَوْلُهُ:" الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ"، وَالْمَثَلُ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ. وَمَعْنَاهُ: إِذَا عَاسَرَ فَيَاسِرْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَوَاضُعٍ، لَا يَضْرِبُونَ بِأَقْدَامِهِمْ وَلَا يَخْفِقُونَ بِنِعَالِهِمْ أَشَرًا وَبَطَرًا، وَلِذَلِكَ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الرُّكُوبَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾[7].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 20.

﴿سَلامًا﴾[1] تَسَلُّمًا مِنْكُمْ نُجَاهِلُكُمْ، وَمُتَارَكَةً لَا خَيْرَ بَيْنَنَا وَلَا شَرَّ، أَيْ: نَتَسَلَّمُ مِنْكُمْ تَسَلُّمًا، فَأُقِيمَ السَّلَامُ مَقَامَ التَّسَلُّمِ. وَقِيلَ: قَالُوا سَدَادًا مِنَ الْقَوْلِ يُسَلِّمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِيذَاءِ، وَالْإِثْمِ. وَالْمُرَادُ بِالْجَهْلِ: السَّفَهُ وَقِلَّةُ الْأَدَبِ وَسُوءُ الرِّعَةِ، مِنْ قَوْلِهِ:

أَلَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْإِغْضَاءَ عَنِ السُّفَهَاءِ وَتَرْكَ الْمُقَابَلَةِ مُسْتَحْسِنٌ فِي الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَةِ وَالشَّرِيعَةِ، وَأَسْلَمُ لِلْعَرْضِ وَالْوَرَعِ.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[2]

الْبَيْتُوتَةُ: خِلَافُ الظُّلُولِ، وَهُوَ أَنْ يُدْرِكَكَ اللَّيْلُ، نِمْتَ أَوْ لَمْ تَنَمْ، وَقَالُوا: مَنْ قَرَأَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ فِي صِلَاتِهِ وَإِنْ قَلَّ فَقَدْ بَاتَ سَاجِدًا وَقَائِمًا. وَقِيلَ: هُمَا الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَالرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْعَشَاءِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَصْفٌ لَهُمْ بِإِحْيَاءِ اللَّيْلِ أَوْ بِأَكْثَرِهِ. يُقَالُ: فُلَانٌ يَظَلُّ صَائِمًا وَيَبِيتُ قَائِمًا.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[3]

﴿غَرَامًا﴾[4] هَلَاكًا وَخُسْرَانًا مُلِحًّا لَازِمًا.

قَالَ:

وَيَوْمُ النِّسَارِ وَيَوْمُ الْجِفَارِ فَكَانَا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامَـــــــــا

وَقَالَ:

إِنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَـــــالِي

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَمِنْهُ: الْغَرِيمُ: لِإِلْحَاحِهِ وَلِزَامِهِ. وَصَفَهُمْ بِإِحْيَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدِينَ وَقَائِمِينَ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ دَعْوَتِهِمْ هَذِهِ، إِيذَانًا بِأَنَّهُمْ مَعَ اجْتِهَادِهِمْ خَائِفُونَ مُبْتَهِلُونَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[1].

﴿سَاءَتْ﴾[2] فِي حُكْمِ "بِئْسَتْ "، وَفِيهَا ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ يُفَسِّرُهُ: مُسْتَقَرًّا. وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، مَعْنَاهُ: سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا هِيَ. وَهَذَا الضَّمِيرُ هُوَ الَّذِي رَبَطَ الْجُمْلَةَ بِاسْمِ إِنَّ وَجَعَلَهَا خَبَرًا لَهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿سَاءَتْ﴾[3] بِمَعْنَى: أَحْزَنَتْ. وَفِيهَا ضَمِيرُ اسْمِ إِنَّ.

وَ﴿مُسْتَقَرًّا﴾[4] حَالٌ أَوْ تَمْيِيزٌ، وَالتَّعْلِيلَانِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَا مُتَدَاخِلَيْنِ وَمُتَرَادِفَيْنِ، وَأَنْ يَكُونَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَحِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[5]

قُرِئَ: "يَقْتُرُوا" بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا. وَ"يُقَتِّرُوا"، بِتَخْفِيفِ التَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا. وَالْقَتْرُ وَالْإِقْتَارُ وَالتَّقْتِيرُ: التَّضْيِيقُ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْإِسْرَافِ. وَالْإِسْرَافُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي النَّفَقَةِ. وَوَصَفَهُمْ بِالْقَصْدِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ.

وَبِمِثْلِهِ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[6]، وَقِيلَ: الْإِسْرَافُ إِنَّمَا هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي الْمَعَاصِي، فَأَمَّا فِي الْقُرَبِ فَلَا إِسْرَافَ. وَسَمِعَ رَجُلٌ رَجُلًا يَقُولُ: لَا خَيْرَ فِي الْإِسْرَافِ. فَقَالَ: لَا إِسْرَافَ فِي الْخَيْرِ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ شَكَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ حِينَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَصَلْتَ الرَّحِمَ وَفَعَلْتَ وَصَنَعْتَ، وَجَاءَ بِكَلَامٍ حَسَنٍ،

---

[1] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 60.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة الْإِسْرَاءَ، الآية 29.

فَقَالَ ابْنٌ لِعَبْدِ الْمَلِكِ: إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ أَعَدَّهُ لِهَذَا الْمَقَامِ، فَسَكَتَ عَبْدُ الْمَلِكِ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ دَخَلَ عَلَيْهِ وَالِابْنُ حَاضِرٌ، فَسَأَلَهُ عَنْ نَفَقَتِهِ وَأَحْوَالِهِ فَقَالَ: الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ، فَعَرَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنَّهُ أَرَادَ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، أَهَذَا مِمَّا أَعَدَّهُ؟ وَقِيلَ: أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ طَعَامًا لِلتَّنَعُّمِ وَاللَّذَّةِ، وَلَا يَلْبَسُونَ ثَوْبًا لِلْجَمَالِ وَالزِّينَةِ، وَلَكِنْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُمْ وَيُعِينُهُمْ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَيَلْبَسُونَ مَا يَسْتُرُ عَوْرَاتِهِمْ وَيُكْنِهِمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ.

وَقَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: كَفَى سَرَفًا أَنْ لَا يَشْتَهِيَ رَجُلٌ شَيْئًا إِلَّا اشْتَرَاهُ فَأَكَلَهُ، وَالْقَوَامُ: الْعَدْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ لِاسْتِقَامَةِ الطَّرَفَيْنِ وَاعْتِدَالِهِمَا. وَنَظِيرُ الْقَوَامِ مِنَ الِاسْتِقَامَةِ: السَّوَاءُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ.

وَقُرِئَ: ﴿قَوَامًا﴾[1] بِالْكَسْرِ، وَهُوَ مَا يُقَامُ بِهِ الشَّيْءُ. يُقَالُ: أَنْتَ قِوَامُنَا، بِمَعْنَى مَا تُقَامُ بِهِ الْحَاجَةُ لَا يَفْضُلُ عَنْهَا وَلَا يَنْقُصُ، وَالْمَنْصُوبَانِ، أَعْنِي: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[2]: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَا خَبَرَيْنِ مَعًا، وَأَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ ذَلِكَ لَغْوًا، وَقَوَامًا مُسْتَقَرًّا. وَأَنْ يَكُونَ الظَّرْفُ خَبَرًا، وَقَوَامًا حَالًا مُؤَكِّدَةً.

وَأَجَازَ الْفَرَّاءُ أَنْ يَكُونَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾[3] اسْمَ كَانَ، عَلَى أَنَّهُ مَبْنِيٌّ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، كَقَوْلِهِ:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ

وَهُوَ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى لَيْسَ بِقَوِيٍّ: لِأَنَّ مَا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ قِوَامٌ لَا مَحَالَةَ، فَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ مُعْتَمَدُ الْفَائِدَةِ فَائِدَةٌ.

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿حَرَّمَ﴾[1]، أَيْ حَرَّمَهَا. وَالْمَعْنَى: حَرَّمَ قَتْلَهَا.

وَ﴿إِلا بِالْحَقِّ﴾[2] مُتَعَلِّقٌ بِهَذَا الْقَتْلِ الْمَحْذُوفِ. أَوْ بِلَا يَقْتُلُونَ، وَنَفْيُ هَذِهِ الْمُقَبَّحَاتِ الْعِظَامِ عَلَى الْمَوْصُوفِينَ بِتِلْكَ الْخِلَالِ الْعَظِيمَةِ فِي الدِّينِ، لِلتَّعْرِيضِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَالَّذِينَ بَرَّأَهُمُ اللَّهُ وَطَهَّرَهُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ. وَالْقَتْلُ بِغَيْرِ الْحَقِّ: يَدْخُلُ فِيهِ الْوَأْدُ وَغَيْرُهُ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ" قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ وَقَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ" ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهُ. وَقُرِئَ: "يَلْقَ فِيهِ أَثَامًا". وَقُرِئَ: "يَلْقَى" بِإِثْبَاتِ الْأَلِفِ، وَقَدْ مَرَّ مِثْلُهُ. وَالْآثَامُ: جَزَاءُ الْإِثْمِ، بِوَزْنِ الْوَبَالِ وَالنَّكَالِ وَمَعْنَاهُمَا.

قَالَ:

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى عُقُوقًا وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ

وَقِيلَ هُوَ الْإِثْمُ. وَمَعْنَاهُ: يَلْقَ جَزَاءَ أَثَامٍ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "أَيَامًا"، أَيْ شَدَائِدَ. يُقَالُ: يَوْمٌ ذُو أَيَامٍ: لِلْيَوْمِ الْعَصِيبِ.

﴿يُضَاعَفْ﴾[3] بَدَلٌ مِنْ يَلْقَ؛ لِأَنَّهُمَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ؛ كَقَوْلِهِ:

مَتَى تَأْتِنَا تُلَمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا وَنَارًا تَأَجَّجَا

وَقُرِئَ: "يَضْعُفْ"، وَ"نُضَعِّفْ لَهُ الْعَذَابَ"، بِالنُّونِ وَنَصْبِ الْعَذَابِ. وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ أَوْ عَلَى الْحَالِ، وَكَذَلِكَ "يَخْلُدْ" وَقُرِئَ: "وَيُخَلَّدْ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا، مِنَ الْإِخْلَادِ وَالتَّخْلِيدِ. وَقُرِئَ: "وَتَخْلُدْ"، بِالتَّاءِ عَلَى الِالْتِفَاتِ "يُبَدِّلُ" مُخَفَّفٌ وَمُثَقَّلٌ، وَكَذَلِكَ سَيِّئَاتِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى مُضَاعَفَةِ الْعَذَابِ وَإِبْدَالِ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

قُلْتُ: إِذَا ارْتَكَبَ الْمُشْرِكُ مَعَاصِيَ مَعَ الشِّرْكِ عُذِّبَ عَلَى الشِّرْكِ وَعَلَى الْمَعَاصِي جَمِيعًا، فَتُضَاعَفُ الْعُقُوبَةُ لِمُضَاعَفَةِ الْمُعَاقَبِ عَلَيْهِ. وَإِبْدَالُ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ: أَنَّهُ يَمْحُوهَا بِالتَّوْبَةِ، وَيُثْبِتُ مَكَانَهَا الْحَسَنَاتِ: الْإِيمَانُ، وَالطَّاعَةُ، وَالتَّقْوَى.

وَقِيلَ: يُبْدِلُهُمْ بِالشِّرْكِ إِيمَانًا، وَبِقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ: قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالزِّنَا: عِفَّةً وَإِحْصَانًا.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[1]

يُرِيدُ: وَمَنْ يَتْرُكُ الْمَعَاصِيَ وَيَنْدَمُ عَلَيْهَا وَيَدْخُلُ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ ﴿مَتَابًا﴾[2] مَرْضِيًّا عِنْدَهُ مُكَفِّرًا لِلْخَطَايَا مُحَصِّلًا لِلثَّوَابِ. أَوْ فَإِنَّهُ تَائِبٌ مَتَابًا إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْرِفُ حَقَّ التَّائِبِينَ وَيَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَ، وَالَّذِي يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الْعَرَبِ: لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنَ الْمُضِلِّ الْوَاجِدِ، وَالظَّمْآنِ الْوَارِدِ، وَالْعَقِيمِ الْوَالِدِ، أَوْ: فَإِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى ثَوَابِهِ مَرْجِعًا حَسَنًا وَأَيُّ مَرْجِعٍ.

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[3]

يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَنْفِرُونَ عَنْ مَحَاضِرِ الْكَذَّابِينَ وَمَجَالِسِ الْخَطَّائِينَ فَلَا يَحْضُرُونَهَا وَلَا يَقْرَبُونَهَا، تَنَزُّهًا عَنْ مُخَالَطَةِ الشَّرِّ وَأَهْلِهِ، وَصِيَانَةً لِدِينِهِمْ عَمَّا يَثْلِمُهُ؛ لِأَنَّ: مَشَاهِدَ الْبَاطِلِ شَرِكَةٌ فِيهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي النَّظَّارَةِ إِلَى كُلِّ مَا لَمْ تُسَوِّغْهُ الشَّرِيعَةُ: هُمْ شُرَكَاءُ فَاعِلِيهِ فِي الْإِثْمِ؛ لِأَنَّ حُضُورَهُمْ وَنَظَرَهُمْ دَلِيلُ الرِّضَا بِهِ، وَسَبَبُ وُجُودِهِ، وَالزِّيَادَةِ فِيهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي سَلَّطَ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ اسْتِحْسَانُ النَّظَّارَةِ وَرَغْبَتُهُمْ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَفِي مَوَاعِظِ عِيسَى بْنِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

مَرْيَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ الْمِخطَائِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّورِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: مَجَالِسُ الْبَاطِلِ، وَعَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: اللَّهْوُ وَالْغِنَاءُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَعْيَادُ الْمُشْرِكِينَ. اللَّغْوُ: كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْغَى وَيُطْرَحَ. وَالْمَعْنَى: وَإِذَا مَرُّوا بِأَهْلِ اللَّغْوِ وَالْمُشْتَغِلِينَ بِهِ. مَرُّوا مُعْرِضِينَ عَنْهُمْ، مُكَرِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ التَّوَقُّفِ عَلَيْهِمْ وَالْخَوْضِ مَعَهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[1].

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَمْ تُسَفِّهْهُمُ الْمَعَاصِي. وَقِيلَ: إِذَا سَمِعُوا مِنَ الْكُفَّارِ الشَّتْمَ وَالْأَذَى أَعْرَضُوا وَصَفَحُوا. وَقِيلَ: إِذَا ذَكَرُوا النِّكَاحَ كَنَّوْا عَنْهُ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2]

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾[3] لَيْسَ بِنَفْيٍ لِلْخُرُورِ. وَإِنَّمَا هُوَ إِثْبَاتٌ لَهُ، وَنَفْيٌ لِلصَّمَمِ وَالْعَمَى، كَمَا تَقُولُ: لَا يَلْقَانِي زَيْدٌ مُسَلِّمًا، هُوَ نَفْيٌ لِلسَّلَامِ لَا لِلِّقَاءِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا أَكَبُّوا عَلَيْهَا حِرْصًا عَلَى اسْتِمَاعِهَا، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُذَكِّرِ بِهَا وَهُمْ فِي إِكْبَابِهِمْ عَلَيْهَا، سَامِعُونَ بِآذَانٍ وَاعِيَةٍ، مُبْصِرُونَ بِعُيُونٍ رَاعِيَةٍ، لَا كَالَّذِينَ يُذَكَّرُونَ بِهَا فَتَرَاهُمْ مُكِبِّينَ عَلَيْهَا مُقْبِلِينَ عَلَى مَنْ يُذَكِّرُ بِهَا، مُظْهِرِينَ الْحِرْصَ الشَّدِيدَ عَلَى اسْتِمَاعِهَا، وَهُمْ كَالصُّمِّ الْعُمْيَانِ حَيْثُ لَا يَعُونَهَا وَلَا يَتَبَصَّرُونَ مَا فِيهَا كَالْمُنَافِقِينَ وَأَشْبَاهِهِمْ.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[4]

---

[1] سورة الْقَصَصَ، الآية 5.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُرِئَ: "ذُرِّيَّتَنَا". و"ذُرِّيَّاتِنَا" وَ"قُرَّةَ أَعْيُنٍ"، وَ"قَرَّاتِ أَعْيُنٍ". سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَزْوَاجًا وَأَعْقَابًا عُمَّالًا لِلَّهِ، يُسَرُّونَ بِمَكَانِهِمْ وَتَقَرُّ بِهِمْ عُيُونُهُمْ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: لَيْسَ شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ مُطِيعِينَ لِلَّهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُوَ الْوَلَدُ إِذَا رَآهُ يَكْتُبُ الْفِقْهَ. وَقِيلَ: سَأَلُوا أَنْ يُلْحِقَ اللَّهُ بِهِمْ أَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لِيَتِمَّ لَهُمْ سُرُورُهُمْ. أَرَادَ أَئِمَّةً، فَاكْتَفَى بِالْوَاحِدِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْجِنْسِ وَلِعَدَمِ اللَّبْسِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا﴾[1] أَوْ أَرَادُوا اجْعَلْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِمَامًا. أَوْ أَرَادَ جَمْعَ آمٍّ، كَصَائِمٍ وَصِيَامٍ. أَوْ أَرَادُوا اجْعَلْنَا إِمَامًا وَاحِدًا لِاتِّحَادِنَا وَاتِّفَاقِ مِلَّتِنَا.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرِّيَاسَةَ فِي الدِّينِ يَجِبُ أَنْ تُطْلَبَ وَيُرْغَبَ فِيهَا. وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مِنْ﴾[2] فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾[3] مَا هِيَ؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بَيَانِيَّةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبْ لَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، ثُمَّ بُيِّنَتِ الْقُرَّةُ وَفُسِّرَتْ بِقَوْلِهِ: مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا.

وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ لَهُمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا، أَيْ: أَنْتَ أَسَدٌ، وَأَنْ تَكُونَ ابْتِدَائِيَّةً عَلَى مَعْنَى: هَبْ لَنَا مِنْ جِهَتِهِمْ مَا تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا مِنْ طَاعَةٍ وَصَلَاحٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[4]، فَنَكَّرَ وَقَلَّلَ؟

قُلْتُ: أَمَّا التَّنْكِيرُ فَلِأَجْلِ تَنْكِيرِ الْقُرَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُضَافَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَنْكِيرِهِ إِلَّا بِتَنْكِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبْ لَنَا مِنْهُمْ سُرُورًا وَفَرَحًا.

وَإِنَّمَا قِيلَ: "أَعْيُنٍ" دُونَ عُيُونٍ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَعْيُنَ الْمُتَّقِينَ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عُيُونِ غَيْرِهِمْ.

---

[1] سورة غَافِرَ، الآية 67.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي تَنْكِيرِ ﴿أَعْيُنٍ﴾[2]: أَنَّهَا أَعْيُنٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ أَعْيُنُ الْمُتَّقِينَ.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[3]

الْمُرَادُ: يُجْزَوْنَ الْغُرُفَاتِ، وَهِيَ الْعَلَالِي فِي الْجَنَّةِ، فَوَحَّدَ اقْتِصَارًا عَلَى الْوَاحِدِ الدَّالِّ عَلَى الْجِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[4]، وَقِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: فِي الْغُرْفَةِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾[5] بِصَبْرِهِمْ عَلَى الطَّاعَاتِ، وَعَنِ الشَّهَوَاتِ، وَعَنْ أَذَى الْكُفَّارِ وَمُجَاهَدَتِهِمْ. وَعَلَى الْفَقِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِطْلَاقُهُ لِأَجْلِ الشِّيَاعِ فِي كُلِّ مَصْبُورٍ عَلَيْهِ.

وَقُرِئَ: "يَلْقَوْنَ"، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[6] وَيُلَقَّوْنَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[7].

وَالتَّحِيَّةُ: دُعَاءٌ بِالتَّعْمِيرِ. وَالسَّلَامُ: دُعَاءٌ بِالسَّلَامَةِ، يَعْنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُحَيُّونَهُمْ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ. أَوْ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يُعْطَوْنَ التَّبْقِيَةَ وَالتَّخْلِيدَ مَعَ السَّلَامَةِ عَنْ كُلِّ آفَةٍ.

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا مَعَ أَهْلِ رَحْمَتِكَ، وَارْزُقْنَا مِمَّا تَرْزُقُهُمْ فِي دَارِ رِضْوَانِكَ.

---

[1] سورة سَبَأَ، الآية 13.

[2] سورة سَبَأَ، الآية 37.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة الْإِنْسَانَ، الآية 11.

[7] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 68.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1]

لَمَّا وَصَفَ عِبَادَةَ الْعِبَادِ، وَعَدَّدَ صَالِحَاتِهِمْ وَحَسَنَاتِهِمْ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا، وَوَعَدَهُمُ الرَّفْعَ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ: أَتْبَعَ ذَلِكَ بَيَانَ أَنَّهُ إِنَّمَا اكْتَرَثَ لِأُولَئِكَ وَعَبَأَ بِهِمْ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ وَوَعَدَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ، لِأَجْلِ عِبَادَتِهِمْ، فَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُصَرِّحَ لِلنَّاسِ، وَيَجْزِمَ لَهُمُ الْقَوْلَ بِأَنَّ الِاكْتِرَاثَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، إِنَّمَا هَذِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهَا لَا لِمَعْنًى آخَرَ، وَلَوْلَا عِبَادَتُهُمْ لَمْ يَكْتَرِثْ لَهُمُ الْبَتَّةَ وَلَمْ يُعْتَدَّ بِهِمْ وَلَمْ يَكُونُوا عِنْدَهُ شَيْءٌ يُبَالَى بِهِ. وَالدُّعَاءُ: الْعِبَادَةُ.

وَ﴿مَا﴾[2] مُتَضَمِّنَةٌ لِمَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَهِيَ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَيُّ عِبْءٍ يَعْبَأُ بِكُمْ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ؟! يَعْنِي: أَنَّكُمْ لَا تَسْتَأْهِلُونَ شَيْئًا مِنَ الْعِبْءِ بِكُمْ لَوْلَا عِبَادَتُكُمْ. وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ مَا عَبَأْتُ بِهِ: مَا اعْتَدَدْتُ بِهِ مِنْ فَوَادِحِ هُمُومِي وَمِمَّا يَكُونُ عَبْئًا عَلَيَّ، كَمَا تَقُولُ: مَا اكْتَرَثْتُ لَهُ، أَيْ: مَا اعْتَدَدْتُ بِهِ مِنْ كَوَارِثِي وَمِمَّا يَهُمُّنِي.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي تَأْوِيلِ: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾[3]، أَيَّ وَزْنٍ يَكُونُ لَكُمْ عِنْدَهُ؟ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾[4] نَافِيَةً، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾[5] يَقُولُ: إِذَا أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّ حُكْمِيَ أَنِّي لَا أَعْتَدُّ بِعِبَادِي إِلَّا عِبَادَتَهُمْ، فَقَدْ خَالَفْتُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ حُكْمِي، فَسَوْفَ يُلْزِمُكُمْ أَثَرُ تَكْذِيبِكُمْ حَتَّى يَكُبَّكُمْ فِي النَّارِ.

وَنَظِيرُهُ فِي الْكَلَامِ: أَنْ يَقُولَ الْمَلِكُ لِمَنِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ: إِنَّ مِنْ عَادَتِي أَنْ أُحْسِنَ إِلَى مَنْ يُطِيعُنِي وَيَتَّبِعُ أَمْرِي، فَقَدْ عَصَيْتَ، فَسَوْفَ تَرَى مَا أُحِلُّ بِكَ بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مَا يَصْنَعُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُهُ إِيَّاكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: مَا يَصْنَعُ بِعَذَابِكُمْ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ مَعَهُ آلِهَةً.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَى مَنْ يَتَوَجَّهُ هَذَا الْخِطَابُ؟

قُلْتُ: إِلَى النَّاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَمِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ عَابِدُونَ وَمُكَذِّبُونَ عَاصُونَ، فَخُوطِبُوا بِمَا وَجَدُوا فِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّكْذِيبِ. وَقُرِئَ: "فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ". وَقِيلَ: يَكُونُ الْعَذَابُ لِزَامًا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: هُوَ قَتْلُ يَوْمِ بَدْرٍ، وَأَنَّهُ لُوزِمَ بَيْنَ الْقَتْلَى لِزَامًا، وَقُرِئَ: "لَزَامًا"، بِالْفَتْحِ بِمَعْنَى اللُّزُومِ، كَالثَّبَاتِ وَالثُّبُوتِ.

وَالْوَجْهُ: أَنَّ تَرْكَ اسْمِ كَانَ غَيْرُ مَنْطُوقٍ بِهِ بَعْدَمَا عُلِمَ أَنَّهُ مِمَّا تَوَعَّدَ بِهِ، لِأَجَلِ الْإِبْهَامِ وَتَنَاوَلِ مَا لَا يَكْتَنِهُهُ الْوَصْفُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ نَصَبٍ".

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سورة الشعراء

مَكِّيَّةٌ، إِلَّا قَوْلَهُ ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ [1] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ
وَهِيَ مِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً،
وَفِي رِوَايَةٍ: وَسِتٌّ وَعِشْرُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْوَاقِعَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [2]

﴿طسم﴾ [3] بِتَفْخِيمِ الْأَلِفِ وَإِمَالَتِهَا، وَإِظْهَارِ النُّونِ وَإِدْغَامِهَا.
﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [4]: الظَّاهِرُ إِعْجَازُهُ، وَصِحَّةُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: السُّورَةُ أَوِ الْقُرْآنُ.
وَالْمَعْنَى: آيَاتُ هَذَا الْمُؤَلَّفِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَبْسُوطَةِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [5]

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.

الْبَخْعُ: أَيْ يَبْلُغُ بِالذَّبْحِ الْبَخَاعَ بِالْبَاءِ، وَهُوَ عِرْقٌ مُسْتَبْطِنٌ الْفَقَارَ، وَذَلِكَ أَقْصَى حَدِّ الذَّبْحِ، وَلَعَلَّ لِلْإِشْفَاقِ، يَعْنِي: أَشْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَقْتُلَهَا حَسْرَةً عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ إِسْلَامِ قَوْمِكَ.

﴿أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1] لِئَلَّا يُؤْمِنُوا، أَوْ لِامْتِنَاعِ إِيمَانِهِمْ، أَوْ خِيفَةَ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا.

وَعَنْ قَتَادَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى الْإِضَافَةِ.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2]

أَرَادَ: آيَةً مُلْجِئَةً إِلَى الْإِيمَانِ قَاصِرَةً عَلَيْهِ.

﴿فَظَلَّتْ﴾[3] مَعْطُوفٌ عَلَى الْجَزَاءِ الَّذِي هُوَ نُنَزِّلْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: أَنْزَلْنَا، لَكَانَ صَحِيحًا. وَنَظِيرُهُ: فَأَصَّدَّقْ وَأَكُنْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَصَّدَّقُ. وَقَدْ قُرِئَ: "لَوْ شِئْنَا لَأَنْزَلْنَا". وَقُرِئَ: "فَتَظَلُّ أَعْنَاقُهُمْ".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ مَجِيءُ خَاضِعِينَ خَبَرًا عَنِ الْأَعْنَاقِ؟

قُلْتُ: أَصْلُ الْكَلَامِ: فَظَلُّوا لَهَا خَاضِعِينَ. فَأُقْحِمَتِ الْأَعْنَاقُ لِبَيَانِ مَوْضِعِ الْخُضُوعِ، وَتُرِكَ الْكَلَامُ عَلَى أَصْلِهِ، كَقَوْلِهِ: ذَهَبَتْ أَهْلُ الْيَمَامَةِ، كَأَنَّ الْأَهْلَ غَيْرُ مَذْكُورٍ. أَوْ لَمَّا وُصِفَتْ بِالْخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لِلْعُقَلَاءِ قِيلَ: خَاضِعِينَ، كَقَوْلِهِ –تعالى–: ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾[4]، وَقِيلَ أَعْنَاقُ النَّاسِ: رُؤَسَاؤُهُمْ وَمُقَدِّمُوهُمْ، شُبِّهُوا بِالْأَعْنَاقِ كَمَا قِيلَ لَهُمْ هُمُ الرُّءُوسُ وَالنَّوَاصِي وَالصُّدُورُ.

قَالَ:

فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُـــــــــودِ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية 4.

وَقِيلَ: جَمَاعَاتُ النَّاسِ. يُقَالُ: جَاءَنَا عُنُقٌ مِنَ النَّاسِ لِفَوْجٍ مِنْهُمْ. وَقُرِئَ: "فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا وَفِي بَنِي أُمَيَّةَ. قَالَ: سَتَكُونُ لَنَا عَلَيْهِمُ الدُّولَةُ، فَتَذِلُّ لَنَا أَعْنَاقُهُمْ بَعْدَ صُعُوبَةٍ، وَيَلْحَقُهُمْ هَوَانٌ بَعْدَ عِزَّةٍ.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]

أَيْ: وَمَا يُجَدِّدُ لَهُمُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ مَوْعِظَةً وَتَذْكِيرًا، إِلَّا جَدَّدُوا إِعْرَاضًا عَنْهُ وَكُفْرًا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ خُولِفَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْغَرَضُ وَاحِدٌ، وَهِيَ الْإِعْرَاضُ وَالتَّكْذِيبُ وَالِاسْتِهْزَاءُ؟

قُلْتُ: إِنَّمَا خُولِفَ بَيْنَهَا لِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: حِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الذِّكْرِ فَقَدْ كَذَّبُوا بِهِ، وَحِينَ كَذَّبُوا بِهِ فَقَدْ خَفَّ عِنْدَهُمْ قَدْرُهُ وَصَارَ عُرْضَةً لِلِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ قَابِلًا لِلْحَقِّ مُقْبِلًا عَلَيْهِ، كَانَ مُصَدِّقًا بِهِ لَا مَحَالَةَ وَلَمْ يَظُنَّ بِهِ التَّكْذِيبَ.

وَمَنْ كَانَ مُصَدِّقًا بِهِ، كَانَ مُوَقِّرًا لَهُ، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾[2] وَعِيدٌ لَهُمْ وَإِنْذَارٌ بِأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّهُمْ عَذَابُ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مَا﴾[3] الشَّيْءُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُهُ وَأَحْوَالُهُ الَّتِي كَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[4]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

وَصَفَ الزَّوْجَ، وَهُوَ الصِّنْفُ مِنَ النَّبَاتِ بِالْكَرَمِ، وَالْكَرِيمُ: صِفَةٌ لِكُلِّ مَا يُرْضَى وَيُحْمَدُ فِي بَابِهِ، يُقَالُ: وَجْهٌ كَرِيمٌ، إِذَا رُضِيَ فِي حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ، وَكِتَابٌ كَرِيمٌ: مَرْضِيٌّ فِي مَعَانِيهِ وَفَوَائِدِهِ؛ وَقَالَ:

حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهْ

أَيْ: مِنْ كَوْنِهِ مَرْضِيًّا فِي شَجَاعَتِهِ وَبَأْسِهِ، وَالنَّبَاتُ الْكَرِيمُ: الْمَرْضِيُّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ.

﴿إِنَّ فِي﴾ [1]إِنْبَاتِ تِلْكَ الْأَصْنَافِ ﴿لَآيَةً﴾[2] عَلَى أَنَّ مُنْبِتَهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ، غَيْرُ مَرْجُوٍّ إِيمَانُهُمْ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾[3] فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْكَفَرَةِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ [4]لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْجَمْعِ بَيْنَ كَمْ وَكُلٍّ، وَلَوْ قِيلَ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجٍ كَرِيمٍ؟

قُلْتُ: قَدْ دَلَّ "كُلٌّ" عَلَى الْإِحَاطَةِ بِأَزْوَاجِ النَّبَاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، وَ"كَمْ" عَلَى أَنَّ هَذَا الْمُحِيطَ مُتَكَاثِرٌ مُفْرِطُ الْكَثْرَةِ، فَهَذَا مَعْنَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَبِهِ نَبَّهَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى وَصْفِ الزَّوْجِ بِالْكَرِيمِ؟

قُلْتُ: يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّبَاتَ عَلَى نَوْعَيْنِ: نَافِعٌ وَضَارٌّ، فَذَكَرَ كَثْرَةَ مَا أَنْبَتَ فِي الأرض مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتِ النَّافِعِ، وَخَلَّى ذِكْرَ الضَّارِّ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَعُمَّ جَمِيعَ النَّبَاتِ نَافِعَهُ وَضَارَّهُ. وَيَصِفَهُمَا جَمِيعًا بِالْكَرَمِ وَيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّهُ مَا أَنْبَتَ شَيْئًا إِلَّا وَفِيهِ فَائِدَةٌ؛ لِأَنَّ الْحَكِيمَ لَا يَفْعَلُ فِعْلًا إِلَّا لِغَرَضٍ صَحِيحٍ وَلِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا الْغَافِلُونَ، وَلَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا الْعَاقِلُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَحِينَ ذَكَرَ الْأَزْوَاجَ وَدَلَّ عَلَيْهَا بِكَلِمَتَيِ الْكَثْرَةِ وَالْإِحَاطَةِ، وَكَانَتْ بِحَيْثُ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا عَالِمُ الْغَيْبِ، كَيْفَ قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾[5] وَهَلَّا قَالَ: آيَاتٍ؟

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُشَارًا بِهِ إِلَى مَصْدَرِ أَنْبَتْنَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ فِي الْإِنْبَاتِ لَآيَةً أَيَّ آيَةٍ. وَأَنْ يُرَادَ: أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْأَزْوَاجِ لَآيَةً. وَقَدْ سَبَقَتْ لِهَذَا الْوَجْهِ نَظَائِرُ.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[1]

سَجَّلَ عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ بِأَنْ قَدَّمَ الظَّالِمِينَ، ثُمَّ عَطَفَهُمْ عَلَيْهِمْ عَطْفَ الْبَيَانِ، كَأَنَّ مَعْنَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَتَرْجَمَتَهُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَكَأَنَّهُمَا عِبَارَتَانِ تَعْتَقِبَانِ عَلَى مُؤَدًّى وَاحِدٍ: إِنْ شَاءَ ذَاكِرُهُمْ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَإِنْ شَاءَ عَبَّرَ بِقَوْمِ فِرْعَوْنَ.

وَقَدِ اسْتَحَقُّوا هَذَا الِاسْمَ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ وَشَرَارَتِهِمْ، وَمِنْ جِهَةِ ظُلْمِهِمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ لَهُمْ. قُرِئَ: "أَلَا يَتَّقُونِ" بِكَسْرِ النُّونِ، بِمَعْنَى: أَلَا يَتَّقُونَنِي: فَحُذِفَتِ النُّونُ لِاجْتِمَاعِ النُّونَيْنِ، وَالْيَاءُ لِلِاكْتِفَاءِ بِالْكَسْرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَا تَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾[2]؟

قُلْتُ: هُوَ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ أَتْبَعَهُ عَزَّ وَجَلَّ إِرْسَالَهُ إِلَيْهِمْ لِلْإِنْذَارِ، وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ، تَعْجِيبًا لِمُوسَى مِنْ حَالِهِمُ الَّتِي شَنَعَتْ فِي الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ، وَمِنْ أَمْنِهِمُ الْعَوَاقِبَ وَقِلَّةِ خَوْفِهِمْ وَحَذَرِهِمْ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ "لَا يَتَّقُونَ" حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّالِمِينَ، أَيْ: يَظْلِمُونَ غَيْرَ مُتَّقِينَ اللَّهَ وَعِقَابَهُ، فَأُدْخِلَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَى الْحَالِ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: "أَلَا تَتَّقُونَ": عَلَى الْخِطَابِ. فَعَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، وَجَبْهِهِمْ، وَضَرْبِ وُجُوهِهِمْ بِالْإِنْكَارِ، وَالْغَضَبِ عَلَيْهِمْ، كَمَا تَرَى مَنْ يَشْكُو مَنْ رَكِبَ جِنَايَةً إِلَى بَعْضِ أَخِصَّائِهِ وَالْجَانِي حَاضِرٌ، فَإِذَا انْدَفَعَ فِي الشِّكَايَةِ وَحَرَّ مِزَاجُهُ وَحَمِيَ غَضَبُهُ قَطَعَ مُبَاثَّةَ صَاحِبِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجَانِي يُوَبِّخُهُ وَيُعَنِّفُ بِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ تَتَّقِ اللَّهَ، أَلَمْ تَسْتَحِ مِنَ النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ هَذَا الِالْتِفَاتِ، وَالْخِطَابُ مَعَ مُوسَى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– فِي وَقْتِ الْمُنَاجَاةِ، وَالْمُلْتَفَتُ إِلَيْهِمْ غُيَّبٌ لَا يَشْعُرُونَ؟

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

قُلْتُ: إِجْرَاءُ ذَلِكَ فِي تَكْلِيمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ فِي مَعْنَى إِجْرَائِهِ بِحَضْرَتِهِمْ وَإِلْقَائِهِ إِلَى مَسَامِعِهِمْ، لِأَنَّهُ مُبَلِّغُهُ وَمُنْهِيهِ وَنَاشِرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَهُ فِيهِ لُطْفٌ وَحَثٌّ عَلَى زِيَادَةِ التَّقْوَى، وَكَمْ مِنْ آيَةٍ أُنْزِلَتْ فِي شَأْنِ الْكَافِرِينَ وَفِيهَا أَوْفَرُ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، تَدَبُّرًا لَهَا وَاعْتِبَارًا بِمَوْرِدِهَا.

وَفِي ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾[1] بِالْيَاءِ وَكَسْرِ النُّونِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَلَا يَا نَاسُ اتَّقُونِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلا يَسْجُدُوا﴾[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾[3]

وَيَضِيقُ وَيَنْطَلِقُ، بِالرَّفْعِ؛ لِأَنَّهُمَا مَعْطُوفَانِ عَلَى خَبَرِ إِنَّ، وَبِالنَّصْبِ لِعَطْفِهِمَا عَلَى صِلَةِ أَنْ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى: أَنَّ الرَّفْعَ يُفِيدُ أَنَّ فِيهِ ثَلَاثَ عِلَلٍ: خَوْفُ التَّكْذِيبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَامْتِنَاعُ انْطِلَاقِ اللِّسَانِ، وَالنَّصْبُ عَلَى أَنَّ خَوْفَهُ مُتَعَلِّقٌ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فِي النَّصْبِ تَعْلِيقُ الْخَوْفِ بِالْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، وَفِي جُمْلَتِهَا نَفْيُ انْطِلَاقِ اللِّسَانِ. وَحَقِيقَةُ الْخَوْفِ إِنَّمَا هِيَ غَمٌّ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ لِأَمْرٍ سَيَقَعُ، وَذَلِكَ كَانَ وَاقِعًا، فَكَيْفَ جَازَ تَعْلِيقُ الْخَوْفِ بِهِ؟

قُلْتُ: قَدْ عُلِّقَ الْخَوْفُ بِتَكْذِيبِهِمْ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ، وَالْحُبْسَةُ فِي اللِّسَانِ زَائِدَةٌ عَلَى مَا كَانَ بِهِ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْحُبْسَةَ الَّتِي كَانَتْ بِهِ قَدْ زَالَتْ بِدَعْوَتِهِ. وَقِيلَ: بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ يَسِيرَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: اعْتِذَارُكَ هَذَا يَرُدُّهُ الرَّفْعُ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنِّي خَائِفٌ ضَيِّقُ الصَّدْرِ غَيْرُ مُنْطَلِقِ اللِّسَانِ.

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبْلَ الدَّعْوَةِ وَاسْتِجَابَتِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ الْقَدْرَ الْيَسِيرَ الَّذِي بَقِيَ بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ مَعَ حَلِّ الْعُقْدَةِ مِنْ لِسَانِهِ مِنَ الْفُصَحَاءِ الْمَصَاقِعِ الَّذِينَ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة النَّمْلَ، الآية 25.

[3] سورة، الآية.

أُوتُوا سَلَاطَةَ الْأَلْسِنَةِ وَبَسْطَةَ الْمَقَالِ، وَهَارُونُ كَانَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يُقْرَنَ بِهِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[1].

وَمَعْنَى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾[2] :أَرْسِلْ إِلَيْهِ جِبْرَائِيلَ. وَاجْعَلْهُ نَبِيًّا، وَآزِرْنِي بِهِ، وَاشْدُدْ بِهِ عَضُدِي، وَهَذَا كَلَامٌ مُخْتَصَرٌ، وَقَدْ بَسَطَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَدْ أَحْسَنَ فِي الِاخْتِصَارِ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾[3]، فَجَاءَ بِمَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الِاسْتِنْبَاءِ، وَمِثْلُهُ فِي تَقْصِيرِ الطَّوِيلَةِ وَالْحُسْنِ: قَوْلُهُ –تعالى–:﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾[4]، حَيْثُ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ طَرَفَيِ الْقِصَّةِ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا، وَهُمَا الْإِنْذَارُ وَالتَّدْمِيرُ، وَدَلَّ بِذِكْرِهِمَا عَلَى مَا هُوَ الْغَرَضُ مِنَ الْقِصَّةِ الطَّوِيلَةِ كُلِّهَا، وَهُوَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، فَأَرَادَ اللَّهُ إِلْزَامَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَأَهْلَكَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ لِمُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَنْ يَأْمُرَهُ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَلَا يَتَقَبَّلُهُ بِسَمْعٍ وَطَاعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَتَشَبُّثٍ بِعِلَلٍ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مِنْ وَرَائِهِ؟

قُلْتُ: قَدِ امْتَثَلَ وَتَقَبَّلَ، وَلَكِنَّهُ الْتَمَسَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُعَضِّدَهُ بِأَخِيهِ حَتَّى يَتَعَاوَنَا عَلَى تَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، فَمَهَّدَ قَبْلَ الْتِمَاسِهِ عُذْرَهُ فِيمَا الْتَمَسَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَمْهِيدُ الْعُذْرِ فِي الْتِمَاسِ الْمُعِينِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَمْرِ: لَيْسَ بِتَوَقُّفٍ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَلَا بِتَعَلُّلٍ فِيهِ؛ وَكَفَى بِطَلَبِ الْعَوْنِ دَلِيلًا عَلَى التَّقَبُّلِ لَا عَلَى التَّعَلُّلِ.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[5]

أَرَادَ بِالذَّنْبِ: قَتْلَهُ الْقِبْطِيَّ. وَقِيلَ: كَانَ خَبَّازَ فِرْعَوْنَ وَاسْمُهُ فَاتُونُ. يَعْنِي: وَلَهُمْ عَلَيَّ تَبِعَةُ ذَنْبٍ، وَهِيَ قَوَدُ ذَلِكَ الْقَتْلِ، فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي بِهِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ، أَوْ سُمِّيَ تَبِعَةُ الذَّنْبِ ذَنْبًا، كَمَا سُمِّيَ جَزَاءُ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً.

---

[1] سورة الْقَصَصَ، الآية 34.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 36.

[5] سورة، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ أَبَيْتَ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الثَّلَاثُ عِلَلًا، وَجَعَلْتَهَا تَمْهِيدًا لِلْعُذْرِ فِيمَا الْتَمَسَهُ، فَمَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الرَّابِعَةِ؟

قُلْتُ: هَذِهِ اسْتِدْفَاعٌ لِلْبَلِيَّةِ الْمُتَوَقَّعَةِ. وَفَرْقٌ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ قَبْلَ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَعَلُّلًا؟! وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: مَا جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ كَلِمَةِ الرَّدْعِ، وَالْمَوْعِدِ بِالْكِلَاءَةِ وَالدَّفْعِ.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]

جَمَعَ اللَّهُ لَهُ الِاسْتِجَابَتَيْنِ مَعًا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾[2]، لِأَنَّهُ اسْتَدْفَعَهُ بَلَاءَهُمْ، فَوَعَدَهُ الدَّفْعَ بِرَدْعِهِ عَنِ الْخَوْفِ، وَالْتَمَسَ مِنْهُ الْمُوَازَرَةَ بِأَخِيهِ، فَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاذْهَبَا﴾[3]؟ أَيِ اذْهَبْ أَنْتَ وَالَّذِي طَلَبْتَهُ وَهُوَ هَارُونُ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ ﴿فَاذْهَبَا﴾[4]؟

قُلْتُ: عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿كَلَّا﴾[5]، كَأَنَّهُ قِيلَ: ارْتَدِعْ يَا مُوسَى عَمَّا تَظُنُّ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَهَارُونُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾[6] مِنْ مَجَازِ الْكَلَامِ، يُرِيدُ: أَنَا لَكُمَا وَلِعَدُوِّكُمَا كَالنَّاصِرِ الظَّهِيرِ لَكُمَا عَلَيْهِ إِذَا حَضَرَ وَاسْتَمَعَ مَا يَجْرِي بَيْنَكُمَا وَبَيْنَهُ. فَأُظْهِرُكُمَا وَأُغَلِّبُكُمَا وَأَكْسِرُ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

[6] سورة، الآية.

شَوْكَتَهُ عَنْكُمَا وَأُنَكِّسُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا خَبَرَيْنِ لِأَنَّ، أَوْ يَكُونَ ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ [1]مُسْتَقِرًّا، وَ﴿مَعَكُمْ﴾ [2]لَغْوًا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَعَلْتَ ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ [3]قَرِينَةَ ﴿مَعَكُمْ﴾ [4]فِي كَوْنِهِ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، وَاللَّهُ –تعالى– يُوصَفُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ وَسَامِعٌ؟

قُلْتُ: وَلَكِنْ لَا يُوصَفُ بِالْمُسْتَمِعِ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الِاسْتِمَاعَ جَارٍ مَجْرَى الْإِصْغَاءِ، وَالِاسْتِمَاعُ مِنَ السَّمْعِ بِمَنْزِلَةِ النَّظَرِ مِنَ الرُّؤْيَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [5].

وَيُقَالُ: اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِهِ، وَسَمِعَ حَدِيثَهُ، أَيْ: أَصْغَى إِلَيْهِ وَأَدْرَكَهُ بِحَاسَّةِ السَّمْعِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ–: "مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْبَرَمُ".

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا ثَنَّى الرَّسُولَ كَمَا ثَنَّى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ [6]؟

قُلْتُ: الرَّسُولُ يَكُونُ بِمَعْنَى الْمُرْسَلِ، وَبِمَعْنَى الرِّسَالَةِ، فَجُعِلَ ثَمَّ بِمَعْنَى الْمُرْسَلِ فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ تَثْنِيَتِهِ، وَجُعِلَ هَا هُنَا بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ فَجَازَ التَّسْوِيَةُ فِيهِ –إِذَا وُصِفَ بِهِ– بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالتَّثْنِيَةِ وَالْجَمْعِ، كَمَا يُفْعَلُ بِالصِّفَةِ بِالْمَصَادِرِ، نَحْوَ: صَوْمٌ، وَزَوْرٌ.

قَالَ:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ

فَجَعَلَهُ لِلْجَمَاعَةِ.

وَالشَّاهِدُ فِي الرَّسُولِ بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ قَوْلُهُ:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُـــولِ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة الْجِنِّ، الآية 11.

[6] سورة طَهَ، الآية 47.

وَيَجُوزُ أَنْ يُوَحَّدَ، لِأَنَّ حُكْمَهُمَا لِتَسَانُدِهِمَا وَاتِّفَاقِهِمَا عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاتِّحَادُهُمَا لِذَلِكَ وَلِلْإِخْوَةِ كَانَ حُكْمًا وَاحِدًا، فَكَأَنَّهُمَا رَسُولٌ وَاحِدٌ، أَوْ أُرِيدَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾[1] بِمَعْنَى: أَيْ أَرْسَلَ؛ لِتَضَمُّنِ الرَّسُولِ مَعْنَى الْإِرْسَالِ.

وَتَقُولُ: أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، لِمَا فِي الْإِرْسَالِ مِنْ مَعْنَى الْقَوْلِ، كَمَا فِي الْمُنَادَاةِ وَالْكِتَابَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمَعْنَى هَذَا الْإِرْسَالِ: التَّخْلِيَةُ وَالْإِطْلَاقُ كَقَوْلِكَ: أَرْسِلِ الْبَازِيَ، يُرِيدُ: خَلِّهِمْ يَذْهَبُوا مَعَنَا إِلَى فِلَسْطِينَ، وَكَانَتْ مَسْكَنَهُمَا.

وَيُرْوَى أَنَّهُمَا انْطَلَقَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُمَا سَنَةً، حَتَّى قَالَ الْبَوَّابُ: إِنَّ هَا هُنَا إِنْسَانًا يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: ائْذَنْ لَهُ لَعَلَّنَا نَضْحَكُ مِنْهُ، فَأَدَّيَا إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ، فَعَرَفَ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾[2] حُذِفَ فَأَتَيَا فِرْعَوْنَ فَقَالَا لَهُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ لَا يُشْتَبَهُ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الِاخْتِصَارِ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ.

"الْوَلِيدُ": الصَّبِيُّ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنَ الْوِلَادَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي عَمْرٍو: مِنْ عُمْرِكَ، بِسُكُونِ الْمِيمِ.

﴿سِنِينَ﴾[3]: قِيلَ: مَكَثَ عِنْدَهُمْ ثَلَاثِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: وَكَزَ الْقِبْطِيَّ وَهُوَ ابْنُ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَفَرَّ مِنْهُمْ عَلَى أَثَرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحِيحِ ذَلِكَ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: فِعْلَتَكَ بِالْكَسْرِ، وَهِيَ قِتْلَةُ الْقِبْطِيِّ، لِأَنَّهُ قَتَلَهُ بِالْوَكْزَةِ وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ.

وَأَمَّا الْفِعْلَةُ، فَلِأَنَّهَا كَانَتْ وَكَزَّةً وَاحِدَةً. عَدَّدَ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ مِنْ تَرْبِيَتِهِ وَتَبْلِيغِهِ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، وَوَبَّخَهُ بِمَا جَرَى عَلَى يَدِهِ مِنْ قَتْلِ خَبَّازِهِ، وَعَظَّمَ ذَلِكَ وَفَظَّعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا. أَيْ: قَتَلْتَهُ وَأَنْتَ لِذَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِنِعْمَتِي. أَوْ أَنْتَ إِذْ ذَاكَ مِمَّنْ تُكَفِّرُهُمُ السَّاعَةَ، وَقَدِ افْتَرَى عَلَيْهِ أَوْ جَهِلَ أَمْرَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَايِشُهُمْ بِالتَّقِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ –تعالى– عَاصِمٌ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَنْبِئَهُ مِنْ كُلِّ كَبِيرَةٍ وَمِنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ، فَمَا بَالُ الْكُفْرِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1] حُكْمًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ بِالنِّعَمِ، وَمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ كُفْرَانَ النِّعَمِ لَمْ يَكُنْ قَتْلُ خَوَاصِّ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ بِدْعًا مِنْهُ. أَوْ بِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ لِفِرْعَوْنَ وَإِلَهِيَّتِهِ. أَوْ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ فِي دِينِهِمْ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ آلِهَةٌ يَعْبُدُونَهُمْ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[2]، وَقُرِئَ: "إِلَهَتَكَ"، فَأَجَابَهُ مُوسَى بِأَنَّ تِلْكَ الْفِعْلَةَ إِنَّمَا فَرَطَتْ مِنْهُ، وَهُوَ ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾[3]، أَيِ الْجَاهِلِينَ.

وَقِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: "مِنَ الْجَاهِلِينَ"، مُفَسِّرَةٌ. وَالْمَعْنَى: مِنَ الْفَاعِلِينَ فِعْلَ أُولِي الْجَهْلِ وَالسَّفَهِ. كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[4] أَوِ الْمُخْطِئِينَ كَمَنْ يَقْتُلُ خَطَأً مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ لِلْقَتْلِ. أَوِ الذَّاهِبِينَ عَنِ الصَّوَابِ. أَوِ النَّاسِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[5]، وَكَذَّبَ فِرْعَوْنَ وَدَفَعَ الْوَصْفَ بِالْكُفْرِ عَنْ نَفْسِهِ، وَبَرَّ سَاحَتَهُ، بِأَنَّ وَضْعَ الضَّالِّينَ مَوْضِعَ الْكَافِرِينَ رَبْئًا بِمَحَلِّ مَنْ رُشِّحَ لِلنُّبُوَّةِ عَنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى امْتِنَانِهِ عَلَيْهِ بِالتَّرْبِيَةِ، فَأَبْطَلَهُ مِنْ أَصْلِهِ وَاسْتَأْصَلَهُ مِنْ سَنَخِهِ، وَأَبَى أَنْ يُسَمِّيَ نِعْمَتَهُ إِلَّا نِقْمَةً. حَيْثُ بَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِ تَعْبِيدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِأَنَّ تَعْبِيدَهُمْ وَقَصْدَهُمْ بِذَبْحِ أَبْنَائِهِمْ هُوَ السَّبَبُ فِي حُصُولِهِ عِنْدَهُ وَتَرْبِيَتِهِ، فَكَأَنَّهُ امْتَنَّ عَلَيْهِ بِتَعْبِيدِ قَوْمِهِ إِذَا حَقَّقْتَ، وَتَعْبِيدُهُمْ: تَذْلِيلُهُمْ وَاتِّخَاذُهُمْ عَبِيدًا. يُقَالُ: عَبَّدْتُ الرَّجُلَ وَأَعْبَدْتُهُ، إِذَا اتَّخَذْتُهُ عَبْدًا.

قَالَ:

عَلَامَ يُعَبِّدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعُبْدَانُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَوَابٌ وَجَزَاءٌ مَعًا، وَالْكَلَامُ وَقَعَ جَوَابًا لِفِرْعَوْنَ، فَكَيْفَ وَقَعَ جَزَاءً؟

قُلْتُ: قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾[6] فِيهِ مَعْنَى: إِنَّكَ جَازَيْتَ نِعْمَتِي بِمَا فَعَلْتَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: نَعَمْ فَعَلْتُهَا مُجَازِيًا لَكَ، تَسْلِيمًا لِقَوْلِهِ، لِأَنَّ نِعْمَتَهُ كَانَتْ عِنْدَهُ جَدِيرَةً بِأَنْ تُجَازَى بِنَحْوِ ذَلِكَ الْجَزَاءِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة الْأَعْرَافَ، الآية 127.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية 89.

[5] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 282.

[6] سورة، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَمَعَ الضَّمِيرَ فِي مِنْكُمْ وَخِفْتُكُمْ؟ مَعَ إِفْرَادِهِ فِي تَمُنُّهَا وَعَبَّدْتَ؟

قُلْتُ: الْخَوْفُ وَالْفِرَارُ لَمْ يَكُونَا مِنْهُ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ مِنْهُ وَمِنْ مَلْئِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِقَتْلِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1]. وَأَمَّا الِامْتِنَانُ فَمِنْهُ وَحْدَهُ، وَكَذَلِكَ التَّعْبِيدُ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿تِلْكَ﴾[2] إِشَارَةٌ إِلَى "مَاذَا"، وَ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾[3] مَا مَحَلُّهَا مِنَ الْإِعْرَابِ؟

قُلْتُ: تِلْكَ إِشَارَةٌ إِلَى خَصْلَةٍ شَنْعَاءَ مُبْهَمَةٍ، لَا يَدْرِي مَا هِيَ إِلَّا بِتَفْسِيرِهَا. وَمَحَلُّ ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾[4]: الرَّفْعُ عَطْفَ بَيَانٍ لِتِلْكَ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ﴾[5]، وَالْمَعْنَى: تَعْبِيدُكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَنْ﴾[6] فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ، الْمَعْنَى: إِنَّمَا صَارَتْ نِعْمَةً عَلَيَّ لِأَنَّ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَيْ: لَوْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ لَكَفَلَنِي أَهْلِي وَلَمْ يُلْقُونِي فِي الْيَمِّ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[7]

لَمَّا قَالَ لَهُ بَوَّابُهُ إِنَّ هَا هُنَا مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ لَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[8]، يُرِيدُ: أَيُّ شَيْءٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

وَهَذَا السُّؤَالُ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَيَّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي شُوهِدَتْ وَعُرِفَتْ أَجْنَاسُهَا، فَأَجَابَ بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ أَفْعَالِهِ الْخَاصَّةِ، لِيُعَرِّفَهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ مِمَّا شُوهِدَ وَعُرِفَ مِنَ الْأَجْرَامِ وَالْأَعْرَاضِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ مُخَالِفٌ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

---

[1] سورة الْقَصَصَ، الآية 20.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة الْحِجْرَ، الآية 6.

[6] سورة، الآية.

[7] سورة، الآية.

[8] سورة، الآية.

﴿شَيْءٌ﴾[1]؛ وَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ: أَيَّ شَيْءٍ هُوَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، تَفْتِيشًا عَنْ حَقِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ مَا هِيَ، فَأَجَابَهُ بِأَنَّ الَّذِي إِلَيْهِ سَبِيلٌ وَهُوَ الْكَافِي فِي مَعْرِفَتِهِ مَعْرِفَةُ ثَبَاتِهِ بِصِفَاتِهِ، اسْتِدْلَالًا بِأَفْعَالِهِ الْخَاصَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّفْتِيشُ عَنْ حَقِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ فِطَرِ الْعُقُولِ، فَتَفْتِيشٌ عَمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَالسَّائِلُ عَنْهُ مُتَعَنِّتٌ غَيْرُ طَالِبٍ لِلْحَقِّ.

وَالَّذِي يَلِيقُ بِحَالِ فِرْعَوْنَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ: أَنْ يَكُونَ سُؤَالُهُ هَذَا إِنْكَارًا لِأَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِينَ رَبٌّ سِوَاهُ لِادِّعَائِهِ الْإِلَهِيَّةَ، فَلَمَّا أَجَابَ مُوسَى بِمَا أَجَابَ، عَجِبَ قَوْمُهُ مِنْ جَوَابِهِ حَيْثُ نَسَبَ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى غَيْرِهِ، فَلَمَّا ثَنَّى بِتَقْرِيرِ قَوْلِهِ، جَنَّنَهُ إِلَى قَوْمِهِ وَطَنَّزَ بِهِ، حَيْثُ سَمَّاهُ رَسُولَهُمْ، فَلَمَّا ثَلَّثَ بِتَقْرِيرٍ آخَرَ: احْتَدَّ وَاحْتَدَمَ وَقَالَ: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْوَجْهِ الْأَخِيرِ.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[3] عَلَى التَّثْنِيَةِ، وَالْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ مَجْمُوعٌ؟

قُلْتُ: أُرِيدَ وَمَا بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، فَعَلَ بِالْمُضْمَرِ مَا فَعَلَ بِالظَّاهِرِ مَنْ قَالَ:

فِي الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؟ وَأَيْنَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الْإِيقَانُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ إِنْ كَانَ يُرْجَى مِنْكُمُ الْإِيقَانُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَيْهِ النَّظَرُ الصَّحِيحُ نَفَعَكُمْ هَذَا الْجَوَابُ، وَإِلَّا لَمْ يَنْفَعْ. أَوْ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بِشَيْءٍ قَطُّ، فَهَذَا أَوْلَى مَا تُوقِنُونَ بِهِ، لِظُهُورِهِ وَإِنَارَةِ دَلِيلِهِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية **11**.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَنْ كَانَ حَوْلَهُ؟

قُلْتُ: أَشْرَافُ قَوْمِهِ قِيلَ: كَانُوا خَمْسَمِائَةِ رَجُلٍ عَلَيْهِمُ الْأَسَاوِرُ وَكَانَتْ لِلْمُلُوكِ خَاصَّةً.

فَإِنْ قُلْتَ: ذِكْرُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا قَدِ اسْتَوْعَبَ بِهِ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا، مَا مَعْنَى ذِكْرِهِمْ وَذِكْرِ آبَائِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَذِكْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟

قُلْتُ: قَدْ عَمَّمَ أَوَّلًا، ثُمَّ خَصَّصَ مِنَ الْعَامِّ لِلْبَيَانِ أَنْفُسَهُمْ وَآبَاءَهُمْ، لِأَنَّ أَقْرَبَ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْعَاقِلِ نَفْسُهُ وَمَنْ وُلِدَ مِنْهُ، وَمَا شَاهَدَ وَعَايَنَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى الصَّانِعِ، وَالنَّاقِلِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ وَحَالٍ إِلَى حَالٍ مِنْ وَقْتِ مِيلَادِهِ إِلَى وَقْتِ وَفَاتِهِ، ثُمَّ خَصَّصَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، لِأَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ أَحَدِ الْخَافِقَيْنِ وَغُرُوبَهَا فِي الْآخَرِ عَلَى تَقْدِيرٍ مُسْتَقِيمٍ فِي فُصُولِ السَّنَةِ وَحِسَابٍ مُسْتَوٍ مِنْ أَظْهَرِ مَا اسْتُدِلَّ بِهِ؛ وَلِظُهُورِهِ انْتَقَلَ إِلَى الِاحْتِجَاجِ بِهِ خَلِيلُ اللَّهِ، عَنِ الِاحْتِجَاجِ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى نَمْرُوذَ بْنِ كَنْعَانَ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ. وَقُرِئَ: "رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ". الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ أَوَّلًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[2] وَآخِرًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]؟

قُلْتُ: لَايَنَ أَوَّلًا، فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ شِدَّةَ الشَّكِيمَةِ فِي الْعِنَادِ وَقِلَّةَ الْإِصْغَاءِ إِلَى عَرْضِ الْحُجَجِ خَاشَنَ وَعَارَضَ: إِنَّ رَسُولَكُمْ لَمَجْنُونٌ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[5]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَمْ يَكُنْ: لَأَسْجُنَنَّكَ، أَخْصَرَ مِنْ "أَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ" وَمُؤَدِّيًا مُؤَدَّاهُ؟

قُلْتُ: أَمَّا أَخْصَرُ فَنَعَمْ، وَأَمَّا مُؤَدٍّ مُؤَدَّاهُ فَلَا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَأَجْعَلَنَّكَ وَاحِدًا مِمَّنْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ فِي سُجُونِي. وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَأْخُذَ مَنْ يُرِيدُ سَجْنَهُ فَيَطْرَحَهُ فِي هُوَّةٍ ذَاهِبَةٍ فِي الأرض بَعِيدَةِ الْعُمْقِ فَرْدًا لَا يُبْصِرُ فِيهَا وَلَا يَسْمَعُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَأَشَدُّ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ﴾[2] وَاوُ الْحَالِ دَخَلَتْ عَلَيْهَا هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ. مَعْنَاهُ: أَتَفْعَلُ بِي ذَلِكَ وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ، أَيْ: جَائِيًا بِالْمُعْجِزَةِ؟

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3] أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِالْمُعْجِزَةِ إِلَّا الصَّادِقُ فِي دَعْوَاهُ، لِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَصْدِيقٌ مِنَ اللَّهِ لِمُدَّعِي النُّبُوَّةِ، وَالْحَكِيمُ لَا يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ مِثْلَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ هَذَا، وَخَفِيَ عَلَى نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ حَيْثُ جَوَّزُوا الْقَبِيحَ عَلَى اللَّهِ –تعالى– حَتَّى لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُ الْكَاذِبِينَ بِالْمُعْجِزَاتِ.

وَتَقْدِيرُهُ: إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَاكَ أَتَيْتَ بِهِ، فَحَذَفَ الْجَزَاءَ، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِتْيَانِ بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[4]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

﴿ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[1] ظَاهِرُ الثُّعْبَانِيَّةِ، لَا شَيْءٌ يُشْبِهُ الثُّعْبَانَ، كَمَا تَكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمُزَوَّرَةُ بِالشَّعْوَذَةِ وَالسِّحْرِ.

وَرُوِيَ أَنَّهَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً ارْتَفَعَتْ فِي السَّمَاءِ قَدْرَ مِيلٍ، ثُمَّ انْحَطَّتْ مُقْبِلَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، وَجَعَلَتْ تَقُولُ: يَا مُوسَى، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ.

وَيَقُولُ فِرْعَوْنُ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَّا أَخَذْتَهَا، فَأَخَذَهَا فَعَادَتْ عَصَا ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾[2] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَيَاضَهَا كَانَ شَيْئًا يَجْتَمِعُ النَّظَّارَةُ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ، لِخُرُوجِهِ عَنِ الْعَادَةِ، وَكَانَ بَيَاضًا نُورِيًّا.

رُوِيَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَبْصَرَ الْآيَةَ الْأُولَى قَالَ: فَهَلْ غَيْرُهَا؟ فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: يَدُكَ فَمَا فِيهَا؟ فَأَدْخَلَهَا فِي إِبِطِهِ ثُمَّ نَزَعَهَا وَلَهَا شُعَاعٌ يَكَادُ يُغْشِي الْأَبْصَارَ وَيَسُدُّ الْأُفُقَ.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْعَامِلُ فِي ﴿حَوْلَهُ﴾[4]؟

قُلْتُ: هُوَ مَنْصُوبٌ نَصْبَيْنِ: نَصْبٌ فِي اللَّفْظِ، وَنَصْبٌ فِي الْمَحَلِّ؛ فَالْعَامِلُ فِي النَّصْبِ اللَّفْظِيِّ مَا يُقَدَّرُ فِي الظَّرْفِ، وَالْعَامِلُ فِي النَّصْبِ الْمَحَلِّيِّ وَهُوَ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ: قَالَ: وَلَقَدْ تَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ لَمَّا أَبْصَرَ الْآيَتَيْنِ، وَبَقِيَ لَا يَدْرِي أَيَّ طَرَفَيْهِ أَطْوَفُ، حَتَّى ذَلَّ عَنْهُ ذِكْرُ دَعْوَى الْإِلَهِيَّةِ، وَحَطَّ عَنْ مَنْكِبَيْهِ كِبْرِيَاءَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ، وَانْتَفَخَ سَحَرُهُ خَوْفًا وَفَرَقًا؛ وَبَلَغَتْ بِهِ الِاسْتِكَانَةُ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ هُمْ بِزَعْمِهِ عَبِيدَهُ، وَهُوَ إِلَهُهُمْ: أَنْ طَفِقَ يُؤَامِرُهُمْ وَيَعْتَرِفُ لَهُمْ بِمَا حَذِرَ مِنْهُ وَتَوَقَّعَهُ وَأَحَسَّ بِهِ مِنْ جِهَةِ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَغَلَبَتِهِ عَلَى مُلْكِهِ وَأَرْضِهِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1] قَوْلٌ بَاهِتٌ إِذَا غُلِبَ وَمُتَمَحِّلٌ إِذَا أُلْزِمَ ﴿تَأْمُرُونَ﴾ [2] مِنَ الْمُؤَامَرَةِ، وَهِيَ الْمُشَاوَرَةُ. أَوْ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ: جَعَلَ الْعَبِيدَ آمِرِينَ وَرَبَّهُمْ مَأْمُورًا لِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ الدَّهَشِ وَالْحَيْرَةِ.

وَ"مَاذَا" مَنْصُوبٌ: إِمَّا لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[3]

قُرِئَ: "أَرْجِئْهُ وَأَرْجِهِ": بِالْهَمْزِ وَالتَّخْفِيفِ، وَهُمَا لُغَتَانِ، يُقَالُ: أَرْجَأْتُهُ وَأَرْجَيْتُهُ، إِذَا أَخَّرْتُهُ. وَمِنْهُ: الْمُرْجِئَةُ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَقْطَعُونَ بِوَعِيدِ الْفُسَّاقِ وَيَقُولُونَ: هُمْ مُرْجَئُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ.

وَالْمَعْنَى: أَخِّرْهُ وَمُنَاظَرَتَهُ لِوَقْتِ اجْتِمَاعِ السَّحَرَةِ. وَقِيلَ: احْبِسْهُ ﴿حَاشِرِينَ﴾ [4]شَرْطًا يَحْشُرُونَ السَّحَرَةَ، وَعَارَضُوا قَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ، بِقَوْلِهِمْ: بِكُلِّ سَحَّارٍ، فَجَاؤُوا بِكَلِمَةِ الْإِحَاطَةِ وَصِفَةِ الْمُبَالَغَةِ، لِيُطَامِنُوا مِنْ نَفْسِهِ وَيُسَكِّنُوا بَعْضَ قَلَقِهِ.

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: بِكُلِّ سَاحِرٍ.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[5]

الْيَوْمُ الْمَعْلُومُ: يَوْمُ الزِّينَةِ، وَمِيقَاتُهُ: وَقْتُ الضُّحَى، لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي وَقَّتَهُ لَهُمْ مُوسَى –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ– مِنْ يَوْمِ الزِّينَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.

ضُحًى﴾[1]؛ وَالْمِيقَاتُ: مَا وُقِّتَ بِهِ، أَيْ حُدِّدَ مِنْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ. وَمِنْهُ: مَوَاقِيتُ الْإِحْرَامِ ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾[2] اسْتِبْطَاءٌ لَهُمْ فِي الِاجْتِمَاعِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: اسْتِعْجَالُهُمْ وَاسْتِحْثَاثُهُمْ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِغُلَامِهِ: هَلْ أَنْتَ مُنْطَلِقٌ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَرِّكَ مِنْهُ وَيَحُثَّهُ عَلَى الِانْطِلَاقِ، كَأَنَّمَا يُخَيَّلُ لَهُ أَنَّ النَّاسَ قَدِ انْطَلَقُوا وَهُوَ وَاقِفٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بْنَ مِخْرَاقِ؟

يُرِيدُ: ابْعَثْهُ إِلَيْنَا سَرِيعًا وَلَا تُبْطِئْ بِهِ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾[3]، أَيْ فِي دِينِهِمْ إِنْ غَلَبُوا مُوسَى، وَلَا نَتَّبِعُ مُوسَى فِي دِينِهِ. وَلَيْسَ غَرَضُهُمْ بِاتِّبَاعِ السَّحَرَةِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ الْكُلِّيُّ: أَنْ لَا يَتَّبِعُوا مُوسَى، فَسَاقُوا الْكَلَامَ مَسَاقَ الْكِنَايَةِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[4]

وَقُرِئَ: "نَعِمْ"، بِالْكَسْرِ، وَهُمَا لُغَتَانِ.

وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾[5] فِي مَعْنَى جَزَاءِ الشَّرْطِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[6] مَعْطُوفًا عَلَيْهِ وَمُدْخَلًا فِي حُكْمِهِ، دَخَلَتْ إِذًا قَارَّةً فِي مَكَانِهَا الَّذِي تَقْتَضِيهِ مِنَ الْجَوَابِ وَالْجَزَاءِ، وَعَدَهُمْ أَنْ يَجْمَعَ لَهُمْ إِلَى الثَّوَابِ عَلَى سِحْرِهِمُ الَّذِي قَدَّرُوا أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ بِهِ مُوسَى: الْقُرْبَةَ عِنْدَهُ وَالزُّلْفَى.

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.
[6] سورة، الآية.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[1]

أَقْسَمُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ وَهِيَ مِنْ أَيْمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَكَذَا كُلُّ حَلِفٍ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَصِحُّ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا الْحَلِفُ بِاللَّهِ مُعَلَّقًا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَاتِهِ، كَقَوْلِكَ: بِاللَّهِ، وَالرَّحْمَنِ، وَرَبِّي، وَرَبِّ الْعَرْشِ، وَعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ، وَجَلَالِ اللَّهِ، وَعَظَمَةِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ،" وَلَقَدِ اسْتَحْدَثَ النَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ فِي إِسْلَامِهِمْ جَاهِلِيَّةً نُسِيَتْ لَهَا الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَوْ أَقْسَمَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ كُلِّهَا وَصِفَاتِهِ عَلَى شَيْءٍ: لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَلَمْ يُعْتَدَّ بِهَا حَتَّى يُقْسِمَ بِرَأْسِ سُلْطَانِهِ، فَإِذَا أَقْسَمَ بِهِ فَتِلْكَ عِنْدَهُمْ جَهْدُ الْيَمِينِ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَهَا حَلِفٌ لِحَالِفٍ.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[2]

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾[3]: مَا يَقْلِبُونَهُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ بِسِحْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ، وَيُزَوِّرُونَهُ فَيُخَيِّلُونَ فِي حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ أَنَّهَا حَيَّاتٌ تَسْعَى، بِالتَّمْوِيهِ عَلَى النَّاظِرَيْنِ أَوْ إِفْكِهِمْ: سَمَّى تِلْكَ الْأَشْيَاءَ إِفْكًا مُبَالَغَةً.

رُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ يَكُ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى سِحْرًا فَلَنْ يَغْلِبَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَذَفَ عَصَاهُ فَتَلَقَّفَتْ مَا أَتَوْا بِهِ، عَلِمُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَآمَنُوا.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَصْبَحُوا سَحَرَةً وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْخُرُورِ بِالْإِلْقَاءِ، لِأَنَّهُ ذُكِرَ مَعَ الْإِلْقَاءَاتِ، فَسَلَكَ بِهِ طَرِيقَ الْمُشَاكَلَةِ. وَفِيهِ أَيْضًا مَعَ مُرَاعَاةِ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

الْمُشَاكَلَةِ أَنَّهُمْ حِينَ رَأَوْا مَا رَأَوْا، لَمْ يَتَمَالَكُوا أَنْ رَمَوْا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى الأرض سَاجِدِينَ، كَأَنَّهُمْ أُخِذُوا فَطُرِحُوا طَرْحًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَاعِلُ الْإِلْقَاءِ مَا هُوَ لَوْ صُرِّحَ بِهِ؟

قُلْتُ: هُوَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا خَوَّلَهُمْ مِنَ التَّوْفِيقِ. أَوْ إِيمَانُهُمْ. أَوْ مَا عَايَنُوا مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ.

وَلَكَ أَنْ لَا تُقَدِّرَ فَاعِلًا، لِأَنَّ "أُلْقُوا" بِمَعْنَى خَرُّوا وَسَقَطُوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[1] عَطْفُ بَيَانٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَعْزِلُوهُ. وَمَعْنَى إِضَافَتِهِ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ: أَنَّهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ هَذَانِ، وَالَّذِي أَجْرَى عَلَى أَيْدِيهِمَا مَا أَجْرَى.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[3]، أَيْ وَبَالَ مَا فَعَلْتُمْ.

﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]

الضُّرُّ وَالضَّيْرُ وَالضَّوْرُ: وَاحِدٌ، أَرَادُوا: لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ، بَلْ لَنَا فِيهِ أَعْظَمُ النَّفْعِ لِمَا يَحْصُلُ لَنَا فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِ لِوَجْهِ اللَّهِ، مِنْ تَكْفِيرِ الْخَطَايَا وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ، مَعَ الْأَعْوَاضِ الْكَثِيرَةِ. أَوْ لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِيمَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ مِنَ الْقَتْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الِانْقِلَابِ إِلَى رَبِّنَا بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ. وَالْقَتْلُ أَهْوَنُ أَسْبَابِهِ وَأَرْجَاهَا. أَوْ لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِي قَتْلِكَ،

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَنَا انْقَلَبْنَا إِلَى رَبِّنَا انْقِلَابَ مَنْ يَطْمَعُ فِي مَغْفِرَتِهِ وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ، لِمَا رَزَقَنَا مِنَ السَّبْقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَخَبَرُ "لَا" مَحْذُوفٌ.

وَالْمَعْنَى: لَا ضَيْرَ فِي ذَلِكَ، أَوْ عَلَيْنَا ﴿أَنْ كُنَّا﴾[1] مَعْنَاهُ: لِأَنْ كُنَّا، وَكَانُوا أَوَّلَ جَمَاعَةٍ مُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، أَوْ مِنْ رَعِيَّةِ فِرْعَوْنَ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْمَشْهَدِ. وَقُرِئَ: "إِنْ كُنَّا"، بِالْكَسْرِ وَهُوَ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي يَجِيءُ بِهِ الْمُدِلُّ بِأَمْرِهِ، الْمُتَحَقِّقُ لِصِحَّتِهِ، وَهُمْ كَانُوا مُتَحَقِّقِينَ أَنَّهُمْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْعَامِلِ لِمَنْ يُؤَخِّرُ جُعْلَهُ: إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ فَوَفِّنِي حَقِّيَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾[2]، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا إِلَّا لِذَلِكَ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[3]

قُرِئَ: "أَسْرِ"، بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ وَوَصْلِهَا. وَسِرْ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾[4] عَلَّلَ الْأَمْرَ بِالْإِسْرَاعِ بِاتِّبَاعِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ آثَارَهُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنِّي بَنَيْتُ تَدْبِيرَ أَمْرِكُمْ وَأَمْرِهِمْ عَلَى أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتْبَعُوكُمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا مَدْخَلَكُمْ، وَيَسْلُكُوا مَسْلَكَكُمْ مِنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ، فَأُطْبِقُهُ عَلَيْهِمْ فَأُهْلِكُهُمْ.

وَرُوِيَ: أَنَّهُ مَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَلَدٌ، فَاشْتَغَلُوا بِمَوْتَاهُمْ حَتَّى خَرَجَ مُوسَى بِقَوْمِهِ.

وَرُوِيَ: أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى: أَنْ أَجْمِعْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كُلَّ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ فِي بَيْتٍ، ثُمَّ اذْبَحُوا الْجِدَاءَ وَاضْرِبُوا بِدِمَائِهَا عَلَى أَبْوَابِكُمْ، فَإِنِّي سَآمُرُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بَيْتًا

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة الْمُمْتَحِنَةَ، الآية 1.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

عَلَى بَابِهِ دَمٌ، وَسَآمُرُهُمْ بِقَتْلِ أَبْكَارِ الْقِبْطِ، وَاخْبِزُوا خُبْزًا فَطِيرًا فَإِنَّهُ أَسْرَعُ لَكُمْ، ثُمَّ أَسْرِ بِعِبَادِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ فَيَأْتِيَكَ أَمْرِي، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي أَثَرِهِ أَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسَمِائَةَ أَلْفِ مَلِكٍ مُسَوَّرٍ، مَعَ كُلِّ مَلِكٍ أَلْفٌ، وَخَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، وَكَانَتْ مُقَدِّمَتُهُ سَبْعَمِائَةِ أَلْفٍ: كُلُّ رَجُلٍ عَلَى حِصَانٍ وَعَلَى رَأْسِهِ بَيْضَةٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي أَلْفِ أَلْفِ حِصَانٍ سِوَى الْإِنَاثِ فَلِذَلِكَ اسْتَقَلَّ قَوْمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفًا، وَسَمَّاهُمْ شِرْذِمَةً قَلِيلِينَ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾[1] مَحْكِيٌّ بَعْدَ قَوْلٍ مُضْمَرٍ. وَالشِّرْذِمَةُ: الطَّائِفَةُ الْقَلِيلَةُ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ: ثَوْبٌ شَرَاذِمُ، لِلَّذِي بَلِيَ وَتَقَطَّعُ قِطَعًا، ذَكَّرَهُمْ بِالِاسْمِ الدَّالِّ عَلَى الْقِلَّةِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَلِيلًا بِالْوَصْفِ، ثُمَّ جَمَعَ الْقَلِيلَ فَجَعَلَ كُلَّ حِزْبٍ مِنْهُمْ قَلِيلًا، وَاخْتَارَ جَمْعَ السَّلَامَةِ الَّذِي هُوَ لِلْقِلَّةِ، وَقَدْ يُجْمَعُ الْقَلِيلُ عَلَى أَقَلِّهِ وَقَلَّلَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْقِلَّةِ: الذِّلَّةُ وَالْقَمَاءَةُ، وَلَا يُرِيدُ قِلَّةَ الْعَدَدِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لِقِلَّتِهِمْ لَا يُبَالِي بِهِمْ وَلَا يَتَوَقَّعُ غَلَبَتَهُمْ وَعُلُوَّهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ أَفْعَالًا تَغِيظُنَا وَتُضَيِّقُ صُدُورَنَا، وَنَحْنُ قَوْمٌ مِنْ عَادَتِنَا التَّيَقُّظُ وَالْحَذَرُ وَاسْتِعْمَالُ الْحَزْمِ فِي الْأُمُورِ، فَإِذَا خَرَجَ عَلَيْنَا خَارِجٌ، سَارَعْنَا إِلَى حَسْمِ فَسَادِهِ؛ وَهَذِهِ مَعَاذِيرُ، اعْتَذَرَ بِهَا إِلَى أَهْلِ الْمَدَائِنِ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ بِهِ مَا يُكْسَرُ مِنْ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ. وَقُرِئَ: "حَذِرُونِ" وَ"حَاذِرُونَ" وَ"حَادِرُونَ"، بِالدَّالِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ. فَالْحَذِرُ: الْيَقِظُ، وَالْحَاذِرُ: الَّذِي يُجَدِّدُ حَذَرَهُ. وَقِيلَ: الْمُؤَدِّي فِي السِّلَاحِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَذَرًا وَاحْتِيَاطًا لِنَفْسِهِ. وَالْحَادِرُ: السَّمِينُ الْقَوِيُّ.

قَالَ:

أُحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأَبْغَضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ

أَرَادَ أَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ أَشِدَّاءُ. وَقِيلَ مُدَجَّجُونَ فِي السِّلَاحِ، قَدْ كَسَبَهُمْ ذَلِكَ حَذَارَةً فِي أَجْسَامِهِمْ.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾[2]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: سَمَّاهَا كُنُوزًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يُنْفِقُوا مِنْهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ. وَالْمَقَامُ: الْمَكَانُ، يُرِيدُ: الْمَنَازِلَ الْحَسَنَةَ وَالْمَجَالِسَ الْبَهِيَّةَ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: الْمَنَابِرُ. وَقِيلَ السِّرُّ فِي الْحِجَالِ.

﴿كَذَلِكَ﴾[1] يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ: النَّصْبُ عَلَى أَخْرَجْنَاهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ. وَالْجَرُّ عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِمَقَامٍ، أَيْ: مَقَامٌ كَرِيمٌ مِثْلُ ذَلِكَ الْمَقَامِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ. وَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيِ: الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾[2]: فَلَحِقُوهُمْ، وَقُرِئَ: "فَاتَّبَعُوهُمْ"، ﴿مُشْرِقِينَ﴾ [3]دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ الشُّرُوقِ، مِنْ شَرِقَتِ الشَّمْسُ شُرُوقًا إِذَا طَلَعَتْ.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[4]

﴿سَيَهْدِينِ﴾ [5]طَرِيقَ النَّجَاةِ مِنْ إِدْرَاكِهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ. وَقُرِئَ: "فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ". "إِنَّا لَمُدَّرَكُونَ": بِتَشْدِيدِ الدَّالِ وَكَسْرِ الرَّاءِ، مِنَ ادَّرَكَ الشَّيْءُ إِذَا تَتَابَعَ فَفَنِيَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[6]، قَالَ الْحَسَنُ: جَهِلُوا عِلْمَ الْآخِرَةِ.

وَفِي مَعْنَاهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

أَبَعْدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا أُرَجِّي الْحَيَاةَ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ؟

وَالْمَعْنَى: إِنَّا لَمُتَتَابِعُونَ فِي الْهَلَاكِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

[6] سورة النَّمْلَ، الآية 6.

الْفِرْقُ: الْجُزْءُ الْمُتَفَرِّقُ مِنْهُ. وَقُرِئَ: "كُلُّ فِلْقٍ"، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وَالطَّوْدُ: الْجَبَلُ الْعَظِيمُ الْمُنْطَادُ فِي السَّمَاءِ "وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ" حَيْثُ انْفَلَقَ الْبَحْرُ "الْآخِرِينَ" قَوْمَ فِرْعَوْنَ، أَيْ: قَرَّبْنَاهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَوْ أَدْنَيْنَا بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَجَمَعْنَاهُمْ حَتَّى لَا يَنْجُوَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، أَوْ قَدَّمْنَاهُمْ إِلَى الْبَحْرِ، وَقُرِئَ: "وَأَزْلَقْنَا"، بِالْقَافِ، أَيْ: أَزَلَلْنَا أَقْدَامَهُمْ، وَالْمَعْنَى: أَذْهَبْنَا عِزَّهُمْ؛ كَقَوْلِهِ:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ طَرِيقَهُمْ فِي الْبَحْرِ عَلَى خِلَافِ مَا جَعَلَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَبَسًا فَيَزْلِقُهُمْ فِيهِ.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ أَنَّ جِبْرِيلَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– كَانَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لِيَلْحَقْ آخِرُكُمْ بِأَوَّلِكُمْ. وَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْطَ، فَيَقُولُ: رُوَيْدَكُمْ يَلْحَقْ آخِرُكُمْ. ف

لَمَّا انْتَهَى مُوسَى إِلَى الْبَحْرِ قَالَ لَهُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْ مُوسَى: أَيْنَ أَمَرْتَ فَهَذَا الْبَحْرُ أَمَامَكَ وَقَدْ غَشِيَكَ آلُ فِرْعَوْنَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِالْبَحْرِ وَلَا يَدْرِي مُوسَى مَا يَصْنَعُ، فَأَوْحَى اللَّهُ –تعالى– إِلَيْهِ: أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ. فَضَرَبَهُ فَصَارَ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا: لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ.

وَرُوِيَ أَنَّ يُوشَعَ قَالَ: يَا كَلِيمَ اللَّهِ، أَيْنَ أَمَرْتَ فَقَدْ غَشِيَنَا فِرْعَوْنُ وَالْبَحْرُ أَمَامَنَا؟ قَالَ مُوسَى: هَا هُنَا. فَخَاضَ يُوشَعُ الْمَاءَ وَضَرَبَ مُوسَى بِعَصَاهُ الْبَحْرَ فَدَخَلُوا. وَرُوِيَ أَنَّ مُوسَى قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: يَا مَنْ كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُكَوِّنُ لِكُلِّ شَيْءٍ. وَالْكَائِنُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ. وَيُقَالُ: هَذَا الْبَحْرُ هُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ.

وَقِيلَ: هُوَ بَحْرٌ مِنْ وَرَاءِ مِصْرَ، يُقَالُ لَهُ: أَسَافَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾[1] أَيَّةَ آيَةٍ، وَآيَةً لَا تُوصَفُ، وَقَدْ عَايَنَهَا النَّاسُ وَشَاعَ أَمْرُهَا فِيهِمْ، وَمَا تَنَبَّهَ عَلَيْهَا أَكْثَرُهُمْ، وَلَا آمَنَ بِاللَّهِ.

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ: الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ مُوسَى الْمَخْصُوصِينَ بِالْإِنْجَاءِ قَدْ سَأَلُوهُ بَقَرَةً يَعْبُدُونَهَا، وَاتَّخَذُوا الْعِجْلَ، وَطَلَبُوا رُؤْيَةَ اللَّهِ جَهْرَةً.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾[2] الْمُنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، ﴿الرَّحِيمُ﴾[3] بِأَوْلِيَائِهِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[1]

كَانَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– يَعْلَمُ أَنَّهُمْ عَبَدَةُ أَصْنَامٍ؛ وَلَكِنَّهُ سَأَلَهُمْ لِيُرِيَهُمْ أَنَّ مَا يَعْبُدُونَهُ لَيْسَ مِنَ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ فِي شَيْءٍ، كَمَا تَقُولُ لِلتَّاجِرِ: مَا مَالُكَ؟ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَالَهُ الرَّقِيقُ، ثُمَّ تَقُولُ لَهُ: الرَّقِيقُ جَمَالٌ وَلَيْسَ بِمَالٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾[2] سُؤَالٌ عَنِ الْمَعْبُودِ فَحَسْبُ، فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولُوا: أَصْنَامًا، كَقَوْلِهِ –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ﴾[3]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾[4]، ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾[5].

قُلْتُ: هَؤُلَاءِ قَدْ جَاءُوا بِقِصَّةٍ أَمْرُهِمْ كَامِلَةً كَالْمُبْتَهِجِينَ بِهَا وَالْمُفْتَخِرِينَ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَى جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى مَا قَصَدُوهُ مِنْ إِظْهَارِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الِابْتِهَاجِ وَالِافْتِخَارِ.

أَلَا تَرَاهُمْ كَيْفَ عَطَفُوا عَلَى قَوْلِهِمْ نَعْبُدُ، ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[6]، وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى زِيَادَةِ نَعْبُدُ وَحْدَهُ؟!

وَمِثَالُهُ: أَنْ تَقُولَ لِبَعْضِ الشُّطَّارِ: مَا تَلْبَسُ فِي بِلَادِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلْبَسُ الْبُرْدَ الْأَتْحَمِيَّ، فَأَجُرُّ ذَيْلَهُ بَيْنَ جَوَارِي الْحَيِّ. وَإِنَّمَا قَالُوا: نَظَلُّ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[7]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 219.

[4] سورة سَبَأ، الآية 23.

[5] سورة النَّحْل، الآية 30.

[6] سورة، الآية.

[7] سورة، الآية.

لَا بُدَّ فِي ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾[1] مِنْ تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ، مَعْنَاهُ: هَلْ يَسْمَعُونَ دُعَاءَكُمْ.

وَقَرَأَ قَتَادَةُ: "يُسْمِعُونَكُمْ"، أَيْ: هَلْ يُسْمِعُونَكُمُ الْجَوَابَ عَنْ دُعَائِكُمْ؟ وَهَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ؟ وَجَاءَ مُضَارِعًا مَعَ إِيقَاعِهِ فِي إِذْ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ.

وَمَعْنَاهُ: اسْتَحْضِرُوا الْأَحْوَالَ الْمَاضِيَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تَدْعُونَهَا فِيهَا، وَقُولُوا هَلْ سَمِعُوا أَوْ أَسْمَعُوا قَطُّ. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّبْكِيتِ.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[2]

مَا أَجَابُوهُ بِجَوَابِ الْمُقَلِّدِينَ لِآبَائِهِمْ قَالَ لَهُمْ: رَقُّوا أَمْرَ تَقْلِيدِكُمْ هَذَا إِلَى أَقْصَى غَايَاتِهِ وَهِيَ عِبَادَةُ الْأَقْدَمِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّ التَّقَدُّمَ وَالْأَوَّلِيَّةَ لَا يَكُونُ بُرْهَانًا عَلَى الصِّحَّةِ، وَالْبَاطِلُ لَا يَنْقَلِبُ حَقًّا بِالْقِدَمِ، وَمَا عِبَادَةُ مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ إِلَّا عِبَادَةُ أَعْدَاءٍ لَهُ.

وَمَعْنَى الْعَدَاوَةِ: قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[3]، وَلِأَنَّ الْمُغْرِي عَلَى عِبَادَتِهَا أَعْدَى أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿عَدُوٌّ لِي﴾[4] تَصْوِيرًا لِلْمَسْأَلَةِ فِي نَفْسِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِي فَرَأَيْتُ عِبَادَتِي لَهَا عِبَادَةً لِلْعَدُوِّ، فَاجْتَنَبْتُهَا وَآثَرْتُ عِبَادَةَ مَنِ الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْهُ، وَأَرَاهُمْ بِذَلِكَ أَنَّهَا نَصِيحَةٌ نَصَحَ بِهَا نَفْسَهُ أَوَّلًا وَبَنَى عَلَيْهَا تَدْبِيرَ أَمْرِهِ، لِيَنْظُرُوا فَيَقُولُوا: مَا نَصَحَنَا إِبْرَاهِيمُ إِلَّا بِمَا نَصَحَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا أَرَادَ لَنَا إِلَّا مَا أَرَادَ لِرُوحِهِ، لِيَكُونَ أَدْعَى لَهُمْ إِلَى الْقَبُولِ، وَأَبْعَثَ عَلَى الِاسْتِمَاعِ مِنْهُ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة مَرْيَمَ، الآية 82.

[4] سورة، الآية.

وَلَوْ قَالَ: فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لَكُمْ لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ، وَلِأَنَّهُ دَخَلَ فِي بَابٍ مِنَ التَّعْرِيضِ، وَقَدْ يَبْلُغُ التَّعْرِيضُ لِلنَّصُوحِ مَا لَا يَبْلُغُهُ التَّصْرِيحُ؛ لِأَنَّهُ يَتَأَمَّلُ فِيهِ، فَرُبَّمَا قَادَهُ التَّأَمُّلُ إِلَى التَّقَبُّلِ.

وَمِنْهُ مَا يُحْكَى عَنِ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُ– أَنَّ رَجُلًا وَاجَهَهُ بِشَيْءٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ بِحَيْثُ أَنْتَ، لَاحْتَجْتُ إِلَى أَدَبٍ، وَسَمِعَ رَجُلٌ نَاسًا يَتَحَدَّثُونَ فِي الْحِجْرِ فَقَالَ: مَا هُوَ بِبَيْتِي وَلَا بَيْتِكُمْ.

وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ: يَجِيئَانِ فِي مَعْنَى الْوَحْدَةِ وَالْجَمَاعَةِ.

قَالَ:

وَقَوْمٍ عَلَيَّ ذَوِي مِرَّةٍ أَرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقَـــا

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[1] شُبِّهَا بِالْمَصَادِرِ لِلْمُوَازَنَةِ، كَالْقَبُولِ وَالْوَلُوعِ، وَالْحَنِينِ وَالصَّهِيلِ ﴿إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2] اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[3]، يُرِيدُ أَنَّهُ حِينَ أَتَمَّ خَلْقَهُ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، عَقَّبَ ذَلِكَ هِدَايَتَهُ الْمُتَّصِلَةَ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ إِلَى كُلِّ مَا يُصْلِحُهُ وَيَعْنِيهِ، وَإِلَّا فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى أَنْ يَغْتَذِيَ بِالدَّمِ فِي الْبَطْنِ امْتِصَاصًا، وَمَنْ هَدَاهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الثَّدْيِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ مَكَانِهِ، وَمَنْ هَدَاهُ لِكَيْفِيَّةِ الِارْتِضَاعِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هِدَايَاتِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ.

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مَرِضْتُ﴾[4] دُونَ "أَمْرَضَنِي" لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَسْبَابِ الْمَرَضِ يَحْدُثُ بِتَفْرِيطٍ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مَطَاعِمِهِ وَمَشَارِبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: لَوْ قَبِلَ لَأَكْثَرَ الْمَوْتَى: مَا سَبَبُ آجَالِكُمْ؟ لَقَالُوا: التَّخَمُ. وَقُرِئَ: "خَطَايَايَ"، وَالْمُرَادُ: مَا يَنْدُرُ مِنْهُ مِنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مُخْتَارُونَ عَلَى الْعَالَمِينَ.

وَقِيلَ: هِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[5]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[6]، وَقَوْلُهُ لِسَارَّةَ: هِيَ أُخْتِي. وَمَا هِيَ إِلَّا مَعَارِيضُ كَلَامٍ، وَتَخْيِيلَاتٌ لِلْكَفَرَةِ، وَلَيْسَتْ بِخَطَايَا يَطْلُبُ لَهَا الِاسْتِغْفَارَ.

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.
[6] سورة، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا لَمْ يَنْدُرْ مِنْهُمْ إِلَّا الصَّغَائِرُ وَهِيَ تَقَعُ مُكَفَّرَةً، فَمَا لَهُ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ خَطِيئَةً أَوْ خَطَايَا وَطَمَعَ أَنْ تُغْفَرَ لَهُ؟

قُلْتُ: الْجَوَابُ مَا سَبَقَ لِي: أَنَّ اسْتِغْفَارَ الْأَنْبِيَاءِ تَوَاضُعٌ مِنْهُمْ لِرَبِّهِمْ، وَهَضْمٌ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿أَطْمَعُ﴾ [1]وَلَمْ يَجْزِمِ الْقَوْلَ بِالْمَغْفِرَةِ. وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِأُمَمِهِمْ، وَلِيَكُونَ لُطْفًا لَهُمْ فِي اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَالْحَذَرِ مِنْهَا، وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِمَّا يَفْرُطُ مِنْهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عَلَّقَ مَغْفِرَةَ الْخَطِيئَةِ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا تُغْفَرُ فِي الدُّنْيَا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَثَرَهَا يَتَبَيَّنُ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ الْآنَ خَفِيٌّ لَا يُعْلَمُ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]

الْحُكْمُ: الْحِكْمَةُ، أَوِ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ. وَقِيلَ: النُّبُوَّةُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ذُو حِكْمَةٍ وَذُو حُكْمٍ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ.

وَالْإِلْحَاقُ بِالصَّالِحِينَ: أَنْ يُوَفِّقَهُ لِعَمَلٍ يَنْتَظِمُ بِهِ فِي جُمْلَتِهِمْ، أَوْ يَجْمَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ.

وَلَقَدْ أَجَابَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]، وَالْإِخْزَاءُ: مِنَ الْخِزْيِ، وَهُوَ الْهَوَانُ. وَمِنَ الْخَزَايَةِ، وَهِيَ الْحَيَاءُ.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ نَحْوِ اسْتِغْفَارِهِمْ مِمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ مَغْفُورٌ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

وَفِي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ [1]ضَمِيرُ الْعِبَادِ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ. أَوْ ضَمِيرُ الضَّالِّينَ. وَأَنْ يُجْعَلَ مِنْ جُمْلَةِ الِاسْتِغْفَارِ لِأَبِيهِ، يَعْنِي: وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُ الضَّالُّونَ وَأَبِي فِيهِمْ ﴿إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ [2] إِلَّا حَالَ مَنْ أَتَى اللَّهَ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [3]، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

وَمَا ثَوَابُهُ إِلَّا السَّيْفُ.

وَبَيَانُهُ: أَنْ يُقَالَ لَكَ: هَلْ لِزَيْدٍ مَالٌ وَبَنُونَ؟ فَتَقُولُ: مَالُهُ وَبَنُوهُ: سَلَامَةُ قَلْبِهِ، تُرِيدُ نَفْيَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ عَنْهُ، وَإِثْبَاتَ سَلَامَةِ الْقَلْبِ لَهُ بَدَلًا عَنْ ذَلِكَ.

وَإِنْ شِئْتَ حَمَلْتَ الْكَلَامَ عَلَى الْمَعْنَى وَجَعَلْتَ الْمَالَ وَالْبَنِينَ فِي مَعْنَى الْغِنَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ غِنًى إِلَّا غِنَى مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ؛ لِأَنَّ غِنَى الرَّجُلِ فِي دِينِهِ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، كَمَا أَنَّ غِنَاهُ فِي دُنْيَاهُ بِمَالِهِ وَبَنِيهِ.

وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعًا، وَلَا بُدَّ لَكَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُضَافِ وَهُوَ الْحَالُ، وَالْمُرَادُ بِهَا سَلَامَةُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ، حَتَّى يُؤَوَّلَ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ لَا يَنْفَعَانِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ سَلَامَةُ الْقَلْبِ. وَلَوْ لَمْ يُقَدَّرِ الْمُضَافُ، لَمْ يَتَحَصَّلْ لِلِاسْتِثْنَاءِ مَعْنًى. وَقَدْ جَعَلَ "مَنْ" مَفْعُولًا لِيَنْفَعَ، أَيْ: لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا رَجُلًا سَلِمَ قَلْبُهُ مَعَ مَالِهِ حَيْثُ أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَعَ بَنِيهِ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الدِّينِ وَعَلَّمَهُمُ الشَّرَائِعَ.

وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا ﴿إِلّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [4] مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ. وَمَعْنَى سَلَامَةِ الْقَلْبِ: سَلَامَتُهُ مِنْ آفَاتِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَمِمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ –تعالى– بِهِ خَلِيلَهُ وَنَبَّهَ عَلَى جَلَالَةِ مَحَلِّهِ فِي الْإِخْلَاصِ: أَنْ حَكَى اسْتِثْنَاءَ هَذَا حِكَايَةَ رَاضٍ بِإِصَابَتِهِ فِيهِ.

ثُمَّ جَعَلَهُ صِفَةً لَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [5]، وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: تَفْسِيرُ بَعْضِهِمُ السَّلِيمَ بِاللَّدِيغِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة الصَّافَّاتِ، الآيتان 83–84.

وَقَوْلٌ آخَرُ: هُوَ الَّذِي سَلَّمَ وَسَلِمَ وَأَسْلَمَ وَسَالَمَ وَاسْتَسْلَمَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا رَتَّبَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَلَامَهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، حِينَ سَأَلَهُمْ أَوَّلًا عَمَّا يَعْبُدُونَ سُؤَالَ مُقَرِّرٍ لَا مُسْتَفْهِمٍ، ثُمَّ أَنْحَى عَلَى آلِهَتِهِمْ فَأَبْطَلَ أَمْرَهَا بِأَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ آبَاءَهُمُ الْأَقْدَمِينَ، فَكَسَّرَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً فَضْلًا أَنْ يَكُونَ حُجَّةً، ثُمَّ صَوَّرَ الْمَسْأَلَةَ فِي نَفْسِهِ دُونَهُمْ حَتَّى تَخَلَّصَ مِنْهَا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ -عَزَّ وَعَلَا-، فَعَظَّمَ شَأْنَهُ وَعَدَّدَ نِعْمَتَهُ، مِنْ لَدُنْ خَلْقِهِ وَإِنْشَائِهِ إِلَى حِينِ وَفَاتِهِ، مَعَ مَا يُرْجَى فِي الْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَتِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ أَنْ دَعَاهُ بِدَعَوَاتِ الْمُخْلَصِينَ، وَابْتَهَلَ إِلَيْهِ ابْتِهَالَ الْأَوَّابِينَ، ثُمَّ وَصَلَهُ بِذِكْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَثَوَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَمَا يَدْفَعُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ مِنَ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَتَمَنِّي الْكَرَّةِ إِلَى الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[1]

الْجَنَّةُ تَكُونُ قَرِيبَةً مِنْ مَوْقِفِ السُّعَدَاءِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَغْتَبِطُونَ بِأَنَّهُمُ الْمَحْشُورُونَ إِلَيْهَا، وَالنَّارُ تَكُونُ بَارِزَةً مَكْشُوفَةً لِلْأَشْقِيَاءِ بِمَرْأًى مِنْهُمْ، يَتَحَسَّرُونَ عَلَى أَنَّهُمُ الْمَسُوقُونَ إِلَيْهَا: قَالَ اللَّهُ -تعالى-: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[2]، وَقَالَ:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]: يُجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْغُمُومُ كُلُّهَا وَالْحَسَرَاتُ، فَتُجْعَلُ النَّارُ بِمَرْأًى مِنْهُمْ، فَيَهْلَكُونَ غَمًّا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَيُوَبَّخُونَ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَيْنَ آلِهَتُكُمْ؟ هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ بِنُصْرَتِهِمْ لَكُمْ. أَوْ هَلْ يَنْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِانْتِصَارِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَآلِهَتَهُمْ وَقُودُ النَّارِ،

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة ق، الآية 31.

[3] سورة الْمُلْكَ، الآية 27.

وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ﴾[1]، أَيِ الْآلِهَةُ، ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ [2]وَعَبَدَتُهُمُ الَّذِينَ بَرَزَتْ لَهُمُ الْجَحِيمُ.

وَالْكَبْكَبَةُ: تَكْرِيرُ الْكَبِّ، جَعَلَ التَّكْرِيرَ فِي اللَّفْظِ دَلِيلًا عَلَى التَّكْرِيرِ فِي الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ يَنْكَبُّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّى يَسْتَقِرَّ فِي قَعْرِهَا، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْهَا يَا خَيْرَ مُسْتَجَارٍ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ [3] شَيَاطِينُهُ، أَوْ مُتَّبِعُوهُ مِنْ عُصَاةِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[4]

يَجُوزُ أَنْ يُنْطِقَ اللَّهُ الْأَصْنَامَ حَتَّى يَصِحَّ التَّقَاوُلُ وَالتَّخَاصُمُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْرِيَ ذَلِكَ بَيْنَ الْعُصَاةِ وَالشَّيَاطِينِ. وَالْمُرَادُ بِالْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ: رُؤَسَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[5].

وَعَنِ السُّدِّيِّ: الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ اقْتَدَيْنَا بِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: إِبْلِيسُ، وَابْنُ آدَمَ الْقَاتِلُ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ وَأَنْوَاعَ الْمَعَاصِي، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾[6]، كَمَا نَرَى الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ شُفَعَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، ﴿وَلا صَدِيقٍ﴾[7]، كَمَا تَرَى لَهُمْ أَصْدِقَاءَ، لِأَنَّهُ لَا يَتَصَادَقُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة الْأَحْزَابَ، الآية 67.

[6] سورة، الآية.

[7] سورة، الآية.

وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَبَيْنَهُمُ التَّعَادِي وَالتَّبَاغُضُ، قَالَ اللَّهُ -تعالى-: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾[1]، أَوْ: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ مِنَ الَّذِينَ كُنَّا نَعُدُّهُمْ شُفَعَاءَ وَأَصْدِقَاءَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَصْنَامِهِمْ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ لَهُمُ الْأَصْدِقَاءُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ. أَوْ أَرَادُوا أَنَّهُمْ وَقَعُوا فِي مَهْلَكَةٍ عَلِمُوا أَنَّ الشُّفَعَاءَ وَالْأَصْدِقَاءَ لَا يَنْفَعُونَهُمْ وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ، فَقَصَدُوا بِنَفْيِهِمْ نَفْيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ مِنَ النَّفْعِ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَنْفَعُ: حُكْمُهُ حُكْمُ الْمَعْدُومِ. وَالْحَمِيمُ مِنَ الِاحْتِمَامِ، وَهُوَ الِاهْتِمَامُ، وَهُوَ الَّذِي يُهِمُّهُ مَا يُهِمُّكَ. أَوْ مِنَ الْحَامَّةِ بِمَعْنَى الْخَاصَّةِ، وَهُوَ الصَّدِيقُ الْخَاصُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَمَعَ الشَّافِعَ وَوَحَّدَ الصَّدِيقَ؟

قُلْتُ: لِكَثْرَةِ الشُّفَعَاءِ فِي الْعَادَةِ وَقِلَّةِ الصَّدِيقِ أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا امْتُحِنَ بِإِرْهَاقِ ظَالِمٍ نَهَضَتْ جَمَاعَةٌ وَافِرَةٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ لِشَفَاعَتِهِ، رَحْمَةً لَهُ وَحِسْبَةً، وَإِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ بِأَكْثَرِهِمْ مَعْرِفَةٌ.

وَأَمَّا الصَّدِيقُ، وَهُوَ الصَّادِقُ -فِي وِدَادِكَ الَّذِي يُهِمُّهُ مَا أَهَمَّكَ-، فَأَعَزُّ مِنْ بِيضِ الْأَنُوقِ.

وَعَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الصَّدِيقِ، فَقَالَ: اسْمٌ لَا مَعْنَى لَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالصَّدِيقِ: الْجَمْعَ. الْكَرَّةُ: الرَّجْعَةُ إِلَى الدُّنْيَا. وَلَوْ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ فِي مَعْنَى التَّمَنِّي، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَيْتَ لَنَا كَرَّةً. وَذَلِكَ لِمَا بَيْنَ مَعْنَى "لَوْ" وَ "لَيْتَ" مِنَ التَّلَاقِي فِي التَّقْدِيرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَلَى أَصْلِهَا وَيُحْذَفُ الْجَوَابُ، وَهُوَ: لَفَعَلْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]

الْقَوْمُ: مُؤَنَّثَةٌ، وَتَصْغِيرُهَا قُوَيْمَةٌ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 67.

[2] سورة، الآية.

وَنَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، وَالْمُرَادُ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: قَوْلُكَ: فُلَانٌ يَرْكَبُ الدَّوَابَّ وَيَلْبَسُ الْبُرُودَ، وَمَا لَهُ إِلَّا دَابَّةٌ وَبُرْدٌ. قِيلَ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ، يُرِيدُونَ: يَا وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

كَانَ أَمِينًا فِيهِمْ مَشْهُورًا بِالْأَمَانَةِ، كَمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فِي قُرَيْشٍ.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [2]فِي نُصْحِي لَكُمْ وَفِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿عَلَيْهِ﴾[3] عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَعَلَى مَا أَنَا فِيهِ، يَعْنِي: دُعَاءَهُ وَنُصْحَهُ.

وَمَعْنَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[4]: فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي طَاعَتِي، وَكَرَّرَهُ لِيُؤَكِّدَهُ عَلَيْهِمْ وَيُقَرِّرُهُ فِي نُفُوسِهِمْ، مَعَ تَعْلِيقِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِعِلَّةٍ، جَعَلَ عِلَّةَ الْأَوَّلِ كَوْنَهُ أَمِينًا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَفِي الثَّانِي حَسْمَ طَمَعِهِ عَنْهُمْ.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[5]

وَقُرِئَ: "وَأَتْبَاعِكَ"، جَمْعُ تَابِعٍ، كَشَاهِدٍ وَأَشْهَادٍ. أَوْ جَمْعُ تَبَعٍ، كَبَطَلٍ وَأَبْطَالٍ. وَالْوَاوُ لِلْحَالِ. وَحَقُّهَا أَنْ يُضْمَرَ بَعْدَهَا "قَدْ" فِي: وَاتَّبَعَكَ.

وَقَدْ جَمَعَ الْأَرْذَلَ عَلَى الصِّحَّةِ وَعَلَى التَّكْسِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[6] وَالرَّذَالَةُ وَالنَّذَالَةُ: الْخِسَّةُ وَالدَّنَاءَةُ.

وَإِنَّمَا اسْتَرْذَلُوهُمْ لِاتِّضَاعِ نَسَبِهِمْ وَقِلَّةِ نَصِيبِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا. وَقِيلَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ الدَّنِيَّةِ كَالْحِيَاكَةِ وَالْحِجَامَةِ. وَالصِّنَاعَةُ لَا تُزْرِي بِالدِّيَانَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَا زَالَتْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ كَذَلِكَ، حَتَّى صَارَتْ مِنْ سِمَاتِهِمْ وَأَمَارَاتِهِمْ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

[6] سورة هُودَ، الآية 27.

أَلَا تَرَى إِلَى هِرَقْلَ حِينَ سَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ أَتْبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا قَالَ: ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَأَرَاذِلُهُمْ قَالَ: مَا زَالَتْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ كَذَلِكَ؟!

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: هُمُ الْغَاغَةُ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: الْحَاكَةُ وَالْأَسَاكِفَةُ.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ: السَّفَلَةُ.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]

﴿وَمَا عِلْمِي﴾[2]: وَأَيُّ شَيْءٍ عِلْمِي؟ وَالْمُرَادُ: انْتِفَاءُ عِلْمِهِ بِإِخْلَاصِ أَعْمَالِهِمْ لِلَّهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى سِرِّ أَمْرِهِمْ وَبَاطِنِهِ. وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا، لِأَنَّهُمْ قَدْ طَعَنُوا -مَعَ اسْتِرْذَالِهِمْ- فِي إِيمَانِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا عَلَى نَظَرٍ وَبَصِيرَةٍ، وَإِنَّمَا آمَنُوا هَوًى وَبَدِيهَةً، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَغَابَى لَهُمْ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-. فَيُفَسِّرُ قَوْلَهُمُ الْأَرْذَلِينَ، بِمَا هُوَ الرَّذَالَةُ عِنْدَهُ، مِنْ سُوءِ الْأَعْمَالِ وَفَسَادِ الْعَقَائِدِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا هُوَ الرَّذَالَةُ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ يَبْنِي جَوَابَهُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَا عَلَيَّ إِلَّا اعْتِبَارُ الظَّوَاهِرِ، دُونَ التَّفْتِيشِ عَنْ أَسْرَارِهِمْ وَالشَّقِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ عَمَلٌ سَيِّئٌ، فَاللَّهُ مُحَاسِبُهُمْ وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَمَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ لَا مُحَاسِبٌ وَلَا مُجَازٍ.

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾[4] ذَلِكَ، وَلَكِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ فَتَنْسَاقُونَ مَعَ الْجَهْلِ حَيْثُ سَيَّرَكُمْ، وَقَصَدَ بِذَلِكَ رَدَّ اعْتِقَادِهِمْ وَإِنْكَارَ أَنْ يُسَمَّى الْمُؤْمِنُ رَذْلًا، وَإِنْ كَانَ أَفْقَرَ النَّاسِ وَأَوْضَعَهُمْ نَسَبًا، فَإِنَّ الْغَنِيَّ غَنِيُّ الدِّينِ، وَالنَّسَبَ نَسَبُ التَّقْوَى.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، يُرِيدُ: لَيْسَ مِنْ شَأْنِي أَنْ أَتَّبِعَ شَهَوَاتِكُمْ وَأُطَيِّبَ نُفُوسَكُمْ بِطَرْدِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَحَّ إِيمَانُهُمْ طَمَعًا فِي إِيمَانِكُمْ وَمَا عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أُنْذِرَكُمْ إِنْذَارًا بَيِّنًا بِالْبُرْهَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، ثُمَّ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشَأْنِكُمْ.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2]

لَيْسَ هَذَا بِإِخْبَارٍ بِالتَّكْذِيبِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنِّي لَا أَدْعُوكَ عَلَيْهِمْ لَمَّا غَاظُونِي وَآذَوْنِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكَ لِأَجْلِكَ وَلِأَجَلِ دِينِكَ، وَلِأَنَّهُمْ كَذَّبُونِي فِي وَحْيِكَ وَرِسَالَتِكَ، فَاحْكُمْ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾[3].

وَالْفَتَاحَةُ: الْحُكُومَةُ. وَالْفَتَّاحُ: الْحَاكِمُ؛ لِأَنَّهُ يَفْتَحُ الْمُسْتَغْلَقَ كَمَا سُمِّيَ فَيْصَلًا، لِأَنَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخُصُومَاتِ.

الْفُلْكُ: السَّفِينَةُ. وَجَمْعُهُ فَلَكٌ: قَالَ اللَّهُ –تعالى–: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[4]؛ فَالْوَاحِدُ بِوَزْنِ قُفْلٍ، وَالْجَمْعُ بِوَزْنِ أَسَدٍ، كَسَرُوا فِعْلًا عَلَى فِعْلٍ، كَمَا كَسَرُوا فِعْلًا عَلَى فِعْلٍ، لِأَنَّهُمَا أَخَوَانِ فِي قَوْلِكَ: الْعُرْبُ وَالْعَرَبُ، وَالرُّشْدُ وَالرَّشَدُ. فَقَالُوا: أُسْدٌ وَأَسَدٌ، وَفُلْكٌ وَفَلَكٌ.

وَنَظِيرُهُ: بَعِيرٌ هَجَّانٌ، وَإِبِلٌ هَجَّانٌ. وَدِرْعٌ دِلَاصٌ، وَدُرُوعٌ دِلَاصٌ، فَالْوَاحِدُ بِوَزْنِ كِنَازٍ، وَالْجَمْعُ بِوَزْنِ كِرَامٍ. وَالْمَشْحُونُ: الْمَمْلُوءُ. يُقَالُ: شَحَنَهَا عَلَيْهِمْ خَيْلًا وَرِجَالًا.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]

قُرِئَ: "بِكُلِّ رِيعٍ"، بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ: وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ.

قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ عَلْسٍ:

فِي الْآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْـــــلُ

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: كَمْ رِيعُ أَرْضِكَ؟ وَهُوَ ارْتِفَاعُهَا. وَالْآيَةُ: الْعَلَمُ وَكَانُوا مِمَّنْ يَهْتَدُونَ بِالنُّجُومِ فِي أَسْفَارِهِمْ. فَاتَّخَذُوا فِي طُرُقِهِمْ أَعْلَامًا طُوَالًا فَعَبَثُوا بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهَا بِالنُّجُومِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: بَنَوْا بِكُلِّ رِيعٍ بُرُوجَ الْحَمَامِ. وَالْمَصَانِعُ: مَآخِذُ الْمَاءِ. وَقِيلَ: الْقُصُورُ الْمُشَيَّدَةُ وَالْحُصُونُ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[2]: تَرْجُونَ الْخُلُودَ فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَشَبَّهَ حَالُكُمْ حَالَ مَنْ يُخَلَّدُ.

وَفِي حَرْفِ أُبَيٍّ: كَأَنَّكُمْ. وَقُرِئَ: "تُخْلَدُونَ" بِضَمِّ التَّاءِ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾[3] بِسَوْطٍ أَوْ سَيْفٍ كَانَ ذَلِكَ ظُلْمًا وَعُلُوًّا، وَقِيلَ: الْجَبَّارُ الَّذِي يَقْتُلُ وَيَضْرِبُ عَلَى الْغَضَبِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: تُبَادِرُونَ تَعْجِيلَ الْعَذَابِ، لَا تَتَثَبَّتُونَ مُتَفَكِّرِينَ فِي الْعَوَاقِبِ.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

بَالَغَ فِي تَنْبِيهِهِمْ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ، حَيْثُ أَجْمَلَهَا ثُمَّ فَصَّلَهَا مُسْتَشْهِدًا بِعِلْمِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَيْقَظَهُمْ عَنْ سِنَةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْهَا حِينَ قَالَ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ثُمَّ عَدَّدَهَا عَلَيْهِمْ وَعَرَّفَهُمُ الْمُنْعِمَ بِتَعْدِيدِ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَمَا قَدَرَ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَاتَّقُوهُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تعالى–: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَرَنَ الْبَنِينَ بِالْأَنْعَامِ؟

قُلْتُ: هُمُ الَّذِينَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى حِفْظِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ قِيلَ: ﴿أَوَعَظْتَ﴾ [4]أَوْ لَمْ تَعِظْ، كَانَ أَخْصَرَ. وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. قُلْتُ: لَيْسَ الْمَعْنَى بِوَاحِدٍ وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ، لِأَنَّ الْمُرَادَ: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَفَعَلْتَ هَذَا الْفِعْلَ الَّذِي هُوَ الْوَعْظُ، أَوْ لَمْ تَكُنْ أَصْلًا مِنْ أَهْلِهِ وَمُبَاشِرِيهِ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي قِلَّةِ اعْتِدَادِهِمْ بِوَعْظِهِ، مِنْ قَوْلِكَ: أَمْ لَمْ تَعِظْ. مَنْ قَرَأَ: خَلَقُ الْأَوَّلِينَ بِالْفَتْحِ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ اخْتِلَاقُ الْأَوَّلِينَ وَتَخَرُّصُهُمْ، كَمَا قَالُوا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. أَوْ مَا خَلَقَنَا هَذَا إِلَّا خَلَقُ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، نَحْيَا كَمَا حَيَوْا، وَنَمُوتُ كَمَا مَاتُوا، وَلَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ.

وَمَنْ قَرَأَ: "خُلُقُ "، بِضَمَّتَيْنِ، وَبِوَاحِدَةٍ، فَمَعْنَاهُ، مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَعَادَتُهُمْ، كَانُوا يَدِينُونَهُ وَيَعْتَقِدُونَهُ، وَنَحْنُ بِهِمْ مُقْتَدُونَ. أَوْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْإِعَادَةِ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهَا النَّاسُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ أَوْ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ مِنَ الْكَذِبِ إِلَّا عَادَةُ الْأَوَّلِينَ، كَانُوا يُلَفِّقُونَ مِثْلَهُ وَيُسَطِّرُونَهُ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 30.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[1]

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾[2] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنْكَارًا لِأَنْ يُتْرَكُوا مُخَلَّدِينَ فِي نَعِيمِهِمْ لَا يَزَالُونَ عَنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ تَذْكِيرًا بِالنِّعْمَةِ فِي تَخْلِيَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَمَا يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ مِنَ الْجَنَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَعَ الْأَمْنِ وَالدَّعَةِ ﴿فِي مَا هَا هُنَا﴾[3] فِي الَّذِي اسْتَقَرَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ النَّعِيمِ.

ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[4]، وَهَذَا أَيْضًا إِجْمَالٌ ثُمَّ تَفْصِيلٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: "وَنَخْلٍ" بَعْدَ قَوْلِهِ: فِي جَنَّاتٍ، وَالْجَنَّةُ تَتَنَاوَلُ النَّخْلَ أَوَّلَ شَيْءٍ كَمَا يَتَنَاوَلُ النِّعَمُ الْإِبِلَ كَذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْأَزْوَاجِ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَذْكُرُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا النَّخِيلَ؛ كَمَا يَذْكُرُونَ النِّعَمَ وَلَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْإِبِلَ.

قَالَ زُهَيْرٌ:

تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَـــــــــــا

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَنْ يَخُصَّ النَّخْلَ بِإِفْرَادِهِ بَعْدَ دُخُولِهِ فِي جُمْلَةِ سَائِرِ الشَّجَرِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى انْفِرَادِهِ عَنْهَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهَا،

– وَأَنْ يُرِيدَ بِالْجَنَّاتِ: غَيْرَهَا مِنَ الشَّجَرِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ يَصْلُحُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يُعْطَفُ عَلَيْهَا النَّخْلُ.

الطَّلْعَةُ: هِيَ الَّتِي تَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ. كَنَصْلِ السَّيْفِ فِي جَوْفِهِ شَمَارِيخُ الْقِنْوِ.

وَالْقِنْوُ: اسْمٌ لِلْخَارِجِ مِنَ الْجِذْعِ كَمَا هُوَ بِعُرْجُونِهِ وَشَمَارِيخِهِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

وَالْهَضِيمُ: اللَّطِيفُ الضَّامِرُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: كُشْحٌ هَضِيمٌ، وَطَلْعُ إِنَاثِ النَّخْلِ فِيهِ لُطْفٌ، وَفِي طَلْعِ الْفَحَاحِيلِ جَفَاءٌ، وَكَذَلِكَ طَلْعُ الْبَرْنِيِّ أَلْطَفُ مِنْ طَلْعِ اللَّوْنِ، فَذَكَّرَهُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي أَنْ وَهَبَ لَهُمْ أَجْوَدَ النَّخْلِ وَأَنْفَعَهُ: لِأَنَّ الْإِنَاثَ وَلَّادَةُ التَّمْرِ.

وَالْبَرْنِيُّ: أَجْوَدُ التَّمْرِ وَأَطْيَبُهُ وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ نَخِيلَهُمْ أَصَابَتْ جَوْدَةَ الْمَنَابِتِ وَسِعَةَ الْمَاءِ. وَسَلِمَتْ مِنَ الْعَاهَاتِ، فَحَمَلَتِ الْحَمْلَ الْكَثِيرَ، وَإِذَا كَثُرَ الْحَمْلُ هَضَمَ، وَإِذَا قَلَّ جَاءَ فَاخِرًا. وَقِيلَ: الْهَضِيمُ: اللَّيِّنُ النَّضِيجُ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَنَخْلٌ قَدْ أَرْطَبَ ثَمَرُهُ.

قَرَأَ الْحَسَنُ: "وَتَنْحِتُونَ"، بِفَتْحِ الْحَاءِ. وَقُرِئَ: "فَرِهِينَ"، و"فَارِهِينَ".

وَالْفَرَاهَةُ: الْكَيْسُ وَالنَّشَاطُ. وَمِنْهُ: خَيْلٌ فَرِهَةٌ، اسْتُعِيرَ لِامْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَارْتِسَامُهُ طَاعَةُ الْآمِرِ الْمُطَاعِ. أَوْ جَعَلَ الْأَمْرَ مُطَاعًا عَلَى الْمَجَازِ الْحُكْمِيِّ، وَالْمُرَادُ الْآمِرُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَكَ عَلَيَّ إِمْرَةٌ مُطَاعَةٌ.

وَقَوْلُهُ –تعالى–: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾[2]؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ أَنَّ فَسَادَهُمْ فَسَادٌ مُصْمَتٌ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الصَّلَاحِ، كَمَا تَكُونُ حَالُ بَعْضِ الْمُفْسِدِينَ مَخْلُوطَةً بِبَعْضِ الصَّلَاحِ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]

الْمُسَحَّرُ: الَّذِي سُحِرَ كَثِيرًا حَتَّى غُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ السِّحْرِ الرِّئَةِ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

الشِّرْبُ: النَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ، نَحْوَ السِّقْيِ وَالْقِيتِ، لِلْحَظِّ مِنَ السَّقْيِ وَالْقُوتِ. وَقُرِئَ: بِالضَّمِّ.

رُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا: نُرِيدُ نَاقَةً عُشَرَاءَ تَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَتَلِدُ سَقْبًا. فَقَعَدَ صَالِحٌ يَتَفَكَّرُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: صَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَسَلْ رَبَّكَ النَّاقَةَ، فَفَعَلَ، فَخَرَجَتِ النَّاقَةُ وَبَرَكَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَنَتَجَتْ سَقْبًا مِثْلَهَا فِي الْعِظَمِ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى: رَأَيْتُ مَصْدَرَهَا، فَإِذَا هُوَ سِتُّونَ ذِرَاعًا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا شَرِبَتْ مَاءَهُمْ كُلَّهُ، وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ لَا تَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ.

﴿بِسُوءٍ﴾[1]: بِضَرْبٍ أَوْ عَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. عَظَّمَ الْيَوْمَ لِحُلُولِ الْعَذَابِ فِيهِ وَوَصْفُ الْيَوْمِ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِ الْعَذَابِ، لِأَنَّ الْوَقْتَ إِذَا عُظِّمَ بِسَبَبِهِ كَانَ مَوْقِعُهُ مِنَ الْعِظَمِ أَشَدَّ.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2]

وَرُوِيَ أَنْ مِسْطَعًا أَلْجَأَهَا إِلَى مَضِيقٍ فِي شِعْبٍ، فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَأَصَابَ رِجْلَهَا فَسَقَطَتْ: ثُمَّ ضَرَبَهَا قِدَارٌ.

وَرُوِيَ أَنَّ عَاقِرَهَا قَالَ: لَا أَعْقِرُهَا حَتَّى تَرْضَوْا أَجْمَعِينَ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي خِدْرِهَا فَيَقُولُونَ: أَتَرْضِينَ؟ فَتَقُولُ: نَعَمْ، وَكَذَلِكَ صِبْيَانُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَقَدْ نَدِمُوا؟

قُلْتُ: لَمْ يَكُنْ نَدَمُهُمْ نَدَمَ تَائِبِينَ. وَلَكِنْ نَدَمَ خَائِفِينَ أَنْ يُعَاقَبُوا عَلَى الْعَقْرِ عِقَابًا عَاجِلًا، كَمَنْ يَرَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ رَأْيًا فَاسِدًا وَيَبْنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْدَمُ وَيَتَحَسَّرُ كَنَدَامَةِ الْكُسْعِيِّ أَوْ نَدِمُوا نَدَمَ تَائِبِينَ، وَلَكِنْ فِي غَيْرِ وَقْتِ التَّوْبَةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ.

وَقَالَ اللَّهُ –تعالى–: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[3] الْآيَةَ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة]النِّسَاءَ، الآية 18.

وَقِيلَ: كَانَتْ نَدَامَتُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْوَلَدِ، وَهُوَ بَعِيدٌ. وَاللَّامُ فِي الْعَذَابِ: إِشَارَةٌ إِلَى عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[1]

أَرَادَ بِالْعَالَمِينَ: النَّاسَ. أَيْ: أَتَأْتُونَ مِنْ بَيْنِ أَوْلَادِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فَرْطِ كَثْرَتِهِمْ وَتَفَاوُتِ أَجْنَاسِهِمْ وَغَلَبَةِ إِنَاثِهِمْ عَلَى ذُكُورِهِمْ فِي الْكَثْرَةِ ذُكْرَانَهُمْ كَأَنَّ الْإِنَاثَ قَدْ أَعْوَزَتْكُمْ. أَوْ أَتَأْتُونَ أَنْتُمْ –مِنْ بَيْنِ مَنْ عَدَاكُمْ مِنَ الْعَالِمِينَ– الذُّكْرَانَ، يَعْنِي أَنَّكُمْ يَا قَوْمَ لُوطٍ وَحْدَكُمْ مُخْتَصُّونَ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ.

وَالْعَالَمُونَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: كُلُّ مَا يُنْكَحُ مِنَ الْحَيَوَانِ ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾[2] يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ تَبْيِينًا لِمَا خُلِقَ، وَأَنْ يَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ، وَيُرَادُ بِمَا خَلَقَ: الْعُضْوُ الْمُبَاحُ مِنْهُنَّ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "مَا أَصْلَحَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ"، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ بِنِسَائِهِمْ.

الْعَادِي: الْمُتَعَدِّي فِي ظُلْمَةٍ، الْمُتَجَاوِزُ فِيهِ الْحَدَّ، وَمَعْنَاهُ: أَتَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ عَلَى عِظَمِهَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ فِي جَمِيعِ الْمَعَاصِي، فَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ ذَاكَ، أَوْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ أَحِقَّاءُ بِأَنْ تُوصَفُوا بِالْعُدْوَانِ، حَيْثُ ارْتَكَبْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الْعَظِيمَةِ.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[3]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾[1] عَنْ نَهْيِنَا وَتَقْبِيحِ أَمْرِنَا، ﴿لَتَكُونَنَّ﴾[2] مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا وَطَرَدْنَاهُ مِنْ بَلَدِنَا، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يُخْرِجُونَ مَنْ أَخْرَجُوهُ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ: مِنْ تَعْنِيفٍ بِهِ. وَاحْتِبَاسٍ لِأَمْلَاكِهِ. وَكَمَا يَكُونُ حَالُ الظَّلَمَةِ إِذَا أَجْلَوْا بَعْضَ مَنْ يَغْضَبُونَ عَلَيْهِ، وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ مَكَّةَ بِمَنْ يُرِيدُ الْمُهَاجَرَةَ.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3]

و﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾[4] أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لِعَمَلِكُمْ قَالٍ، كَمَا تَقُولُ فُلَانٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَيَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ قَوْلِكَ: فُلَانٌ عَالِمٌ، لِأَنَّكَ تَشْهَدُ لَهُ بِكَوْنِهِ مَعْدُودًا فِي زُمْرَتِهِمْ، وَمَعْرُوفَةً مُسَاهَمَتُهُ لَهُمْ فِي الْعِلْمِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: مِنَ الْكَامِلِينَ فِي قَلَاكُمْ. وَالْقَلْيُ: الْبُغْضُ الشَّدِيدُ، كَأَنَّهُ بُغْضٌ يَقْلِي الْفُؤَادَ وَالْكَبِدَ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ الْمَعْصِيَةِ، وَالْمُرَادُ: الْقَلْيُ مِنْ حَيْثُ الدِّينِ وَالتَّقْوَى، وَقَدْ تَقْوَى هِمَّةُ الدِّينِ فِي دِينِ اللَّهِ حَتَّى تَقْرُبَ كَرَاهَتُهُ لِلْمَعَاصِي مِنَ الْكَرَاهَةِ الْجِبِلِّيَّةِ ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾[5] مِنْ عُقُوبَةِ عَمَلِهِمْ وَهُوَ الظَّاهِرُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِالتَّنْجِيَةِ: الْعِصْمَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلا عَجُوزًا﴾[6]؟

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

[6] سورة، الآية.

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَصَمَهُ وَأَهْلَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَجُوزَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ غَيْرَ مَعْصُومَةٍ مِنْهُ، لِكَوْنِهَا رَاضِيَةً وَمُعِينَةً عَلَيْهِ وَمُحَرِّشَةً، وَالرَّاضِي بِالْمَعْصِيَةِ فِي حُكْمِ الْعَاصِي.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ أَهْلُهُ مُؤْمِنِينَ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا طَلَبَ لَهُمُ النَّجَاةَ، فَكَيْفَ اسْتُثْنِيَتِ الْكَافِرَةُ مِنْهُمْ؟

قُلْتُ: الِاسْتِثْنَاءُ إِنَّمَا وَقَعَ مِنَ الْأَهْلِ وَفِي هَذَا الِاسْمِ لَهَا مَعَهُمْ شَرِكَةٌ بِحَقِّ الزَّوَاجِ وَإِنْ لَمْ تُشَارِكْهُمْ فِي الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ:﴿ فِي الْغَابِرِينَ﴾[1] صِفَةٌ لَهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِلَّا عَجُوزًا غَابِرَةً، وَلَمْ يَكُنِ الْغُبُورُ صِفَتَهَا وَقْتَ تَنْجِيَتِهِمْ.

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: إِلَّا عَجُوزًا مُقَدَّرًا غُبُورُهَا.

وَمَعْنَى الْغَابِرِينَ فِي الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ: غَيْرُ النَّاجِينَ. قِيلَ: إِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْقَرْيَةِ بِمَا أُمْطِرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحِجَارَةِ. وَالْمُرَادُ بِتَدْمِيرِهِمْ: الِاسْتِئْصَالُ بِهِمْ.

وَأَمَّا الْإِمْطَارُ: فَعَنْ قَتَادَةَ: أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَى شُذَّاذِ الْقَوْمِ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَهُمْ. وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ: لَمْ يَرْضَ بِالِاسْتِئْصَالِ حَتَّى أَتْبَعَهُ مَطَرًا مِنْ حِجَارَةٍ.

وَفَاعِلُ "سَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ"، وَلَمْ يُرِدْ بِالْمُنْذَرِينَ قَوْمًا بِأَعْيَانِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ لِلْجِنْسِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، وَهُوَ مَطَرُهُمْ.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

قُرِئَ: "أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ" بِالْهَمْزَةِ وَبِتَخْفِيفِهَا، وَبِالْجَرِّ عَلَى الْإِضَافَةِ وَهُوَ الْوَجْهُ. وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ، وَزَعَمَ أَنَّ "لَيْكَةِ" بِوَزْنِ لَيْلَةٍ: اسْمُ بَلَدٍ، فَتَوَهُّمٌ قَادَ إِلَيْهِ خَطُّ الْمُصْحَفِ، حَيْثُ وُجِدَتْ مَكْتُوبَةً فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي سُورَةِ ص بِغَيْرِ أَلِفٍ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

وَفِي الْمُصْحَفِ أَشْيَاءُ كُتِبَتْ عَلَى خِلَافِ قِيَاسِ الْخَطِّ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا كُتِبَتْ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ عَلَى حُكْمِ لَفْظِ اللَّافِظِ، كَمَا يَكْتُبُ أَصْحَابُ النَّحْوِ لَانَ، وَلَوْلَى: عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لِبَيَانِ لَفْظِ الْمُخَفَّفِ، وَقَدْ كُتِبَتْ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَصْلِ، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، عَلَى أَنَّ "لَيْكَةَ" اسْمٌ لَا يُعْرَفُ.

وَرُوِيَ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ كَانُوا أَصْحَابَ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ، وَكَانَ شَجَرُهُمُ الدَّوْمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، كَمَا فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ؟

قُلْتُ: قَالُوا: إِنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ شُعَيْبًا أَخَا مَدْيَنَ، أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ".

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾[1]

الْكَيْلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ: وَافٍ، وَطَفِيفٌ، وَزَائِدٌ، فَأَمَرَ بِالْوَاجِبِ الَّذِي هُوَ الْإِيفَاءُ، وَنَهَى عَنِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي هُوَ التَّطْفِيفُ، وَلَمْ يَذْكُرِ الزَّائِدَ، وَكَأَنَّ تَرْكَهُ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إِنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَحْسَنَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ فَلَا عَلَيْهِ.

قُرِئَ: "بِالْقِسْطَاسِ" مَضْمُومًا وَمَكْسُورًا، وَهُوَ الْمِيزَانُ وَقِيلَ: الْقَرْسَطُونُ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ –وَجُعِلَتِ الْعَيْنُ مُكَرَّرَةً– فَوَزْنُهُ فِعْلَاسٌ، وَإِلَّا فَهُوَ رُبَاعِيٌّ. وَقِيلَ: وَهُوَ بِالرُّومِيَّةِ الْعَدْلُ. يُقَالُ: بَخَسْتُهُ حَقَّهُ، إِذَا نَقَصْتُهُ إِيَّاهُ. وَمِنْهُ قِيلَ لِلْمَكْسِ: الْبَخْسُ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ حَقٍّ ثَبَتَ لِأَحَدٍ أَنْ لَا يُهْضَمَ، وَفِي كُلِّ مِلْكٍ أَنْ لَا يُغْصَبُ عَلَيْهِ مَالِكُهُ وَلَا يُتَحَيَّفَ مِنْهُ، وَلَا يُتَصَرَّفَ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَصَرُّفًا شَرْعِيًّا.

يُقَالُ: عَثَا فِي الأرض وَعَثَى وَعَاثَ، وَذَلِكَ نَحْوَ قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَالْغَارَةِ، وَإِهْلَاكِ الزُّرُوعِ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَعَ تَوَلِّيهِمْ أَنْوَاعَ الْفَسَادِ فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ. وَقُرِئَ: "الْجُبُلَّةَ"، بِوَزْنِ الْأُبُلَّةِ. وَالْجِبْلَةَ، بِوَزْنِ الْخِلْقَةِ. وَمَعْنَاهُنَّ وَاحِدٌ، أَيْ: ذَوِي الْجِبِلَّةِ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: وَالْخَلْقَ الْأَوَّلِينَ.

---

[1] سورة، الآية.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: هَلِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَى بِإِدْخَالِ الْوَاوِ هَا هُنَا وَتَرْكِهَا فِي قِصَّةِ ثَمُودَ؟

قُلْتُ: إِذَا أُدْخِلَتِ الْوَاوُ فَقَدْ قُصِدَ مَعْنَيَانِ: كِلَاهُمَا مُنَافٍ لِلرِّسَالَةِ عِنْدَهُمُ: التَّسْحِيرُ وَالْبَشَرِيَّةُ، وَأَنَّ الرَّسُولَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسَحَّرًا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَشَرًا، وَإِذَا تُرِكَتِ الْوَاوُ فَلَمْ يُقْصَدْ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدٌ وَهُوَ كَوْنُهُ مُسَحَّرًا، ثُمَّ قَرَّرَ بِكَوْنِهِ شَرًّا مِثْلَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ الْمُخَفَّفَةَ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَلَامَهَا كَيْفَ تَفَرَّقَتَا عَلَى فِعْلِ الظَّنِّ وَثَانِي مَفْعُولِيَّةٍ؟

قُلْتُ: أَصْلُهُمَا أَنْ يَتَفَرَّقَا عَلَى الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، كَقَوْلِكَ: إِنْ زَيْدٌ لَمُنْطَلِقٌ، فَلَمَّا كَانَ الْبَابَانِ –أَعْنِي: بَابَ كَانَ وَبَابَ ظَنَنْتُ– مِنْ جِنْسِ بَابِ الْمُبْتَدَإِ وَالْخَبَرِ، فُعِلَ ذَلِكَ فِي الْبَابَيْنِ فَقِيلَ: إِنْ كَانَ زَيْدٌ لَمُنْطَلِقًا، وَإِنْ ظَنَنْتُهُ لَمُنْطَلِقًا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2]

قُرِئَ: "كِسْفًا" بِالسُّكُونِ وَالْحَرَكَةِ، وَكِلَاهُمَا جَمْعُ كِسْفَةٍ، نَحْوَ: قِطَعٍ وَسِدَرٍ. وَقِيلَ: الْكِسْفُ وَالْكِسْفَةُ، كَالرِّيعِ وَالرِّيعَةِ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَكَسَفَهُ: قَطَعَهُ وَالسَّمَاءُ: السَّحَابُ، أَوِ الْمِظَلَّةُ. وَمَا كَانَ طَلَبُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْجُحُودِ وَالتَّكْذِيبِ. وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ إِلَى التَّصْدِيقِ لَمَا أَخْطَرُوهُ بِبَالِهِمْ فَضْلًا أَنْ يَطْلُبُوهُ.

وَالْمَعْنَى: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَنَّكَ نَبِيٌّ. فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]، يُرِيدُ: أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَعْمَالِكُمْ وَبِمَا تَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا مِنَ الْعِقَابِ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ بِإِسْقَاطِ كِسَفٍ مِنَ السَّمَاءِ فَعَلَ، وَإِنْ أَرَادَ عِقَابًا آخَرَ فَإِلَيْهِ الْحُكْمُ وَالْمَشِيئَةُ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2]

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾[3] اللَّهُ بِنَحْوِ مَا اقْتَرَحُوا مِنْ عَذَابِ الظُّلَّةِ إِنْ أَرَادُوا بِالسَّمَاءِ السَّحَابَ، وَإِنْ أَرَادُوا الْمِظَلَّةَ فَقَدْ خَالَفَ بِهِمْ عَنْ مُقْتَرَحِهِمْ. يُرْوَى أَنَّهُ حَبَسَ عَنْهُمُ الرِّيحَ سَبْعًا، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْوَمَدَ فَأَخَذَ بِأَنْفَاسِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ ظِلٌّ وَلَا مَاءٌ وَلَا سِرْبٌ، فَاضْطُرُّوا إِلَى أَنْ خَرَجُوا إِلَى الْبَرِّيَّةِ فَأَظَلَّتْهُمْ سَحَابَةٌ وَجَدُوا لَهَا بَرْدًا وَنَسِيمًا، فَاجْتَمَعُوا تَحْتَهَا فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاحْتَرَقُوا.

وَرُوِيَ أَنَّ شُعَيْبًا بُعِثَ إِلَى أُمَّتَيْنِ: أَصْحَابِ مَدْيَنَ، وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، فَأُهْلِكَتْ مَدْيَنُ بِصَيْحَةِ جِبْرِيلَ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ بِعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ كَرَّرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ كُلِّ قِصَّةٍ وَآخِرِهَا مَا كَرَّرَ؟

قُلْتُ: كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا كَتَنْزِيلٍ بِرَأْسِهِ، وَفِيهَا مِنَ الِاعْتِبَارِ مِثْلُ مَا فِي غَيْرِهَا، فَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تُدْلِي بِحَقٍّ فِي أَنْ تُفْتَتَحَ بِمَا افْتُتِحَتْ بِهِ صَاحِبَتُهَا، وَأَنْ تُخْتَتَمَ بِمَا اخْتُتِمَتْ بِهِ، وَلِأَنَّ فِي التَّكْرِيرِ تَقْرِيرًا لِلْمَعَانِي فِي الْأَنْفُسِ، وَتَثْبِيتًا لَهَا فِي الصُّدُورِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى تَحَفُّظِ الْعُلُومِ إِلَّا تَرْدِيدُ مَا يُرَادُ تَحَفُّظُهُ مِنْهَا، وَكُلَّمَا زَادَ تَرْدِيدُهُ كَانَ أَمْكَنَ لَهُ فِي الْقَلْبِ وَأَرْسَخَ فِي الْفَهْمِ وَأَثْبَتَ لِلذِّكْرِ وَأَبْعَدَ مِنَ النِّسْيَانِ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ طُرِقَتْ بِهَا آذَانٌ وُقْرٌ عَنِ الْإِنْصَاتِ لِلْحَقِّ، وَقُلُوبٌ غُلْفٌ عَنْ تَدَبُّرِهِ، فَكُوثِرَتْ بِالْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ، وَرُوجِعَتْ بِالتَّرْدِيدِ وَالتَّكْرِيرِ لَعَلَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ أُذُنًا، أَوْ يَفْتَتِقُ ذِهْنًا، أَوْ يُصْقِلُ عَقْلًا طَالَ عَهْدُهُ بِالصَّقْلِ، أَوْ يَجْلُو فَهْمًا قَدْ غَطَّى عَلَيْهِ تَرَاكُمُ الصَّدَأِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[1]

﴿وَإِنَّهُ﴾[2]: وَإِنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ، يَعْنِي: مَا نَزَلَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ وَالْآيَاتِ. وَالْمُرَادُ بِالتَّنْزِيلِ: الْمُنَزَّلُ. وَالْبَاءُ فِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ وَنَزَلَ بِهِ الرُّوحُ، عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ لِلتَّعْدِيَةِ.

وَمَعْنَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾[3] جَعَلَ اللَّهُ الرُّوحَ نَازِلًا بِهِ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾، أَيْ: حَفَّظَكَهُ وَفَهَّمَكَ إِيَّاهُ. وَأَثْبَتَهُ فِي قَلْبِكَ إِثْبَاتَ مَا لَا يُنْسَى، كَقَوْلِهِ –تعالى–: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾[4]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾[5]، إِمَّا أَنَّ يَتَعَلَّقُ بِالْمُنْذَرِينَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: لِتَكُونَ مِنَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا بِهَذَا اللِّسَانِ، وَهُمْ خَمْسَةٌ:هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَمُحَمَّدٌ –عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–. وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنَزَلَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: نَزَّلَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لِتُنْذِرَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَزَّلَهُ بِاللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ، لَتَجَافَوْا عَنْهُ أَصْلًا، وَلَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِمَا لَا نَفْهَمُهُ فَيَتَعَذَّرُ الْإِنْذَارُ بِهِ.

وَفِي هَذَا الْوَجْهِ: أَنَّ تَنْزِيلَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِسَانُكَ وَلِسَانُ قَوْمِكَ تَنْزِيلٌ لَهُ عَلَى قَلْبِكَ، لِأَنَّكَ تَفْهَمُهُ وَيَفْهَمُهُ قَوْمُكَ.

وَلَوْ كَانَ أَعْجَمِيًّا، لَكَانَ نَازِلًا عَلَى سَمْعِكَ دُونَ قَلْبِكَ، لِأَنَّكَ تَسْمَعُ أَجْرَاسَ حُرُوفٍ لَا تَفْهَمُ مَعَانِيَهَا وَلَا تَعِيهَا، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ عَارِفًا بِعِدَّةِ لُغَاتٍ، فَإِذَا كُلِّمَ بِلُغَتِهِ الَّتِي لَقَّنَهَا أَوَّلًا وَنَشَأَ عَلَيْهَا وَتَطَبَّعَ بِهَا، لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ إِلَّا إِلَى مَعَانِي الْكَلَامِ يَتَلَقَّاهَا بِقَلْبِهِ وَلَا يَكَادُ يَفْطَنُ لِلْأَلْفَاظِ كَيْفَ جَرَتْ وَإِنْ كُلِّمَ بِغَيْرِ تِلْكَ اللُّغَةِ وَإِنْ كَانَ مَاهِرًا بِمَعْرِفَتِهَا كَانَ نَظَرُهُ أَوَّلًا فِي أَلْفَاظِهَا ثُمَّ فِي مَعَانِيهَا.

فَهَذَا تَقْرِيرٌ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَى قَلْبِهِ لِنُزُولِهِ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ "وَأَنَّهُ" وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَعْنِي ذِكْرَهُ مُثْبَتٌ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ. وَقِيلَ: إِنَّ مَعَانِيَهُ فِيهَا.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة الْأَعْلَى، الآية 6.

[5] سورة، الآية.

وَبِهِ يُحْتَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي جَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ قُرْآنٌ إِذَا تُرْجِمَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، حَيْثُ قِيلَ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[1]، لِكَوْنِ مَعَانِيهِ فِيهَا.

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَذَلِكَ فِي ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾[2] وَلَيْسَ بِوَاضِحٍ.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]

وَقُرِئَ: "يَكُنْ"، بِالتَّذْكِيرِ. وَآيَةً، بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهَا خَبَرُهُ.

وَ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾[4] هُوَ الِاسْمُ. وَقُرِئَ: "تَكُنْ"، بِالتَّأْنِيثِ، وَجُعِلَتْ ﴿آيَةً﴾[5] اسْمًا، وَ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾[6] خَبَرًا، وَلَيْسَتْ كَالْأُولَى لِوُقُوعِ النَّكِرَةِ اسْمًا وَالْمَعْرِفَةِ خَبَرًا، وَقَدْ خُرِّجَ لَهَا وَجْهٌ آخَرُ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ، فَقِيلَ: فِي "تَكُنْ" ضَمِيرُ الْقِصَّةِ، وَ﴿آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ﴾[7]: جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْخَبَرِ.

وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ ﴿لَهُمْ آيَةً﴾[8] هِيَ جُمْلَةُ الشَّأْنِ، ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾[9] بَدَلًا عَنْ آيَةٍ.

وَيَجُوزُ مَعَ نَصْبِ الْآيَةِ تَأْنِيثُ "تَكُنْ" كَقَوْلِهِ -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا﴾[10]، وَمِنْهُ بَيْتُ لَبِيدٍ:

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ أَقْدَامَهَا

وَقُرِئَ: "تَعْلَمُهُ" بِالتَّاءِ.

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.
[6] سورة، الآية.
[7] سورة، الآية.
[8] سورة، الآية.
[9] سورة، الآية.
[10] سورة، الآية.

﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَغَيْرُهُ: قَالَ اللَّهُ –تعالى–: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ خُطَّ فِي الْمُصْحَفِ "عُلَمَوَاءُ" بِوَاوٍ قَبْلَ الْأَلِفِ؟

قُلْتُ: خُطَّ عَلَى لُغَةِ مَنْ يُمِيلُ الْأَلِفَ إِلَى الْوَاوِ وَعَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ كُتِبَتِ الصَّلَوَةُ وَالزَّكَوَةُ وَالرِّبَوا.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[3]

الْأَعْجَمُ: الَّذِي لَا يُفْصِحُ وَفِي لِسَانِهِ عُجْمَةٌ وَاسْتِعْجَامٌ. وَالْأَعْجَمِيُّ مِثْلُهُ. إِلَّا أَنَّ فِيهِ لِزِيَادَةِ يَاءِ النِّسْبَةِ زِيَادَةَ تَأْكِيدٍ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: الْأَعْجَمِيِّيْنِ.

وَلَمَّا كَانَ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِهِمْ لَا يَفْقَهُونَ كَلَامَهُ، قَالُوا لَهُ: أَعْجَمُ وَأَعْجَمِيٌّ، شَبَّهُوهُ بِمَنْ لَا يُفْصِحُ وَلَا يُبَيِّنُ، وَقَالُوا لِكُلِّ ذِي صَوْتٍ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ وَغَيْرِهَا: أَعْجَمُ.

قَالَ حُمَيْدٌ:

وَلَا عَرَبِيًّا شَاقَّهُ أَعْجَمَـــا

﴿سَلَكْنَاهُ﴾[4]: أَدْخَلْنَاهُ وَمَكَّنَّاهُ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّا أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَرَبِيٍّ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، فَسَمِعُوا بِهِ وَفَهِمُوهُ وَعَرَفُوا فَصَاحَتَهُ، وَأَنَّهُ مُعْجِزٌ لَا يُعَارَضُ بِكَلَامٍ مِثْلِهِ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ اتِّفَاقُ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ عَلَى أَنَّ الْبِشَارَةَ بِإِنْزَالِهِ وَتَحْلِيَةَ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَصِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَقَدْ

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة الْقَصَصَ، الآية 53.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

تَضَمَّنَتْ مَعَانِيَهِ وَقِصَصَهُ، وَصَحَّ بِذَلِكَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَيْسَتْ بِأَسَاطِيرَ كَمَا زَعَمُوا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَجَحَدُوهُ، وَسَمَّوْهُ شِعْرًا تَارَةً، وَسِحْرًا أُخْرَى، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ تَلْفِيقِ مُحَمَّدٍ وَافْتِرَائِهِ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ﴾[1] الْأَعَاجِمِ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ، فَضْلًا أَنْ يَقْدِرَ عَلَى نَظْمِ مِثْلِهِ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ هَكَذَا فَصِيحًا مُعْجِزًا مُتَحَدِّي بِهِ، لَكَفَرُوا بِهِ كَمَا كَفَرُوا، وَلَتَمَحَّلُوا لِجُحُودِهِمْ عُذْرًا، وَلَسَمَّوْهُ سِحْرًا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾[2]، أَيْ مِثْلُ هَذَا السَّلْكِ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَهَكَذَا مَكَّنَّاهُ وَقَرَّرْنَاهُ فِيهَا، وَعَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ وَالتَّكْذِيبِ لَهُ وَضَعْنَاهُ فِيهَا، فَكَيْفَمَا فُعِلَ بِهِمْ وَصُنِعَ وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ دُبِّرَ أَمْرُهُمْ، فَلَا سَبِيلَ أَنْ يَتَغَيَّرُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ جُحُودِهِ وَإِنْكَارِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَسْنَدَ السَّلْكَ بِصِفَةِ التَّكْذِيبِ إِلَى ذَاتِهِ؟

قُلْتُ: أَرَادَ بِهِ الدَّلَالَةَ عَلَى تَمَكُّنِهِ مُكَذَّبًا فِي قُلُوبِهِمْ أَشَدَّ التَّمَكُّنِ، وَأَثْبَتَهُ فَجَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ أَمْرٍ قَدْ جُبِلُوا عَلَيْهِ وَفُطِرُوا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: هُوَ مَجْبُولٌ عَلَى الشُّحِّ، يُرِيدُونَ: تَمَكُّنَ الشُّحِّ فِيهِ، لِأَنَّ الْأُمُورَ الْخِلْقِيَّةَ أَثْبَتُ مِنَ الْعَارِضَةِ؟!

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَسْنَدَ تَرْكَ الْإِيمَانِ بِهِ إِلَيْهِمْ عَلَى عَقِبِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.[4]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَوْقِعُ ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾[5]؟

قُلْتُ: مَوْقِعُهُ مِنْهُ مَوْقِعُ الْمَوْضِعِ وَالْمُلَخَّصِ، لِأَنَّهُ مَسُوقٌ لِثَبَاتِهِ مُكَذَّبًا مَجْحُودًا فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَتْبَعَ مَا يُقَرِّرُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِهِ وَجُحُودِهِ حَتَّى يُعَايِنُوا الْوَعِيدَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، أَيْ: سَلَكْنَاهُ فِيهَا غَيْرَ مُؤْمَنٍ بِهِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "فَتَأْتِيَهُمْ"، بِالتَّاءِ يَعْنِي: السَّاعَةُ. وَبَغَتَةً. بِالتَّحْرِيكِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة الْأَنْعَامَ، الآية 77.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

وَفِي حَرْفِ أُبَيٍّ" :وَيَرَوْهُ بَغْتَةً".

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى التَّعْقِيبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾[1] ... ﴿فَيَقُولُوا﴾[2]؟

قُلْتُ: لَيْسَ الْمَعْنَى تَرَادُفَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ وَمُفَاجَأَتَهُ وَسُؤَالَ النَّظْرَةِ فِيهِ فِي الْوُجُودِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى تَرَتُّبُهَا فِي الشِّدَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ حَتَّى تَكُونَ رُؤْيَتُهُمْ لِلْعَذَابِ فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا وَهُوَ لُحُوقُهُ بِهِمْ مُفَاجَأَةً، فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ وَهُوَ سُؤَالُهُمُ النَّظْرَةَ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ: أَنْ تَقُولَ لِمَنْ تَعِظُهُ: إِنْ أَسَأْتَ مَقَتَكَ الصَّالِحُونَ فَمَقَتَكَ اللَّهُ، فَإِنَّكَ لَا تَقْصِدُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ أَنَّ مَقْتَ اللَّهِ يُوجَدُ عَقِيبَ مَقْتِ الصَّالِحِينَ، وَإِنَّمَا قَصْدُكَ إِلَى تَرْتِيبِ شِدَّةِ الْأَمْرِ عَلَى الْمُسِيءِ، وَأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِ الْإِسَاءَةِ مَقْتُ الصَّالِحِينَ، فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ مَقْتِهِمْ: وَهُوَ مَقْتُ اللَّهِ، وَتَرَى ثَمَّ يَقَعُ هَذَا الْأُسْلُوبُ، فَيَحِلُّ مَوْقِعُهُ.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[3] تَبْكِيتٌ لَهُمْ بِإِنْكَارٍ وَتَهَكُّمٍ، وَمَعْنَاهُ: كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ الْعَذَابَ مَنْ هُوَ مُعَرَّضٌ لِعَذَابٍ يَسْأَلُ فِيهِ مِنْ جِنْسِ مَا هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ مِنَ النَّظْرَةِ وَالْإِمْهَالِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَلَا يُجَابُ إِلَيْهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حِكَايَةَ تَوْبِيخٍ يُوَبَّخُونَ بِهِ عِنْدَ اسْتِنْظَارِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾[4] عَلَى هَذَا الْوَجْهِ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ.

وَوَجْهٌ آخَرُ مُتَّصِلٌ بِمَا بَعْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْعَذَابِ إِنَّمَا كَانَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ غَيْرُ كَائِنٍ وَلَا لَاحِقٌ بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُمَتَّعُونَ بِأَعْمَارٍ طِوَالٍ فِي سَلَامَةٍ وَأَمْنٍ، فَقَالَ –تعالى–: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَشَرًا وَبَطَرًا وَاسْتِهْزَاءً وَاتِّكَالًا عَلَى الْأَمَلِ الطَّوِيلِ، ثُمَّ قَالَ: هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ تَمْتِيعِهِمْ وَتَعْمِيرِهِمْ، فَإِذَا لَحِقَهُمُ الْوَعِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ مَا مَضَى مِنْ طُولِ أَعْمَارِهِمْ وَطِيبِ مَعَايِشِهِمْ.

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ: أَنَّهُ لَقِيَ الْحَسَنَ فِي الطَّوَافِ وَكَانَ يَتَمَنَّى لِقَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: عِظْنِي، فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى تِلَاوَةِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ مَيْمُونٌ: لَقَدْ وَعَظْتَ فَأَبْلَغْتَ. وَقُرِئَ: "يُمْتَعُونَ"، بِالتَّخْفِيفِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[1]

﴿مُنْذِرُونَ﴾[2] رُسُلٌ يُنْذِرُونَهُمْ "ذِكْرِي" مَنْصُوبَةٌ بِمَعْنَى تَذْكِرَةٍ، إِمَّا لِأَنَّ "أَنْذَرَ، وَذَكَّرَ" مُتَقَارِبَانِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مُذَكِّرُونَ تَذْكِرَةً. وَإِمَّا لِأَنَّهَا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي مُنْذِرُونَ أَيْ، يُنْذِرُونَهُمْ ذَوِي تَذْكِرَةٍ. وَإِمَّا لِأَنَّهَا مَفْعُولٌ لَهُ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُمْ يُنْذِرُونَ لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِرَةِ. أَوْ مَرْفُوعَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، بِمَعْنَى: هَذِهِ ذِكْرَى. وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ. أَوْ صِفَةٌ بِمَعْنَى: مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرَى. أَوْ جُعِلُوا ذِكْرَى لِإِمْعَانِهِمْ فِي التَّذْكِرَةِ وَإِطْنَابِهِمْ فِيهَا.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ذِكْرَى مُتَعَلِّقَةً بِأَهْلَكْنَا مَفْعُولًا لَهُ.

وَالْمَعْنَى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ ظَالِمِينَ إِلَّا بَعْدَمَا أَلْزَمْنَاهُمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الْمُنْذِرِينَ إِلَيْهِمْ، لِيَكُونَ إِهْلَاكُهُمْ تَذْكِرَةً وَعِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ، فَلَا يَعْصُوا مِثْلَ عِصْيَانِهِمْ. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[3]، فَنُهْلِكُ قَوْمًا غَيْرَ ظَالِمِينَ. وَهَذَا الْوَجْهُ عَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عُزِلَتِ الْوَاوُ عَنِ الْجُمْلَةِ بَعْدَ "إِلَّا" وَلَمْ تُعْزَلْ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾[4]؟

قُلْتُ: الْأَصْلُ: عَزْلُ الْوَاوِ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ صِفَةٌ لِقَرْيَةٍ، وَإِذَا زِيدَتْ فَلِتَأْكِيدِ وَصْلِ الصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.[5]

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[6]

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة الْحِجْرَ، الآية 4.

[5] سورة، الآية.

[6] سورة، الآية.

كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا كَاهِنٌ وَمَا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ مَا يَتَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْكَهَنَةِ، فَكَذَّبُوا بِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَسَهَّلُ لِلشَّيَاطِينِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ مَرْجُومُونَ بِالشُّهُبِ مَعْزُولُونَ عَنِ اسْتِمَاعِ كَلَامِ أَهْلِ السَّمَاءِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "الشَّيَاطُونَ".

وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ رَأَى آخِرَهُ كَآخِرِ يَبْرِينَ وَفِلَسْطِينَ، فَتَخَيَّرَ بَيْنَ أَنْ يُجْرِيَ الْإِعْرَابَ عَلَى النُّونِ، وَبَيْنَ أَنْ يُجْرِيَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ، فَيَقُولُ: الشَّيَاطِينُ وَالشَّيَاطُونَ، كَمَا تَخَيَّرَتِ الْعَرَبُ بَيْنَ أَنْ يَقُولُوا. هَذِهِ يَبْرُونَ وَيَبْرِينُ، وِفِلِسْطُونَ وَفِلَسْطِينُ. وَحَقُّهُ أَنْ تَشْتَقَّهُ مِنَ الشَّيْطُوطَةِ، وَهِيَ الْهَلَاكُ، كَمَا قِيلَ لَهُ الْبَاطِلُ.

وَعَنِ الْفَرَّاءِ: غَلِطَ الشَّيْخُ فِي قِرَاءَتِهِ "الشَّيَاطُونَ" ظَنَّ أَنَّهَا النُّونُ الَّتِي عَلَى هَجَاءَيْنِ، فَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: إِنْ جَازَ أَنْ يُحْتَجَّ بِقَوْلِ الْعَجَّاجِ وَرُؤْبَةَ، فَهَلَّا جَازَ أَنْ يُحْتَجَّ بِقَوْلِ الْحَسَنِ وَصَاحِبِهِ –يُرِيدُ: مُحَمَّدَ بْنَ السَّمَيْقَعِ –مَعَ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُمَا لَمْ يَقْرَا بِهِ إِلَّا وَقَدْ سَمِعَا فِيهِ.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]

قَدْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُحَرِّكَ مِنْهُ لِازْدِيَادِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّقْوَى. وَفِيهِ لُطْفٌ لِسَائِرِ الْمُكَلَّفِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[2].

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا أَنْ يُؤْمَرَ بِإِنْذَارِ الْأَقْرَبِ، فَالْأَقْرَبِ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَبْدَأَ فِي ذَلِكَ بِمَنْ هُوَ أَوْلَى بِالْبَدَاءَةِ، ثُمَّ بِمَنْ يَلِيهِ. وَأَنْ يُقَدِّمَ إِنْذَارَهُمْ عَلَى إِنْذَارِ غَيْرِهِمْ، كَمَا رُوِيَ عَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– : أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قَالَ: "كُلُّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَأَوَّلُ مَا أَضَعُهُ رِبَا الْعَبَّاسِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يُؤْمَرَ بِأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبُ لِلْقَرِيبِ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، وَلَا يُحَابِيَهِمْ فِي الْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة الْحَاقَّةَ، الآية 44.

وَرُوِيَ أَنَّهُ صَعِدَ الصَّفَا -لَمَّا نَزَلَتْ- فَنَادَى الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ فَخْذًا فَخْذًا، وَقَالَ: "يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا عَبَّاسُ عَمَّ النَّبِيِّ يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ".

وَرُوِيَ "أَنَّهُ جَمَعَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا: الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ، وَيَشْرَبُ الْعَسَّ عَلَى رِجْلِ شَاةٍ وَقَعْبٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى صَدَرُوا، ثُمَّ أَنْذَرَهُمْ، فَقَالَ: "يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ خَيْلًا أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ".

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: "يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، افْتُدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا" ثُمَّ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَيَا حَفْصَةُ بِنْتَ عُمَرَ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِينَ أَنْفُسَكُنَّ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُنَّ شَيْئًا".

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]

الطَّائِرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْحَطَّ لِلْوُقُوعِ كَسَرَ جَنَاحَهُ وَخَفَضَهُ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهَضَ لِلطَّيَرَانِ رَفَعَ جَنَاحَهُ، فَجَعَلَ خَفْضَ جَنَاحِهِ عِنْدَ الِانْحِطَاطِ مَثَلًا فِي التَّوَاضُعِ وَلِينِ الْجَانِبِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ... فَلَا تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلَا

يَنْهَاهُ عَنِ التَّكَبُّرِ بَعْدَ التَّوَاضُعِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمُتَّبِعُونَ لِلرَّسُولِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلرَّسُولِ، فَمَا قَوْلُهُ: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُسَمِّيَهُمْ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي الْإِيمَانِ مُؤْمِنِينَ لِمُشَارَفَتِهِمْ ذَلِكَ، وَأَنْ يُرِيدَ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ صِنْفَانِ: صِنْفٌ صَدَّقَ وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

جَاءَ بِهِ، وَصِنْفٌ مَا وُجِدَ مِنْهُ إِلَّا التَّصْدِيقُ فَحَسْبُ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ أَوْ فَاسِقِينَ، وَالْمُنَافِقُ وَالْفَاسِقُ لَا يُخْفَضُ لَهُمَا الْجَنَاحُ.

وَالْمَعْنَى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَشِيرَتِكَ وَغَيْرِهِمْ، يَعْنِي: أَنْذِرْ قَوْمَكَ فَإِنِ اتَّبَعُوكَ وَأَطَاعُوكَ فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَإِنْ عَصَوْكَ وَلَمْ يَتَّبِعُوكَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَغَيْرِهِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]

﴿وَتَوَكَّلْ﴾[2] عَلَى اللَّهِ يَكْفِكَ شَرَّ مَنْ يَعْصِيكَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ. وَالتَّوَكُّلُ: تَفْوِيضُ الرَّجُلِ أَمْرَهُ إِلَى مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ وَيَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِ وَضَرِّهِ. وَقَالُوا: الْمُتَوَكِّلُ مَنْ إِنْ دَهَمَهُ أَمْرٌ لَمْ يُحَاوِلْ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ.

فَعَلَى هَذَا إِذَا وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي مِحْنَةٍ ثُمَّ سَأَلَ غَيْرَهُ خَلَاصَهُ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ حَدِّ التَّوَكُّلِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُحَاوِلْ دَفْعَ مَا نَزَلَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ: "فَتَوَكَّلْ"، وَبِهِ قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ، وَلَهُ مَحْمَلَانِ فِي الْعَطْفِ: أَنْ يُعْطَفَ عَلَى "فَقُلْ". أَوْ ﴿فَلا تَدْعُ﴾[3].

﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[4] عَلَى الَّذِي يَقْهَرُ أَعْدَاءَكَ بِعِزَّتِهِ وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ. ثُمَّ اتَّبِعْ كَوْنَهُ رَحِيمًا عَلَى رَسُولِهِ مَا هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ: وَهُوَ ذِكْرُ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ قِيَامِهِ لِلتَّهَجُّدِ، وَتَقَلُّبِهِ فِي تَصَفُّحِ أَحْوَالِ الْمُتَهَجِّدِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ لِيَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. وَيَسْتَبْطِنَ سِرَّ أَمْرِهِمْ، وَكَيْفَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَيْفَ يَعْمَلُونَ لِآخِرَتِهِمْ، كَمَا يُحْكَى أَنَّهُ حِينَ نُسِخَ فَرْضُ قِيَامِ اللَّيْلِ، طَافَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِبُيُوتِ أَصْحَابِهِ لِيَنْظُرَ مَا يَصْنَعُونَ لِحِرْصِهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَا يُوجَدُ مِنْهُمْ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَكْثِيرِ الْحَسَنَاتِ، فَوَجَدَهَا

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

كَبُيُوتِ الزَّنَابِيرِ لِمَا سَمِعَ مِنْهَا مِنْ دَنْدَنَتِهِمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتِّلَاوَةِ. وَالْمُرَادُ بِالسَّاجِدِينَ: الْمُصَلُّونَ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ لِلصَّلَاةِ بِالنَّاسِ جَمَاعَةً. وَتَقَلُّبُهُ فِي السَّاجِدِينَ: تَصَرُّفُهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِقِيَامِهِ وَرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ وَقُعُودِهِ إِذَا أَمَّهُمْ.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ: أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، هَلْ تَجِدُ الصَّلَاةَ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: لَا يَحْضُرُنِي، فَتَلَا لَهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُكَ كُلَّمَا قُمْتَ وَتَقَلَّبْتَ مَعَ السَّاجِدِينَ فِي كِفَايَةِ أُمُورِ الدِّينِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾[1] لِمَا تَقُولُهُ: ﴿الْعَلِيمُ﴾[2] بِمَا تَنْوِيهِ وَتَعْمَلُهُ.

وَقِيلَ: هُوَ تَقَلُّبُ بَصَرِهِ فِيمَنْ يُصَلِّي خَلْفَهُ، مِنْ قَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-: "أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِي إِذَا رَكَعْتُمْ وَسَجَدْتُمْ".

وَقُرِئَ: "وَيَقْلِبُكَ".

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[3]

﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[4] هُمُ الْكَهَنَةُ وَالْمُتَنَبِّئَةُ، كَشِقٍّ، وَسَطِيحٍ، وَمُسَيْلَمَةَ، وَطُلَيْحَةَ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾[5] هُمُ الشَّيَاطِينُ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُحْجَبُوا بِالرَّجْمِ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى فَيَخْتَطِفُونَ بَعْضَ مَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ مِمَّا أُطْلِعُوا عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ، ثُمَّ يُوحُونَ بِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ أُولَئِكَ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[6] فِيمَا يُوحُونَ بِهِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُسْمِعُونَهُمْ مَا لَمْ يَسْمَعُوا.

---

[1] سورة، الآية.
[2] سورة، الآية.
[3] سورة، الآية.
[4] سورة، الآية.
[5] سورة، الآية.
[6] سورة، الآية.

وَقِيلَ: يُلْقُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمُ السَّمْعَ، أَيِ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: الْأَفَّاكُونَ يُلْقُونَ السَّمْعَ إِلَى الشَّيَاطِينِ فَيَتَلَقَّوْنَ وَحْيَهُمْ إِلَيْهِمْ. أَوْ يُلْقُونَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى النَّاسِ، وَأَكْثَرُ الْأَفَّاكِينَ كَاذِبُونَ يَفْتَرُونَ عَلَى الشَّيَاطِينِ مَا لَمْ يُوحُوا إِلَيْهِمْ، وَتَرَى أَكْثَرَ مَا يَحْكُمُونَ بِهِ بَاطِلًا وَزُورًا.

وَفِي الْحَدِيثِ: "الْكَلِمَةُ يَتَخَطَّفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَزِيدُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ".

وَالْقَرُّ: الصَّبُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ دَخَلَ حَرْفُ الْجَرِّ عَلَى "مَنِ" الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ وَالِاسْتِفْهَامُ لَهُ صَدْرُ الْكَلَامِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِكَ: أَعْلَى زَيْدٍ مَرَرْتَ؟ وَلَا تَقُولُ: عَلَى أَزَيْدٍ مَرَرْتَ؟

قُلْتُ: لَيْسَ مَعْنَى التَّضَمُّنِ أَنَّ الِاسْمَ دَلَّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مَعًا: مَعْنَى الِاسْمِ، وَمَعْنَى الْحَرْفِ. وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنَّ الْأَصْلَ أَمَنْ، فَحُذِفَ حَرْفُ الِاسْتِفْهَامِ وَاسْتَمَرَّ الِاسْتِعْمَالُ عَلَى حَذْفِهِ، كَمَا حُذِفَ مِنْ "هَلْ" وَالْأَصْلُ: أَهَلْ.

قَالَ:

أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الْأَكَـــمِ؟

فَإِذَا أَدْخَلْتَ حَرْفَ الْجَرِّ عَلَى "مَنْ" فَقَدِّرِ الْهَمْزَةَ قَبْلَ حَرْفِ الْجَرِّ فِي ضَمِيرِكَ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: أَعْلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، كَقَوْلِكَ: أَعْلَى زَيْدٍ مَرَرْتَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿يُلْقُونَ﴾[1] مَا مَحَلُّهُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: تَنَزَّلُ مُلْقِينَ السَّمْعَ، وَفِي مَحَلِّ الْجَرِّ صِفَةٌ لِـ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾[2]؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ. وَأَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَحَلٌّ بِأَنْ يُسْتَأْنَفَ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: لِمَ تَنَزَّلَ عَلَى الْأَفَّاكِينَ؟ فَقِيلَ: يَفْعَلُونَ كَيْتَ وَكَيْتَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ؟ قِيلَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[3] بَعْدَ مَا قَضَى عَلَيْهِمْ أَنَّ كَلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَفَّاكٌ؟

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

قُلْتُ: الْأَفَّاكُونَ هُمُ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ الْإِفْكَ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ إِلَّا بِالْإِفْكِ، فَأَرَادَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَفَّاكِينَ قَلَّ مَنْ يَصْدُقُ مِنْهُمْ فِيمَا يَحْكِي عَنِ الْجِنِّيِّ؛ وَأَكْثَرُهُمْ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾[1] لِمَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَهُنَّ أَخَوَاتٌ؟

قُلْتُ: أُرِيدَ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُنَّ بِآيَاتٍ لَيْسَتْ فِي مَعْنَاهُنَّ، لِيَرْجِعَ إِلَى الْمَجِيءِ بِهِنَّ وَتَطْرِيَةِ ذِكْرِ مَا فِيهِنَّ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ: فَيَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي نَزَلْنَ فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَدَّتْ كَرَاهَةُ اللَّهِ لِخِلَافِهَا.

وَمِثَالُهُ: أَنْ يُحَدِّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ وَفِي صَدْرِهِ اهْتِمَامٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ وَفَضْلُ عِنَايَةٍ، فَتَرَاهُ يُعِيدُ ذِكْرَهُ وَلَا يَنْفَكُّ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[2]

﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾[3] مُبْتَدَأٌ، وَيَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ خَبَرُهُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَفُضُولِ قَوْلِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهِجَاءِ وَتَمْزِيقِ الْأَعْرَاضِ وَالْقَدْحِ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنَّسِيبِ بِالْحُرُمِ وَالْغَزَلِ وَالِابْتِهَارِ، وَمَدْحِ مَنْ لَا يُسْتَحَقُّ الْمَدْحَ، وَلَا يَسْتَحْسِنُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَلَا يَطْرَبُ عَلَى قَوْلِهِمْ إِلَّا الْغَاوُونَ وَالسُّفَهَاءُ وَالشُّطَّارُ.

وَقِيلَ: الْغَاوُونَ: الرَّاوُونَ. وَقِيلَ: الشَّيَاطِينُ، وَقِيلَ: هُمْ شُعَرَاءُ قُرَيْشٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرِيِّ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيُّ، وَمُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيُّ. وَمِنْ ثَقِيفَ: أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ. قَالُوا: نَحْنُ نَقُولُ مِثْلَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ –وَكَانُوا يَهْجُونَهُ، وَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِمُ الْأَعْرَابُ مِنْ قَوْمِهِمْ يَسْتَمِعُونَ أَشْعَارَهُمْ وَأَهَاجِيَّهُمْ– وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ: وَالشُّعَرَاءَ، بِالنَّصْبِ عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ يُفَسِّرُهُ الظَّاهِرُ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ حُبَّ النَّصْبِ. قَرَأَ: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[1]]الْمَسَدَ: 4.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ وَسُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾[2]، وَقُرِئَ: "يَتْبَعُهُمْ"، عَلَى التَّخْفِيفِ. وَيَتْبَعْهُمْ، بِسُكُونِ الْعَيْنِ تَشْبِيهًا "لِبَعِّهِ بِعَضُدٍ".

ذِكْرُ الْوَادِي وَالْهُيُومِ: فِيهِ تَمْثِيلٌ لِذَهَابِهِمْ فِي كُلِّ شِعْبٍ مِنَ الْقَوْلِ وَاعْتِسَافِهِمْ وَقِلَّةِ مُبَالَاتِهِمْ بِالْغُلُوِّ فِي الْمَنْطِقِ وَمُجَاوَزَةِ حَدِّ الْقَصْدِ فِيهِ، حَتَّى يُفَضِّلُوا أَجْبَنَ النَّاسِ عَلَى عَنْتَرَةَ، وَأَشَحَّهُمْ عَلَى حَاتِمٍ، وَأَنْ يَبْهَتُوا الْبَرِيَّ، وَيُفَسِّقُوا التَّقِيَّ.

وَعَنِ الْفَرَزْدَقِ: أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ سَمِعَ قَوْلَهُ:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فَقَالَ: قَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ الْحَدُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَرَأَ اللَّهُ عَنِّي الْحَدَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[3].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[4]

اسْتَثْنَى الشُّعَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ ذِكْرَ اللَّهِ وَتِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَغْلَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشِّعْرِ، وَإِذَا قَالُوا شِعْرًا قَالُوهُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَالزُّهْدِ وَالْآدَابِ الْحَسَنَةِ، وَمَدْحِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالصَّحَابَةِ وَصُلَحَاءِ الْأُمَّةِ، وَمَا لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَا يَتَلَطَّخُونَ فِيهَا بِذَنْبٍ وَلَا يَتَلَبَّسُونَ بِشَائِنَةٍ وَلَا مَنْقَصَةٍ، وَكَانَ هِجَاؤُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الِانْتِصَارِ مِمَّنْ يَهْجُوهُمْ.

---

[1] سورة، الآية.

[2] سورة، الآية.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

قَالَ اللَّهُ –تعالى–: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ﴾[1]، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اعْتِدَاءٍ وَلَا زِيَادَةٍ عَلَى مَا هُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ –تعالى–: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[2].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَلَوِيَّةِ قَالَ لَهُ: إِنَّ صَدْرِي لَيَجِيشُ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ فِيمَا لَا بَأْسَ بِهِ؟

وَالْقَوْلُ فِيهِ: أَنَّ الشِّعْرَ بَابٌ مِنَ الْكَلَامِ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُسْتَثْنِينَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالْكَعْبَانِ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَكَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ؛ وَالَّذِينَ كَانُوا يُنَافِحُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَيُكَافِحُونَ هُجَاةَ قُرَيْشٍ.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلّمَ– قَالَ لَهُ: "اهْجُهُمْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبْلِ"، وَكَانَ يَقُولُ لِحَسَّانَ: "قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ".

خَتَمَ السُّورَةَ بِآيَةٍ نَاطِقَةٍ بِمَا لَا شَيْءَ أَهِيبُ مِنْهُ وَأَهْوَلُ، وَلَا أَنْكَى لِقُلُوبِ الْمُتَأَمِّلِينَ وَلَا أَصْدَعُ لِأَكْبَادِ الْمُتَدَبِّرِينَ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾[3] وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْبَلِيغِ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[4] وَإِطْلَاقُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[5] وَإِبْهَامُهُ، وَقَدْ تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– حِينَ عَهِدَ إِلَيْهِ. وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَتَوَاعَظُونَ بِهَا وَيَتَنَاذَرُونَ شِدَّتَهَا. وَتَفْسِيرُ الظُّلْمِ بِالْكُفْرِ تَعْلِيلٌ. وَلَأَنْ تَخَافَ فَتَبْلُغَ الْأَمْنَ: خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْمَنَ فَتَبْلُغَ الْخَوْفَ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ"، وَمَعْنَاهَا: إِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَنْفَلِتُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَسَيَعْلَمُونَ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الِانْفِلَاتِ، وَهُوَ النَّجَاةُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ جَعَلَ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهَا؛ وَعَلِمَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

---

[1] سورة النِّسَاءَ، الآية 148.

[2] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 194.

[3] سورة، الآية.

[4] سورة، الآية.

[5] سورة، الآية.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الشُّعَرَاءِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِنُوحٍ وَكَذَّبَ بِهِ وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَبِعَدَدِ مَنْ كَذَّبَ بِعِيسَى وَصَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ –عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–".

سُورَةُ الزُّمَرِ

سورة الزخرف

مَكِّيَّةٌ، إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾[1] ....الْآيَةُ،
وَتُسَمَّى سُورَ الْغُرَفِ.
وَهِيَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، وَقِيلَ: اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ سَبَإٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2]

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾[3] قُرِئَ: بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ أُخْبِرَ عَنْهُ بِالظَّرْفِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَالْجَارُّ صِلَةُ التَّنْزِيلِ، كَمَا تَقُولُ: نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَوْ غَيْرَ صِلَةٍ، كَقَوْلِكَ: هَذَا الْكِتَابُ مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، فَهُوَ عَلَى هَذَا خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ:

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .

هَذَا تَنْزِيلُ الْكِتَابِ، هَذَا مِنَ اللَّهِ، أَوْ حَالٌ مِنَ التَّنْزِيلِ عَمِلَ فيها مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَبِالنَّصْبِ عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ، نَحْوُ: اقْرَأْ، وَالْزَمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ؟

قُلْتُ: الظَّاهِرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ الْقُرْآنُ، وَعَلَى الثَّانِي: أَنَّهُ السُّورَةُ

﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[1] مُمَحِّضًا لَهُ الدِّينَ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ بِالتَّوْحِيدِ وَتَصْفِيَةِ السِّرِّ.

وَقُرِئَ: (الدِّينُ) بِالرَّفْعِ.

وَحَقُّ مَنْ رَفَعَهُ أَنْ يَقْرَأَ مُخْلِصًا -بِفَتْحِ اللَّامِ- كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[2] حَتَّى يُطَابِقَ قَوْلَهُ: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] وَالْخَالِصُ وَالْمُخْلِصُ: وَاحِدٌ، إِلَّا أَنْ يَصِفَ الدِّينَ بِصِفَةِ صَاحِبِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، كَقَوْلِهِمْ: شِعْرُ شَاعِرٍ.

وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ ﴿مُخْلِصًا﴾[4] حَالًا مِنَ الْعَابِدِ، وَ﴿لَهُ الدِّينَ﴾[5] مُبْتَدَأً وَخَبَرًا، فَقَدْ جَاءَ بِإِعْرَابٍ رَجَعَ بِهِ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِكَ: لِلَّهِ الدِّينُ.

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[6]، أَيْ: هُوَ الَّذِي وَجَبَ اخْتِصَاصُهُ بِأَنْ يُخْلِصَ لَهُ الطَّاعَةَ مِنْ كُلِّ شَائِبَةِ كَدْرٍ، لِاطِّلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ وَالْأَسْرَارِ، وَلِأَنَّهُ الْحَقِيقُ بِذَلِكَ، لِخُلُوصِ نِعْمَتِهِ عَنِ اسْتِجْرَارِ الْمَنْفَعَةِ بِهَا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: الدِّينُ الْخَالِصُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَعَنِ الْحَسَنِ: الْإِسْلَامُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾[7] يَحْتَمِلُ الْمُتَّخِذِينَ وَهُمُ الْكَفَرَةُ، وَالْمُتَّخِذِينَ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَاللَّاتُ وَالْعُزَّى، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فَالضَّمِيرُ فِي ﴿اتَّخَذُوا﴾[8] عَلَى الْأَوَّلِ رَاجِعٌ إِلَى الَّذِينَ، وَعَلَى الثَّانِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُمْ

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة النِّسَاءُ، الآية 146.

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

8 سورة ، الآية .

لِكَوْنِهِ مَفْهُومًا، وَالرَّاجِعُ إِلَى الَّذِينَ مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: وَالَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ أَوْلِيَاءَ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾[1] في مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْخَبَرُ مَا هُوَ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى الْأَوَّلِ إِمَّا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[2] أَوْ مَا أُضْمِرَ مِنَ الْقَوْلِ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾[3]؛ وَعَلَى الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[4] الْخَبَرُ، فَمَا مَوْضِعُ الْقَوْلِ الْمُضْمَرِ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ في مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: قَائِلِينَ ذَلِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنَ الصِّلَةِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَحَلٌّ، كَمَا أَنَّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ كَذَلِكَ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِإِظْهَارِ الْقَوْلِ: (قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ) وَفي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: (مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا) عَلَى الْخِطَابِ، حِكَايَةً لِمَا خَاطَبُوا بِهِ آلِهَتَهُمْ. وَقُرِئَ: (نَعْبُدُهُمْ) بِضَمِّ النُّونِ اتِّبَاعًا لِلْعَيْنِ كَمَا تَتْبَعُهَا الْهَمْزَةُ في الْأَمْرِ، وَالتَّنْوِينِ في ﴿وَعَذَابٍ ارْكُضْ﴾[5]، وَالضَّمِيرُ في "بَيْنَهُمْ" لَهُمْ وَلِأَوْلِيَائِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِأَنَّهُ يُدْخِلُ الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَى الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ مَعَ الْحِجَارَةِ الَّتِي نَحَتُوهَا وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ يُعَذِّبُهُمْ بِهَا، حَيْثُ يَجْعَلُهُمْ وَإِيَّاهَا حَصَبُ جَهَنَّمَ. وَاخْتِلَافُهُمْ: أَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مُوَحِّدُونَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَأُولَئِكَ يُعَادُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَهُمْ يَرْجُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَتَقْرِيبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفي. وَقِيلَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا قَالُوا لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ أَقَرُّوا وَقَالُوا: اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا لَهُمْ: فَمَا لَكُمْ تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؟ قَالُوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي، فَالضَّمِيرُ في ﴿بَيْنَهُمْ﴾[6] عَائِدٌ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَالْمُرَادُ بِمَنْعِ الْهِدَايَةِ: مَنْعُ اللُّطْفِ تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا لُطْفَ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ في عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْهَالِكِينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ص، الآيتان 41–42.

[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: (كَذَّابٌ وَكَذُوبٌ)، وَكَذِبُهُمْ: قَوْلُهُمْ فِي بَعْضِ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ: بَنَاتُ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[1]، يَعْنِي: لَوْ أَرَادَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ لَامْتَنَعَ وَلَمْ يَصِحَّ، لِكَوْنِهِ مَحالًا وَلَمْ يَتَأَتَّ إِلَّا أَنْ يَصْطَفِي مِنْ خَلْقِهِ بَعْضَهُ وَيَخْتَصِمُهُمْ وَيُقَرِّبُهُمْ، كَمَا يَخْتَصُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ وَيُقَرِّبُهُ. وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالْمَلَائِكَةِ فَافْتَتَنْتُمْ بِهِ وَغَرَّكُمُ اخْتِصَاصُهُ إِيَّاهُمْ، فَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَوْلَادُهُ، جَهْلًا مِنْكُمْ بِهِ وَبِحَقِيقَتِهِ الْمُخَالِفَةِ لِحَقَائِقِ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ أَرَادَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ لَمْ يَزِدْ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ اصْطِفَاءِ مَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، إِلَّا أَنَّكُمْ لِجَهْلِكُمْ بِهِ حَسِبْتُمُ اصْطِفَاءَهُمُ اتِّخَاذَهُمْ أَوْلَادًا، ثُمَّ تَمَادَيْتُمْ فِي جَهْلِكُمْ وَسَفَهِكُمْ فَجَعَلْتُمُوهُمْ بَنَاتٍ، فَكُنْتُمْ كَذَّابِينَ كَفَّارِينَ مُتَبَالِغِينَ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، غَالِبِينَ فِي الْكُفْرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾[2]، فَنَزَّهَ ذَاتَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَحَدٌ مَا نَسَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يُنَافِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ وَاحِدٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَهُ صَاحِبَةٌ لَكَانَتْ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا جِنْسَ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَتَأَتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ لَمْ يَتَأَتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[3].

وَقَهَّارٌ: غَلَّابٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ آلِهَتُهُمْ، فَهُوَ يَغْلِبُهُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لَهُ أَوْلِيَاءَ وَشُرَكَاءَ؟

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[4]

ثُمَّ دَلَّ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَكْوِيرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلَوَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، وَتَسْخِيرِ النَّيِّرَيْنِ، وَجَرْيِهِمَا لِأَجَلٍ مُسَمًّى، وَبَثِّ النَّاسِ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ الْأَنْعَامَ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يُشَارَكُ، قَهَّارٌ لَا يُغَالَبُ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة الْأَنْعَامُ، الآية **101**.

4 سورة ، الآية .

وَالتَّكْوِيرُ: اللَّفُّ وَاللَّيُّ، يُقَالُ: كَارَ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَكَوَّرَهَا.

وَفِيهِ أَوْجُهٌ مِنْهَا: أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَهُ يَذْهَبُ هَذَا وَيَغْشَى مَكَانَهُ هَذَا، وَإِذَا غُشِيَ مَكَانَهُ فَكَأَنَّمَا أَلْبَسَهُ وَلَفَّ عَلَيْهِ كَمَا يَلُفُّ اللِّبَاسُ عَلَى اللَّابِسِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ فِي وَصْفِ السَّرَابِ:

تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقَيْهَا حَوَاشِيَهُ لَيَّ الْمَلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيجِ

وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَغِيبُ الْآخَرُ إِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ، فَشَبَّهَ فِي تَغْيِيبِهِ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ ظَاهِرٍ لَفَّ عَلَيْهِ مَا غَيَّبَهُ عَنْ مَطَامِحِ الْأَبْصَارِ

. وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا يَكُرُّ عَلَى هَذَا كُرُورًا مُتَتَابِعًا. فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِتَتَابُعِ أَكْوَارِ الْعِمَامَةِ بَعْضُهَا عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ.

﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ﴾[1]: الْغَالِبُ الْقَادِرُ عَلَى عِقَابِ الْمُصِرِّينَ.

"الْغَفَّارُ" لِذُنُوبِ التَّائِبِينَ، أَوِ الْغَالِبُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَالِجَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَهُوَ يَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَسَمَّى الْحُلْمَ عَنْهُمْ: مَغْفِرَةً .

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3]، وَمَا يُعْطِيهِ مِنْ مَعْنَى التَّرَاخِي؟

قُلْتُ: هُمَا آيَتَانِ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي عَدَدُهَا دَالٌّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ: تَشْعِيبُ هَذَا الْخَلْقِ الْفَائِتِ لِلْحَصْرِ مِنْ نَفْسِ آدَمَ، وَخَلْقِ حَوَّاءَ مِنْ قَصِيرَاهُ، إِلَّا أَنَّ إِحْدَاهُمَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَادَةً مُسْتَمِرَّةً، وَالْأُخْرَى لَمْ تَجْرِيهَا الْعَادَةُ، وَلَمْ تُخْلَقْ أُنْثَى غَيْرُ حَوَّاءَ مِنْ قُصَيْرَى رَجُلٍ، فَكَانَتْ أَدْخَلَ فِي كَوْنِهَا آيَةً، وَأَجْلَبُ لِعَجَبِ السَّامِعِ، فَعَطَفَهَا بِثُمَّ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى، لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُبَايَنَتِهَا لَهَا فَضْلًا وَمَزِيَّةً، وَتَرَاخِيهَا عَنْهَا فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى زِيَادَةِ كَوْنِهَا آيَةً، فَهُوَ مِنَ

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

التَّرَاخِي فِي الْحَالِ وَالْمَنْزِلَةِ، لَا مِنَ التَّرَاخِي فِي الْوُجُودِ. وَقِيلَ: ثُمَّ مُتَعَلِّقٌ بِمَعْنَى وَاحِدَةٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وُحِّدَتْ، ثُمَّ شَفَّعَهَا اللَّهُ بِزَوْجٍ. وَقِيلَ: أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ خَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ حَوَّاءَ

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾[1]: وَقَضَى لَكُمْ وَقَسَّمَ، لِأَنَّ قَضَايَاهُ وَقَسْمَهُ مَوْصُوفَةٌ بِالنُّزُولِ مِنَ السَّمَاءِ، حَيْثُ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ: كُلُّ كَائِنٍ يَكُونُ. وَقِيلَ: لَا تَعِيشُ الْأَنْعَامُ إِلَّا بِالنَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْمَاءِ. وَقَدْ أَنْزَلَ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهُ أَنْزَلَهَا. وَقِيلَ: خَلَقَهَا فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَنْزَلَهَا

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[2] ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعِزِ. وَالزَّوْجُ: اسْمٌ لِوَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ، فَإِذَا انْفَرَدَ فَهُوَ فَرْدٌ وَوِتْرٌ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[3].

﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾[4] حَيَوَانًا سَوِيًّا، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ مَكْسُوَّةٍ لَحْمًا، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ عَارِيَةٍ، مِنْ بَعْدِ مَضْغٍ، مِنْ بَعْدِ عَلَقٍ، مِنْ بَعْدِ نُطَفٍ. وَالظُّلُمَاتُ الثَّلَاثُ: الْبَطْنُ وَالرَّحِمُ وَالْمَشِيمَةُ. وَقِيلَ: الصُّلْبُ وَالرَّحِمُ وَالْبَطْنُ.

﴿ذَلِكُمُ﴾[5] الَّذِي هَذِهِ أَفْعَالُهُ هُوَ (اللَّهُ رَبُّكُمْ ... فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)، فَكَيْفَ يَعْدِلُ بِكُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْقِيَامَةُ، الآية 39.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾[1] عَنْ إِيمَانِكُمْ وَإِنَّكُمُ الْمُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، اسْتِضْرَارُكُمْ بِالْكُفْرِ وَاسْتِنْفَاعُكُمْ بِالْإِيمَانِ.

﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[2] رَحْمَةٌ لَهُمْ، لِأَنَّهُ يُوقِعُهُمْ فِي الْهَلَكَةِ

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[3]، أَيْ: يَرْضَ الشُّكْرَ لَكُمْ، لِأَنَّهُ سَبَبُ فَوْزِكُمْ وَفَلَاحِكُمْ، فَإِذَا مَا كَرِهَ كُفْرَكُمْ وَلَا رَضِيَ شُكْرَكُمْ إِلَّا لَكُمْ وَلِصَلَاحِكُمْ، لَا لِأَنَّ مَنْفَعَةً تَرْجِعُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ.

وَلَقَدْ تَمَحَّلَ بَعْضُ الْغُوَاةِ لِيُثْبِتَ لِلَّهِ –تَعَالَى– مَا نَفَاهُ عَنْ ذَاتِهِ مِنَ الرِّضَا لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، فَقَالَ: هَذَا مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصَّ، وَمَا أَرَادَ إِلَّا عِبَادَةَ الَّذِينَ عَنَاهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[4] يُرِيدُ: الْمَعْصُومِينَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[5]، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ، وَقُرِئَ: (يَرْضَهُ) بِضَمِّ الْهَاءِ بِوَصْلٍ وَبِغَيْرِ وَصْلٍ، وَبِسُكُونِهَا.

﴿خَوَّلَهُ﴾[6]: أَعْطَاهُ.

قَالَ أَبُو النَّجْمِ:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ كُومَ الذُّرَى مِنْ خِوَلِ الْمُخَوَّلِ

وَفِي حَقِيقَتِهِ وَجْهَانِ،

– أَحَدُهُمَا: جَعَلَهُ خَائِلَ مَالٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: هُوَ خَائِلُ مَالٍ، وَخَالُ مَالٍ: إِذَا كَانَ مُتَعَهِّدًا لَهُ حَسَنَ الْقِيَامِ بِهِ، وَمِنْهُ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ كَانَ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ،

– وَالثَّانِي: جَعَلَهُ يُخَوِّلُ مِنْ خَالٍ يَخُولُ إِذَا اخْتَالَ وَافْتَخَرَ، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الْعَرَبِ:

إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَيَّاسُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 65.

[5] سورة الْإِنْسَانُ، الآية 66.

[6] سورة ، الآية .

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[1]

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾[2]، أَيْ: نَسِيَ الضُّرَّ الَّذِي كَانَ يَدْعُو اللَّهَ إِلَى كَشْفِهِ. وَقِيلَ: نَسِيَ رَبَّهُ الَّذِي كَانَ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَبْتَهِلُ إِلَيْهِ.

وَ﴿مَا﴾[3] بِمَعْنَى مِنْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[4]، وَقُرِئَ: (لِيَضِلَّ) بِفَتْحِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا، بِمَعْنَى أَنَّ نَتِيجَةَ جَعْلِهِ لِلَّهِ أَنْدَادًا ضَلَالَةً عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ إِضْلَالِهِ وَالنَّتِيجَةُ: قَدْ تَكُونُ غَرَضًا فِي الْفِعْلِ، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ غَرَضٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾[5] مِنْ بَابِ الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِذْ قَدْ أَبَيْتَ قَبُولَ مَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، فَمِنْ حَقِّكَ أَلَّا تُؤْمَرَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتُؤْمَرَ بِتَرْكِهِ، مُبَالَغَةً فِي خِذْلَانِهِ وَتَخْلِيَتِهِ وَشَأْنِهِ، لِأَنَّهُ لَا مُبَالَغَةَ فِي الْخِذْلَانِ، لِأَنَّهُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُبْعَثَ عَلَى عَكْسِ مَا أُمِرَ بِهِ.

وَنَظِيرُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[6].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[7]

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة اللَّيْلُ، الآية 33.

4 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 197.

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

قُرِئَ: (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ) بِالتَّخْفِيفِ عَلَى إِدْخَالِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى مَنْ، وَبِالتَّشْدِيدِ عَلَى إِدْخَالِ "أَمْ" عَلَيْهِ.

وَ "مِنْ" مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: أَمَنَ هُوَ قَانِتٌ كَغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَهُوَ جَرْيُ ذِكْرِ الْكَافِرِ قَبْلَهُ.

وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ أَفْضَلُ أَمَّنْ هُوَ كَافِرٌ. أَوْ أَهَذَا أَفْضَلُ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ الْمُتَّصِلِ.

وَالْقَانِتُ: الْقَائِمُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ"، وَهُوَ الْقِيَامُ فيها. وَمِنْهُ الْقُنُوتُ في الْوِتْرِ، لِأَنَّهُ دُعَاءُ الْمُصَلِّي قَائِمًا.

﴿سَاجِدًا﴾[2] حَالٌ. وَقُرِئَ: (سَاجِدٌ وَقَائِمٌ) عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَالْوَاوُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ. وَقُرِئَ: (وَيَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ).

وَأَرَادَ بـ ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾[3]: الْعَامِلِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّيَانَةِ، كَأَنَّهُ جَعَلَ مَنْ لَا يَعْمَلُ غَيْرَ عَالِمٍ. وَفيهِ ازْدِرَاءٌ عَظِيمٌ بِالَّذِينِ يَقْتَنُونَ الْعُلُومَ، ثُمَّ لَا يَقْتَنُونَ، وَيَفْتِنُونَ، ثُمَّ يُفْتَنُونَ بِالدُّنْيَا، فَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ جَهَلَةٌ، حَيْثُ جَعَلَ الْقَانِتِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَدَّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ، أَيْ: كَمَا لَا يَسْتَوِي الْعَالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْقَانِتُونَ وَالْعَاصُونَ.

وَقِيلَ: وَنَزَلَتْ في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَأَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةَ الْمَخْزُومِيِّ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ يَتَمَادَى في الْمَعَاصِي وَيَرْجُو، فَقَالَ: هَذَا تَمَنِّ وَالرَّجَاءُ قَوْلُهُ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَقُرِئَ: (إِنَّمَا ذَكَّرَ) بِالْإِدْغَامِ.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾[1] مُتَعَلِّقٌ بِأَحْسَنُوا لَا بِحَسَنَةٍ، مَعْنَاهُ: الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَهُمْ حَسَنَةٌ فِي الْآخِرَةِ. وَهِيَ دُخُولُ الْجَنَّةِ، أَيْ: حَسَنَةٌ غَيْرُ مُكْتَنِهَةٍ بِالْوَصْفِ.

وَقَدْ عَلَّقَهُ السُّدِّيُّ بِحَسَنَةٍ، فَفَسَّرَ بِحَسَنَةٍ بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا عَلَّقَ الظَّرْفَ بِأَحْسَنُوا فَإِعْرَابُهُ ظَاهِرٌ، فَمَا مَعْنَى تَعْلِيقِهِ بِحَسَنَةٍ؟ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ صِفَةً لَهَا لِتُقَدِّمَهُ.

قُلْتُ: هُوَ صِفَةٌ لَهَا إِذَا تَأَخَّرَ، فَإِذَا تَقَدَّمَ كَانَ بَيَانًا لِمَكَانِهَا فَلَمْ يَخْلُ التَّقَدُّمُ بِالتَّعَلُّقِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ التَّعَلُّقُ وَصْفًا.

وَمَعْنَى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾[2] أَنْ لَا عُذْرَ لِلْمُفَرِّطِينَ فِي الْإِحْسَانِ الْبَتَّةَ، حَتَّى إِنِ اعْتَلَوْا بِأَوْطَانِهِمْ وَبِلَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَمَكَّنُونَ فيها مِنَ التَّوَفُّرِ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَصَرْفِ الْهِمَمِ إِلَيْهِ قِيلَ لَهُمْ: فَإِنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَبِلَادُهُ كَثِيرَةٌ، فَلَا تَجْتَمِعُوا مَعَ الْعَجْزِ، وَتُحَوِّلُوا إِلَى بِلَادٍ أُخَرَ، وَاقْتَدُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي مُهَاجَرَتِهِمْ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ، لِيَزْدَادُوا إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِهِمْ وَطَاعَةً إِلَى طَاعَتِهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ لِلَّذِينِ كَانُوا فِي بَلَدِ الْمُشْرِكِينَ فَأُمِرُوا بِالْمُهَاجَرَةِ عَنْهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[3].

وَقِيلَ: هِيَ أَرْضُ الْجَنَّةِ.

وَ﴿الصَّابِرُونَ﴾[4] الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَعَلَى غَيْرِهَا. مِنْ تَجَرُّعِ الْغُصَصِ وَاحْتِمَالِ الْبَلَايَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَازْدِيَادِ الْخَيْرِ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5] لَا يُحَاسَبُونَ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَغَيْرِ مِيزَانٍ يُغْرَفُ لَهُمْ غُرَفًا، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلتَّكْثِيرِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ حِسَابُ الْحِسَابِ وَلَا يَعْرِفُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يَنْصِبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيؤْتَى بِأَهْلِ الصَّلَاةِ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْحَجِّ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة النِّسَاءُ، الآية 97.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

لَهُمْ دِيوَانٌ، وَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرَ صَبًّا، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، حَتَّى يَتَمَنَّى أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ مِمَّا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَضْلِ".

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2]

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾[3] بِإِخْلَاصِ الدِّينِ، ﴿وَأُمِرْتُ﴾[4] بِذَلِكَ "لِـ" أَجْلِ.

﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[5]، أَيْ: مُقَدِّمُهُمْ وَسَابِقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِخْلَاصَ لَهُ السَّبْقَةُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ أَخْلَصَ كَانَ سَابِقًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَطَفَ ﴿أُمِرْتُ﴾[6] عَلَى ﴿أُمِرْتُ﴾[7] وَهُمَا وَاحِدٌ؟

قُلْتُ: لَيْسَا بِوَاحِدٍ لِاخْتِلَافِ جِهَتَيْهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِخْلَاصِ وَتَكْلِيفِهِ شَيْءٌ، وَالْأَمْرُ بِهِ لِيُحْرِزَ الْقَائِمُ بِهِ قَصْبَ السَّبْقِ فِي الدِّينِ شَيْءٌ، وَإِذَا اخْتَلَفَ وَجْهَا الشَّيْءِ وَصِفَتَاهُ يَنْزِلُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفِينِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّامَ مَزِيدَةً مِثْلَهَا فِي أَرَدْتُ لِأَنْ أَفْعَلَ ، وَلَا تُزَادُ إِلَّا مَعَ أَنَّ خَاصَّةً دُونَ الِاسْمِ الصَّرِيحِ، كَأَنَّهَا زِيدَتْ عِوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ إِلَى مَا يَقُومُ مَقَامَهُ، كَمَا عَوَّضَ السِّينَ فِي اسْطَاعَ عِوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ أَطْوَعُ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهُ مَجِيئُهُ بِغَيْرِ لَامٍ في قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وَ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[3].

وَفِي مَعْنَاهُ أَوْجُهٌ: أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ في زَمَانِي وَمِنْ قَوْمِي، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَخَلَعَ الْأَصْنَامَ وَحَطَّمَهَا، وَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الَّذِينَ دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ إِسْلَامًا، وَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ دَعَا نَفْسَهُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ غَيْرُهُ، لِأَكُونَ مُقْتَدًى بِي في قَوْلِي وَفِعْلِي جَمِيعًا، وَلَا تَكُونُ صِفَتِي صِفَةُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ، وَأَنْ أَفْعَلَ مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ الْأَوَّلِيَّةَ مِنْ أَعْمَالِ السَّابِقَيْنِ دَلَالَةً عَلَى السَّبَبِ بِالْمُسَبِّبِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُخْلِصَ لَهُ الدِّينَ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ وَكُلِّ شَوْبٍ، بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ. فَإِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِمُخَالَفَةِ الدَّلِيلَيْنِ، اسْتَوْجَبْتُ عَذَابَهُ فَلَا أَعْصِيَهُ وَلَا أُتَابِعُ أَمْرَكُمْ، وَذَلِكَ حِينَ دَعَوْهُ إِلَى دِينِ آبَائِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى التَّكْرِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[4]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[5]؟

قُلْتُ: لَيْسَ بِتَكْرِيرٍ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ مَأْمُورٌ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ بِإِحْدَاثِ الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ. وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ يَخْتَصُّ اللَّهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ، وَلِدَلَالَتِهِ عَلَى ذَلِكَ قَدَّمَ الْمَعْبُودَ عَلَى فِعْلِ الْعِبَادَةِ وَأَخَّرَهُ في الْأَوَّلِ، فَالْكَلَامُ أَوَّلًا وَاقِعٌ في الْفِعْلِ نَفْسِهِ وَإِيجَادِهِ، وَثَانِيًا فِيمَنْ يَفْعَلُ الْفِعْلَ لِأَجْلِهِ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾[6].

وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْوَارِدِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ: الْمُبَالَغَةُ في الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ، عَلَى مَا حَقَّقْتَ فِيهِ الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ.

قُلْ إِنَّ الْكَامِلِينَ في الْخُسْرَانِ الْجَامِعِينَ لِوُجُوهِهِ وَأَسْبَابِهِ هُمْ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[7] لِوُقُوعِهَا في هَلَكَةٍ لَا هَلَكَةَ بَعْدَهَا، (وَ) خَسِرُوا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾[8] لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مِنْ

---

[1] سورة يُونُسُ، الآية 72.

[2] سورة يُونُسُ، الآية 104.

[3] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 144.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

أَهْلِ النَّارِ فَقَدْ خَسِرُوهُمْ كَمَا خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَدْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ ذِهَابًا لَا رُجُوعَ بَعْدَهُ إِلَيْهِمْ. وَقِيلَ: وَخَسِرُوهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا مَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَهْلٌ فِي الْجَنَّةِ، يَعْنِي: وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يَكُونُونَ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا، وَلَقَدْ وَصَفَ خُسْرَانَهُمْ بِغَايَةِ الْفَظَاعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[1] حَيْثُ اسْتَأْنَفَ الْجُمْلَةَ وَصَدَّرَهَا بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ، وَوَسَّطَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، وَعَرَّفَ الْخُسْرَانَ وَنَعَتَهُ بِالْمُبِينِ.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[2]

﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾[3] أَطْبَاقٌ مِنَ النَّارِ هِيَ ﴿ظُلَلٌ﴾[4] لِآخَرِينَ.

﴿ذَلِكَ﴾[5] الْعَذَابُ هُوَ الَّذِي يَتَوَعَّدُ اللَّهُ ﴿بِهِ عِبَادَهُ﴾[6] وَيُخَوِّفُهُمْ، لِيَجْتَنِبُوا مَا يُوقِعُهُمْ فِيهِ.

﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[7] فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِمَا يُوجِبُ سُخْطِي، وَهَذِهِ عِظَةٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– وَنَصِيحَةٌ بَالِغَةٌ، وَقُرِئَ: (يَا عِبَادِي).

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[8]

---

[8] سورة ، الآية .

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

﴿الطَّاغُوتَ﴾[1] فَعَلُوتَ مِنَ الطُّغْيَانِ كَالْمَلَكُوتِ وَالرَّحَمُوتِ، إِلَّا أَنَّ فيها قَلْبًا بِتَقْدِيمِ اللَّامِ عَلَى الْعَيْنِ، أُطْلِقَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ أَوِ الشَّيَاطِينِ، لِكَوْنِهَا مَصْدَرًا وَفيها مُبَالَغَاتٌ، وَهِيَ التَّسْمِيَةُ بِالْمَصْدَرِ، كَأَنَّ عَيْنَ الشَّيْطَانِ طُغْيَانٌ، وَأَنَّ الْبِنَاءَ بِنَاءُ مُبَالَغَةٍ، فَإِنَّ الرَّحَمُوتَ: الرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ، وَالْمَلَكُوتَ: الْمُلْكُ الْمَبْسُوطُ، وَالْقَلْبُ هُوَ لِلِاخْتِصَاصِ، إِذْ لَا تُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ الشَّيْطَانِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هَهُنَا الْجَمْعُ. وَقُرِئَ: (الطَّوَاغِيتُ).

﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾[2] بَدَلٌ مِنَ الطَّاغُوتِ بَدَلُ الِاشْتِمَالِ، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ هِيَ الْبِشَارَةُ بِالثَّوَابِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[3]، اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يُبَشِّرُهُمْ بِذَلِكَ في وَحْيِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ مُبَشِّرِينَ، وَحِينَ يُحْشَرُونَ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾[4]، وَأَرَادَ بِعِبَادِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[5] الَّذِينَ اجْتَنَبُوا وَأَنَابُوا لَا غَيْرُهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الِاجْتِنَابِ وَالْإِنَابَةِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، فَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونُوا نُقَّادًا في الدِّينِ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ وَالْفَاضِلِ وَالْأَفْضَلِ، فَإِذَا اعْتَرَضَهُمْ أَمْرَانِ: وَاجِبٌ وَنَدْبٌ، اخْتَارُوا الْوَاجِبَ، وَكَذَلِكَ الْمُبَاحُ وَالنَّدْبُ، حُرَّاصًا عَلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْثَرُ ثَوَابًا، وَيَدْخُلُ تَحْتَهُ الْمَذَاهِبُ وَاخْتِيَارُ أَثْبَتِهَا عَلَى السَّبْكِ وَأَقْوَاهَا عِنْدَ السَّبْرِ، وَأَبْيَنُهَا دَلِيلًا أَوْ أَمَارَةً، وَأَنْ لَا تَكُونَ في مَذْهَبِكَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَلا تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قَيْدٍ فَانْقَادَا

يُرِيدُ الْمُقَلِّدَ، وَقِيلَ: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ فيتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ. وَقِيلَ: يَسْتَمِعُونَ أَوَامِرَ اللَّهِ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهَا، وَنَحْوُ: الْقِصَاصُ وَالْعَفْوُ، وَالِانْتِصَارُ وَالْإِغْضَاءُ، وَالْإِبْدَاءُ وَالْإِخْفَاءُ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة يُونُسُ، الآية 64.

[4] سورة الْحَدِيدُ، الآية 12.

[5] سورة ، الآية .

لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُوَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ مَعَ الْقَوْمِ فيسْمَعُ الْحَدِيثَ فيهِ مَحَاسِنُ وَمُسَاوٍ، فيحَدِّثُ بِأَحْسَنِ مَا سَمِعَ وَيَكُفُّ عَمَّا سِوَاهُ.

وَمِنَ الْوَقْفَةِ مَنْ يَقِفُ عَلَى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[3]، وَيَبْتَدِئُ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾[4]، يَرْفَعُهُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ ﴿أُولَئِكَ﴾[5].

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾[6]

أَصْلُ الْكَلَامِ: أَمَّنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَأَنْتِ تُنْقِذُهُ، جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ دَخَلَ عَلَيْهَا هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، وَالْفَاءُ فَاءُ الْجَزَاءِ، ثُمَّ دَخَلَتِ الْفَاءُ الَّتِي فِي أَوَّلِهَا لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْخِطَابُ، تَقْدِيرُهُ: أَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ، فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فَأَنْتَ تُنْقِذُهُ، وَالْهَمْزَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ الْأُولَى، كُرِّرَتْ لِتَوْكِيدِ مَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ، وَوُضِعَ ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾[7] مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، فَالْآيَةُ عَلَى هَذَا جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ جُمْلَتَيْنِ: أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فَأَنْتَ تُخَلِّصُهُ؟ ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾[8]؟

---

1 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 237.

2 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 271.

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

8 سورة ، الآية .

وَإِنَّمَا جَازَ حَذْفُ: فَأَنْتَ تُخَلِّصُهُ، لِأَنَّ ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾[1] يَدُلُّ عَلَيْهِ، نَزَلَ اسْتِحْقَاقُهُمُ الْعَذَابَ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَنْزِلَةَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، حَتَّى نَزَلَ اجْتِهَادُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَدُّهُ نَفْسَهُ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ فِي مَنْزِلَةِ إِنْقَاذِهِمْ مِنَ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾[2] يُفِيدُ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْقَاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَكَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْتَ أَنْ تَنْقُذَ الدَّاخِلَ فِي النَّارِ مِنَ النَّارِ، لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ بِتَحْصِيلِ الْإِيمَانِ فِيهِ.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾[3]

﴿غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾[4] عَلَالِي بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: "مَبْنِيَّةٌ"؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ-: أَنَّهَا بُنِيَتْ بِنَاءَ الْمَنَازِلِ الَّتِي عَلَى الْأَرْضِ وَسُوِّيَتْ تَسْوِيَتَهَا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[5] كَمَا تَجْرِي تَحْتَ الْمَنَازِلِ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾[6] مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ لَهُمْ غُرَفٌ فِي مَعْنَى: وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[7]

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[1] هُوَ الْمَطَرُ. وَقِيلَ: كُلُّ مَاءٍ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ مِنْهَا إِلَى الصَّخْرَةِ، ثُمَّ يُقَسِّمُهُ اللَّهُ، "فَسَلَكَهُ" فَأَدْخَلَهُ وَنَظَّمَهُ ﴿يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾[2] عُيُونًا وَمَسَالِكَ وَمَجَارِيَ كَالْعُرُوقِ فِي الْأَجْسَادِ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾[3] هَيْئَاتُهُ مِنْ خُضْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَبَيَاضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَصْنَافُهُ مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ وَسِمْسِمٍ وَغَيْرِهَا، ﴿يَهِيجُ﴾[4] يَتِمُّ جَفَافُهُ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ، لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ جَفَافُهُ حَانَ لَهُ أَنْ يَثُورَ عَنْ مَنَابِتِهِ وَيَذْهَبَ ﴿حُطَامًا﴾[5] فُتَاتًا وَدَرِينًا

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾[6] لَتَذْكِيرًا وَتَنْبِيهًا، عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ تَقْدِيرٍ وَتَدْبِيرٍ، لَا عَنْ تَعْطِيلٍ وَإِهْمَالٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[7]، ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[8].

وَقُرِئَ: (مُصْفَارًّا).

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة يُونُسُ، الآية 24.

[8] سورة الْكَهْفُ، الآية 45.

[9] سورة ، الآية .

﴿أَفَمَنْ﴾[1] عَرَفَ اللَّهَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ اللُّطْفِ فَلَطَفَ بِهِ حَتَّى انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَرَغِبَ فِيهِ وَقَبِلَهُ كَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ، فَهُوَ حَرَجُ الصَّدْرِ قَاسِي الْقَلْبِ، وَنُورُ اللَّهِ: هُوَ لُطْفُهُ، وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ؟ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ"، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: "الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالتَّأَهُّبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ"، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾[2] فِي حَذْفِ الْخَبَرِ.

﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3] مِنْ أَجْلِ ذِكْرِهِ، أَيْ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ أَوْ آيَاتِهِ اشْمَأَزُّوا وَازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ قَسَاوَةً، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[4].

وَقُرِئَ: (عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ وَعَنْ فِي هَذَا؟

قُلْتُ: إِذَا قُلْتَ: قَسَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّ الْقَسْوَةَ مِنْ أَجْلِ الذِّكْرِ وَبِسَبَبِهِ، وَإِذَا قُلْتَ: عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى: غَلِظَ عَنْ قَبُولِ الذِّكْرِ وَجَفَا عَنْهُ. وَنَظِيرُهُ: سَقَاهُ مِنَ الْعَيْمَةِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ عَطَشِهِ، وَسَقَاهُ عَنِ الْعَيْمَةِ: إِذَا أَرْوَاهُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْعَطَشِ.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[5]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَلُّوا مِلَّةً، فَقَالُوا لَهُ: حَدِّثْنَا فَنَزَلَتْ، وَإِيقَاعُ اسْمِ اللَّهِ مُبْتَدَأً وَبِنَاءُ ﴿نَزَّلَ﴾[6] عَلَيْهِ فِيهِ: تَفْخِيمٌ لِأَحْسَنِ الْحَدِيثِ، وَرَفْعٌ مِنْهُ، وَاسْتِشْهَادٌ عَلَى حُسْنِهِ، وَتَأْكِيدٌ لِاسْتِنَادِهِ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّهُ مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الزُّمَرُ، الآية 9.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة التَّوْبَةُ، الآية 125.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

عِنْدِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدُرَ إِلَّا عَنْهُ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مُعْجِزٌ مُبَايِنٌ لِسَائِرِ الْأَحَادِيثِ.

وَ﴿كِتَابًا﴾[1] بَدَلٌ مِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْهُ، ﴿مُتَشَابِهًا﴾[2] مُطْلَقٌ فِي مُشَابَهَةِ بَعْضِهِ بَعْضًا، فَكَانَ مُتَنَاوِلًا لِتَشَابُهِ مَعَانِيهِ فِي الصِّحَّةِ وَالْإِحْكَامِ، وَالْبِنَاءِ عَلَى الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَمَنْفَعَةِ الْخَلْقِ، وَتَنَاسُبِ أَلْفَاظِهِ وَتَنَاصُفِهَا فِي التَّخَيُّرِ وَالْإِصَابَةِ، وَتَجَاوَبَ نَظْمُهُ وَتَأْلِيفُهُ فِي الْإِعْجَازِ وَالتَّبْكِيتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَثَانِيَ﴾[3] بَيَانًا لِكَوْنِهِ مُتَشَابِهًا، لِأَنَّ الْقِصَصَ الْمُكَرَّرَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مُتَشَابِهَةً. وَالْمَثَانِي: جَمْعُ مَثْنًى بِمَعْنَى مُرَدَّدٌ مُكَرَّرٌ، وَلَمَّا ثُنِّيَ مِنْ قِصَصِهِ وَأَنْبَائِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَمَوَاعِظِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يُثْنِي فِي التِّلَاوَةِ، فَلَا يَمِلْ كَمَا جَاءَ فِي وَصْفِهِ لَا يَتْفَهُ وَلَا يَتْشَانُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ مُثَنًّى مَفْعَلٌ، مِنَ التَّثْنِيَةِ بِمَعْنَى التَّكْرِيرِ، وَالْإِعَادَةِ كَمَا كَانَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[4]، بِمَعْنَى كَرَّةٍ بَعْدَ كَرَّةٍ، وَكَذَلِكَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَحَنَانَيْكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وُصِفَ الْوَاحِدُ بِالْجَمْعِ؟

قُلْتُ: إِنَّمَا صَحَّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكِتَابَ جُمْلَةٌ ذَاتُ تَفَاصِيلَ، وَتَفَاصِيلُ الشَّيْءِ هِيَ جُمْلَتُهُ لَا غَيْرَ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: الْقُرْآنُ أَسْبَاعٌ وَأَخْمَاسٌ، وَسُوَرٌ وَآيَاتٌ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ: أَقَاصِيصُ وَأَحْكَامٌ وَمَوَاعِظُ مُكَرَّرَاتٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: الْإِنْسَانُ عِظَامٌ وَعُرُوقٌ وَأَعْصَابٌ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَكْتَ الْمَوْصُوفَ إِلَى الصِّفَةِ، وَأَصْلُهُ: كِتَابًا مُتَشَابِهًا فُصُولًا مَثَانِيَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَقَوْلِكَ: بِرُمَّةِ أَعْشَارٍ، وَثَوْبِ أَخْلَاقٍ. وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ مَثَانِي صِفَةٌ، وَيَكُونُ مُنْتَصِبًا عَلَى التَّمْيِيزِ مِنْ "مُتَشَابِهًا"، كَمَا تَقُولُ: رَأَيْتُ رَجُلًا حَسَنًا شَمَائِلَ، وَالْمَعْنَى: مُتَشَابِهَةٌ مَثَانِيَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ التَّثْنِيَةِ وَالتَّكْرِيرِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْمُلْكُ، الآية 4.

قُلْتُ: النُّفُوسُ أَنْفَرُ شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ الْوَعْظِ وَالنَّصِيحَةِ، فَمَا لَمْ يُكَرَّرْ عَلَيْهَا عَوْدًا عَنْ بَدْءٍ لَمْ يُرَسِّخْ فيها وَلَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يُكَرِّرَ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ يَغِطُّ بِهِ وَيَنْصَحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَسَبْعًا، لِيُرَكِّزَهُ في قُلُوبِهِمْ، وَيَغْرِسَهُ في صُدُورِهِمُ. اقْشَعَرَّ الْجِلْدُ: إِذَا تَقَبَّضَ تَقَبُّضًا شَدِيدًا، وَتَرْكِيبُهُ مِنْ حُرُوفِ الْقَشْعِ، وَهُوَ الْأَدِيمُ الْيَابِسُ، مَضْمُومًا إِلَيْهَا حَرْفٌ رَابِعٌ وَهُوَ الرَّاءُ، لِيَكُونَ رُبَاعِيًّا وَدَالًّا عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ. يُقَالُ: اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَقَفَ شَعْرُهُ، وَهُوَ مَثَلٌ في شِدَّةِ الْخَوْفِ، فيجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ التَّمْثِيلَ، تَصْوِيرًا لِإِفْرَاطِ خَشْيَتِهِمْ، وَأَنْ يُرِيدَ التَّحْقِيقَ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِالْقُرْآنِ وَبِآيَاتِ وَعِيدِهِ أَصَابَتْهُمْ خَشْيَةٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا جُلُودُهُمْ، ثُمَّ إِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ وَجُودَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لَانَتْ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَزَالَ عَنْهَا مَا كَانَ بِهَا مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْقَشْعَرِيرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ تَعَدِّيهِ "لَانَ" بِإِلَى؟

قُلْتُ: ضَمِنَ مَعْنَى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ بِإِلَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَكَنَتْ، أَوِ اطْمَأَنَّتْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، لَيِّنَةً غَيْرُ مُنْقَبِضَةٍ، رَاجِيَةً غَيْرُ خَاشِيَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَرَحْمَتُهُ هِيَ سَابِقَةُ غَضَبَهُ، فَلِأَصَالَةِ رَحْمَتِهِ إِذَا ذَكَرَ لَمْ يَخْطُرْ بِالْبَالِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ إِلَّا كَوْنُهُ رَؤُوفًا رَحِيمًا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِرَتِ الْجُلُودُ وَحْدَهَا أَوَّلًا، ثُمَّ قُرِنَتْ بِهَا الْقُلُوبُ؟ ثَانِيًا؟

قُلْتُ: إِذَا ذُكِرَتِ الْخَشْيَةُ الَّتِي مَحَلُّهَا الْقُلُوبُ، فَقَدْ ذُكِرَتِ الْقُلُوبُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ، وَتَخْشَى قُلُوبُهُمْ في أَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَإِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَمَبْنَى أَمْرِهِ عَلَى الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، اسْتَبْدَلُوا بِالْخَشْيَةِ رَجَاءً في قُلُوبِهِمْ، وَبِالْقُشَعْرِيرَةِ لِينًا في جُلُودِهِمْ.

﴿ذَلِكَ﴾[1] إِشَارَةٌ إِلَى الْكِتَابِ، وَهُوَ ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ﴾[2] يُوَفِّقُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، يَعْنِي: عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَخْشَوْا تِلْكَ الْخَشْيَةَ وَيَرْجُوا ذَلِكَ الرَّجَاءَ، كَمَا قَالَ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 2.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[1]: وَمَنْ يَخْذُلُهُ مِنَ الْفُسَّاقِ وَالْفَجَرَةِ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[2]، أَوْ ذَلِكَ الْكَائِنِ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالرَّجَاءِ هُدَى اللَّهِ، أَيْ: أَثَرُ هَدَاهُ وَهُوَ لُطْفُهُ، فَسَمَّاهُ هُدًى، لِأَنَّهُ حَاصِلٌ بِالْهُدَى، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾[3] بِهَذَا الْأَثَرِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[4] مِنْ عِبَادِهِ، يَعْنِي: مَنْ صَحِبَ أُولَئِكَ وَرَآهُمْ خَاشِينَ رَاجِينَ، فَكَانَ ذَلِكَ مُرَغِّبًا لَهُمْ فِي الِاقْتِدَاءِ بِسِيرَتِهِمْ وَسُلُوكِ طَرِيقَتِهِمْ .

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[5]: وَمَنْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ أَلْطَافُهُ، لِقَسْوَةِ قَلْبِهِ، وَإِصْرَارُهُ عَلَى فُجُورِهِ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[6] مِنْ مُؤَثِّرٍ فِيهِ بِشَيْءٍ قَطُّ .

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[7]

يُقَالُ: اتَّقَاهُ بِدَرَقَتِهِ اسْتَقْبَلَهُ بِهَا فَوْقِيَ بِهَا نَفْسَهُ إِيَّاهُ وَاتَّقَاهُ بِيَدِهِ.

وَتَقْدِيرُهُ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[8] كَمَنْ أَمِنَ الْعَذَابَ، فَحَذَفَ كَمَا حَذَفَ فِي نَظَائِرِهِ، وَ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾[9]: شِدَّتُهُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَقِيَ مَخُوفًا مِنَ الْمَخَاوِفِ اسْتَقْبَلَهُ بِيَدِهِ، وَطَلَبَ أَنْ يَقِيَ بِهَا وَجْهَهُ، لِأَنَّهُ أَعَزُّ أَعْضَائِهِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يُلْقَى فِي النَّارِ يُلْقَى مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ إِلَّا بِوَجْهِهِ الَّذِي كَانَ يَتَّقِي الْمَخَاوِفَ بِغَيْرِهِ، وِقَايَةً لَهُ وَمُحَامَاةً عَلَيْهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الْجُمْلَةُ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .
9 سورة ، الآية .

جَهْلٍ. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ: ﴿ذُوقُواْ﴾[1] وَبَالَ (مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ..... مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي لَا يَحْتَسِبُونَ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَنَّ الشَّرَّ يَأْتِيهِمْ مِنْهَا، بَيْنَا هُمْ آمِنُونَ رَافِهُونَ إِذْ فُوجِئُوا مِنْ مَأْمَنِهِمْ. وَالْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالصَّغَارُ، كَالْمَسْحِ وَالْخَسْفِ وَالْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ نَكَالِ اللَّهِ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[2]

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ، كَقَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ رَجُلًا صَالِحًا وَإِنْسَانًا عَاقِلًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[4] مُسْتَقِيمًا بَرِيئًا مِنَ التَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: مُسْتَقِيمًا، أَوْ غَيْرَ مُعْوَجٍّ؟

قُلْتُ: فيهِ فَائِدَتَانِ:

– إِحْدَاهُمَا: نَفى أَنْ يَكُونَ فيهِ عِوَجٌ قَطُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[5]؛

– وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ لَفْظَ الْعِوَجِ مُخْتَصٌّ بِالْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْعِوَجِ: الشَّكُّ وَاللَّبْسُ.

وَأَنْشَدَ:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْكَهْفُ، الآية 1.

[6] سورة ، الآية .

وَاضْرِبْ لِقَوْمِكَ مَثَلًا، وَقُلْ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ في رَجُلٍ مِنَ الْمَمَالِيكِ قَدِ اشْتَرَكَ فيهِ شُرَكَاءُ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ وَتَنَازُعٌ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَبْدُهُ، فَهُمْ يَتَجَاذَبُونَهُ وَيَتَعَاوَرُونَهُ في مِهَنٍ شَتَّى وَمُشَادَّةٍ، وَإِذَا عَنَّتْ لَهُ حَاجَةٌ تَدَافَعُوهُ، فَهُوَ مُتَحَيِّرٌ في أَمْرِهِ سَادِرٌ، قَدْ تَشَعَّبَتِ الْهُمُومُ قَلْبَهُ وَتَوَزَّعَتْ أَفْكَارَهُ، لَا يَدْرِي أَيَّهُمْ يَرْضَى بِخِدْمَتِهِ؟ وَعَلَى أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ في حَاجَاتِهِ؟ وَفي آخِرٍ: قَدْ سَلَّمَ لِمَالِكٍ وَاحِدٍ وَخَلُصَ لَهُ، فَهُوَ مُعْتَنِقٌ لِمَا لَزِمَهُ مِنْ خِدْمَتِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ فيمَا يُصْلِحُهُ، فَهْمُهُ وَاحِدٌ وَقَلْبُهُ مُجْتَمِعٌ، أَيْ: هَذَيْنِ الْعَبْدَيْنِ أَحْسَنُ حَالًا وَأَجْمَلُ شَأْنًا؟

وَالْمُرَادُ: تَمْثِيلُ حَالِ مَنْ يُثْبِتُ آلِهَةً شَتَّى، وَمَا يَلْزَمُهُ عَلَى قَضِيَّةِ مَذْهَبِهِ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُبُودِيَّتَهُ، وَيَتَشَاكَسُوا في ذَلِكَ وَيَتَغَالَبُوا، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1]، وَيَبْقَى هُوَ مُتَحَيِّرًا ضَائِعًا لَا يَدْرِي أَيَّهُمْ يَعْبُدُ؟ وَعَلَى رُبُوبِيَّةِ أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ؟ وَمِمَّنْ يَطْلُبُ رِزْقَهُ؟ وَمِمَّنْ يَلْتَمِسُ رِفْقَهُ؟ فَهْمُهُ شُعَاعٌ، وَقَلْبُهُ أَوْزَاعٌ، وَحَالُ مَنْ لَمْ يُثْبِتْ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا، فَهُوَ قَائِمٌ بِمَا كَلَّفَهُ، عَارِفٌ بِمَا أَرْضَاهُ وَمَا أَسْخَطَهُ، مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِ في عَاجِلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِلثَّوَابِ مِنْ أَجْلِهِ.

وَ﴿فيهِ﴾[2] صِلَةُ شُرَكَاءَ، كَمَا تَقُولُ: اشْتَرَكُوا فيهِ. وَالتَّشَاكُسُ وَالتَّشَاخُسُ: الِاخْتِلَافُ، تَقُولُ: تَشَاكَسَتْ أَحْوَالُهُ، وَتَشَاخَسَتْ أَسْنَانُهُ، ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾[3] خَالِصًا. وَقُرِئَ: (سَلَمًا) بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ، وَفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِهَا مَعَ سُكُونِ الْعَيْنِ، وَهِيَ مَصَادِرُ سَلِمَ. وَالْمَعْنَى: ذَا سَلَامَةٍ لِرَجُلٍ، أَيْ: ذَا خُلُوصٍ لَهُ مِنَ الشِّرْكَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: سَلَّمْتُ لَهُ الضَّيْعَةَ. وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، أَيْ: وَهُنَاكَ رَجُلٌ سَالِمٌ لِرَجُلٍ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ رَجُلًا، لِيَكُونَ أَفْطَنَ لِمَا شَقِيَ بِهِ أَوْ سَعِدَ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ قَدْ يَغْفُلَانِ عَنْ ذَلِكَ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا﴾[4]؟ هَلْ يَسْتَوِيَانِ: صِفَةٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَالْمَعْنَى: هَلْ يَسْتَوِي صِفَتَاهُمَا وَحَالَاهُمَا، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ في التَّمْيِيزِ عَلَى الْوَاحِدِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ. وَقُرِئَ: (مَثَلَيْنِ) كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا﴾[5] مَعَ قَوْلِهِ: (أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وَيَجُوزُ فيمَنْ قَرَأَ: (مَثَلَيْنِ)، أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ في "يَسْتَوِيَانِ" لِلْمَثَلَيْنِ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: مِثْلُ رَجُلٍ وَمِثْلُ رَجُلٍ.

---

[1] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 91.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة التَّوْبَةُ، الآية 69.

وَالْمَعْنَى: هَلْ يَسْتَوِيَانِ فيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْوَصْفِيةِ، كَمَا تَقُولُ: كَفى بِهِمَا رَجُلَيْنِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ دُونَ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، أَيْ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْدُ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَالْعِبَادَةُ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، فيشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[3]

كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَوْتِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَوْتَ يَعُمُّهُمْ، فَلَا مَعْنَى لِلتَّرَبُّصِ، وَشَمَاتَةِ الْبَاقِي بِالْفَانِي.

وَعَنْ قَتَادَةَ: نَعَى إِلَى نَبِيِّهِ نَفْسِهِ، وَنَعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ. وَقُرِئَ: (مَائِتٌ وَمَائِتُونَ)، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَيِّتِ وَالْمَائِتِ: أَنَّ الْمَيِّتَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ كَالسَّيِّدِ، وَأَمَّا الْمَائِتُ فَصِفَةٌ حَادِثَةٌ، تَقُولُ: زَيْدٌ مَائِتٌ غَدًا، كَمَا تَقُولُ: سَائِدٌ غَدًا، أَيْ سَيَمُوتُ وَسَيَسُودُ.

وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ مَيِّتٌ، فَكَمَا تَقُولُ: حَيٌّ فِي نَقِيضِهِ، فيمَا يَرْجِعُ إِلَى اللُّزُومِ وَالثُّبُوتِ. وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[4] إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ أَحْيَاءً فَأَنْتُمْ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى، لِأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَكَأَنَّ قَدْ كَانَ، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾[5] ثُمَّ إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ، فَغَلَبَ ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِ عَلَى ضَمِيرِ الْغَيْبِ.

"تَخْتَصِمُونَ" فَتَحْتَجُّ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكَ بَلَّغْتَ فَكَذَّبُوا، فَاجْتَهَدْتَ فِي الدَّعْوَةِ فَلَجُّوا فِي الْعِنَادِ، وَيَعْتَذِرُونَ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، تَقُولُ الْأَتْبَاعُ: أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا، وَتَقُولُ السَّادَاتُ: أَغْوَتْنَا الشَّيَاطِينُ وَآبَاؤُنَا الْأَقْدَمُونَ، وَقَدْ حُمِلَ عَلَى اخْتِصَامِ الْجَمِيعِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

يُخَاصِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾[1]، وَالْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ يُبَكِّتُونَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَهْلُ الْقِبْلَةِ يَكُونُ بَيْنَهُمُ الْخِصَامُ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَدِينِنَا، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِينَا وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ؟ قُلْنَا: كَيْفَ نَخْتَصِمُ وَنَبِيُّنَا وَاحِدٌ وَدِينُنَا وَاحِدٌ وَكِتَابُنَا وَاحِدٌ؟ حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَنَا يَضْرِبُ وُجُوهَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِينَا.

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: كُنَّا نَقُولُ: رَبُّنَا وَاحِدٌ وَنَبِيُّنَا وَاحِدٌ وَدِينُنَا وَاحِدٌ، فَمَا هَذِهِ الْخُصُومَةُ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ صِفِينَ وَشَدَّ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ، قُلْنَا: نَعَمْ هُوَ هَذَا.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيِّ قَالَتِ الصَّحَابَةُ: مَا خُصُومَتُنَا وَنَحْنُ إِخْوَانٌ؟ فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالُوا: هَذِهِ خُصُومَتُنَا.

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَالْوَجْهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ هُوَ مَا قَدَّمْتُ أَوَّلًا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[2]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[3]، وَمَا هُوَ إِلَّا بَيَانٌ وَتَفْسِيرٌ لِلَّذِينِ يَكُونُ بَيْنَهُمُ الْخُصُومَةُ.

﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[4] افْتَرَى عَلَيْهِ بِإِضَافَةِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ إِلَيْهِ.

﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾[5] بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾[6] فَاجَأَهُ بِالتَّكْذِيبِ، لَمَّا سَمِعَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَقْفَةٍ، لِإِعْمَالِ رَوِيَّةٍ وَاهْتِمَامٍ بِتَمْيِيزٍ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ النَّصَفَةِ فِيمَا يَسْمَعُونَ

---

[1] سورة ق، الآية 28.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الزُّمَرُ، الآية 33.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[1]، أَيْ: لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبُوا بِالصِّدْقِ، وَاللَّامِ في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾[2] إِشَارَةٌ إِلَيْهِمْ.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[4] هُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: جَاءَ بِالصِّدْقِ وَآمَنَ بِهِ، وَأَرَادَ بِهِ إِيَّاهُ وَمَنْ تَبِعَهُ، كَمَا أَرَادَ بِمُوسَى إِيَّاهُ وَقَوْمُهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5]، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[6] إِلَّا أَنَّ هَذَا في الصِّفَةِ وَذَاكَ في الِاسْمِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: وَالْفَوْجُ أَوِ الْفَرِيقُ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ، وَهُمُ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَنَا بِالصِّدْقِ، وَصَحَابَتُهُ الَّذِي صَدَّقُوا بِهِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ) وَقُرِئَ: (وَصَدَّقَ بِهِ) بِالتَّخْفِيفِ، أَيْ: صَدَّقَ بِهِ النَّاسُ وَلَمْ يُكَذِّبُهُمْ بِهِ، يَعْنِي: أَدَّاهُ إِلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ. وَقِيلَ: صَارَ صَادِقًا بِهِ، أَيْ: بِسَبَبِهِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةٌ، وَالْمُعْجِزَةُ تَصْدِيقٌ مِنَ الْحَكِيمِ الَّذِي لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ لِمَنْ يُجْرِيهَا عَلَى يَدِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصَدَّقَ إِلَّا الصَّادِقُ، فيصِيرُ لِذَلِكَ صَادِقًا بِالْمُعْجِزَةِ، وَقُرِئَ: (وَصَدَّقَ بِهِ).

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى إِضَافَةِ الْأَسْوَأِ وَالْأَحْسَنِ إِلَى الَّذِي عَمِلُوا؟ وَمَا مَعْنَى التَّفْضِيلِ فيهِمَا؟

قُلْتُ: أَمَّا الْإِضَافَةُ فَمَا هِيَ مِنْ إِضَافَةُ أَفْعَلَ إِلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي يُفَضِّلُ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مَا هُوَ بَعْضُهُ مِنْ غَيْرِ تَفْضِيلٍ، كَقَوْلِكَ: الْأَشَجُّ أَعْدَلُ بَنِي مَرْوَانَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 49.

[6] سورة ، الآية .

وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَإِيذَانٌ بِأَنَّ السَّيْءَ الَّذِي يَفْرِطُ مِنْهُمْ مَنِ الصَّغَائِرِ وَالزَّلَّاتِ الْمُكَفِّرَةِ، هُوَ عِنْدَهُمُ الْأَسْوَأُ لِاسْتِعْظَامِهِمُ الْمَعْصِيَةَ، وَالْحُسْنُ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَحْسَنُ، لِحُسْنِ إِخْلَاصِهِمْ فيهِ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَ سَيِّئَهُمْ بِالْأَسْوَإِ وَحَسَنَهُمْ بِالْأَحْسَنِ. وَقُرِئَ: (أَسْوَأُ) الَّذِي عَمِلُوا جَمْعُ سُوءٍ.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[1]

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[2] أُدْخِلَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَى كَلِمَةِ النَّفي، فَأُفِيدَ مَعْنَى إِثْبَاتِ الْكِفَايَةِ وَتَقْرِيرِهَا. وَقُرِئَ: (بِكَافٍ عَبْدَهُ) وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَ(بِكَافٍ عِبَادَهُ) وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَذَلِكَ: أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَخْبِلَكَ آلِهَتُنَا، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ مَعَرَّتَهَا لِعَيْبِكَ إِيَّاهَا.

وَيُرْوَى: أَنَّهُ بَعَثَ خَالِدًا إِلَى الْعُزَّى لِيَكْسِرَهَا، فَقَالَ لَهُ سَادِنُهَا: أُحَذِّرُكَهَا يَا خَالِدُ، إِنَّ لَهَا لَشِدَّةٌ لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، فَعَمَدَ خَالِدٌ إِلَيْهَا فَهَشَّمَ أَنْفَهَا. فَقَالَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ نَبِيَّهُ أَنْ يَعْصِمَهُ مِنْ كُلِّ سِوًى وَيَدْفَعَ عَنْهُ كُلَّ بَلَاءٍ في مَوَاطِنِ الْخَوْفِ. وَفى هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ خَوَّفُوهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ. أَوْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ أَنْبِيَاءَهُ، وَلَقَدْ قَالَتْ أُمَمُهُمْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَكَفَاهُمُ اللَّهُ، وَذَلِكَ قَوْلُ قَوْمِ هُودٍ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: الْعَبْدَ وَالْعِبَادَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّهُ كَافِيهِمْ في الشَّدَائِدِ وَكَافِلُ مَصَالِحِهِمْ. وَقُرِئَ: (بِكَافى عِبَادِهِ) عَلَى الْإِضَافَةِ. وَ(يُكَافى عِبَادَهُ). وَيُكَافي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَهْمُوزٍ مُفَاعِلُهُ مِنَ الْكِفَايَةِ، كَقَوْلِكَ: يُجَازِي في يُجْزَى، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ كَفي، لِبِنَائِهِ عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ، وَالْمُبَارَاةِ: أَنْ يَكُونَ مَهْمُوزًا مِنَ الْمُكَافَأَةِ وَهِيَ الْمُجَازَاةُ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة هُودُ، الآية 54.

قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾[1]، ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[2]، أَرَادَ: الْأَوْثَانَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِهِ.

﴿بِعَزِيزٍ﴾[3] بِغَالِبٍ مَنِيعٍ.

﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾[4] يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِ وَعِيدٌ لِقُرَيْشٍ، وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ يَنْتَقِمُ لَهُمْ مِنْهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ .

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[5]

قُرِئَ: (كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ) وَ(مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ) بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْأَصْلِ، وَبِالْإِضَافَةِ لِلتَّخْفِيفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ فَرَضَ الْمَسْأَلَةَ فِي نَفْسِهِ دُونَهُمْ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ خَوَّفُوهُ مَعَرَّةَ الْأَوْثَانِ وَتَخْبِيلَهَا، فَأَمَرَ بِأَنْ يُقَرِّرَهُمْ أَوَّلًا بِأَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ بَعْدَ التَّقْرِيرِ: فَإِذَا أَرَادَنِي خَالِقُ الْعَالَمِ الَّذِي أَقْرَرْتُمْ بِهِ بِضُرٍّ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّوَازِلِ، أَوْ بِرَحْمَتِهِ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ غِنًى أَوْ نَحْوِهِمَا، هَلْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي خَوَّفْتُمُونِي إِيَّاهُنَّ كَاشِفَاتٌ عَنِّي ضُرَّهُ أَوْ مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ؟ حَتَّى إِذَا أَلْقَمَهُمُ الْحَجَرَ وَقَطَّعَهُمْ حَتَّى لَا يُحَيِّرُوا بِبِنْتِ شَفَةٍ قَالَ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[6] كَافِيًا لِمَعَرَّةِ أَوْثَانِكُمْ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[7]، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُمْ فَسَكَتُوا، فَنَزَلَ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: كَاشِفَاتٌ، وَمُمْسِكَاتٌ، عَلَى التَّأْنِيثِ بَعْدَ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[2]؟

قُلْتُ: أَنَّثَهُنَّ وَكُنْ إِنَاثًا وَهُنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةُ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾[3]، لِيُصْغِفَهَا وَيُعْجِزَهَا زِيَادَةُ تَصْعِيفٍ وَتَعْجِيزٍ عَمَّا طَالَبَهُمْ بِهِ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ وَإِمْسَاكِ الرَّحْمَةِ، لِأَنَّ الْأُنُوثَةَ مِنْ بَابِ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ، كَمَا أَنَّ الذُّكُورَةَ مِنْ بَابِ الشِّدَّةِ وَالصَّلَابَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: الْإِنَاثُ اللَّاتِي هُنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةُ أَضْعَفُ مِمَّا تَدْعُونَ لَهُنَّ وَأَعْجَزُ. وَفِيهِ تَهَكُّمٌ أَيْضًا.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[4]

﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾[5] عَلَى حَالِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا وَجِهَتِكُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي تَمَكَّنْتُمْ مِنْهَا، وَالْمَكَانَةُ بِمَعْنَى الْمَكَانِ، فَاسْتُعِيرَتْ عَنِ الْعَيْنِ لِلْمَعْنَى كَمَا يُسْتَعَارُ هُنَا، وَحَيْثُ لِلزَّمَانِ، وَهُمَا لِلْمَكَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقُّ الْكَلَامِ: فَإِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَكَانَتِي، فَلِمَ حُذِفَ؟

قُلْتُ: لِلِاخْتِصَارِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْوَعِيدِ، وَالْإِيذَانُ بِأَنَّ حَالَهُ لَا تَقِفُ، وَتَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ قُوَّةً وَشِدَّةً، لِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُعِينُهُ وَمُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾[6] كَيْفَ تَوَعَّدَهُمْ بِكَوْنِهِ مَنْصُورًا عَلَيْهِمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَتَاهُمُ الْخِزْيُ وَالْعَذَابُ فَذَاكَ عِزُّهُ وَغَلَبَتُهُ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْغَلَبَةَ تَتِمُّ لَهُ بِعِزِّ عَزِيزٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَبُذُلِّ ذَلِيلٍ مِنْ أَعْدَائِهِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة النَّجْمُ، الآية 19 إلى 21.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

"يُخْزِيهِ" مِثْلُ مُقِيمٍ في وُقُوعِهِ صِفَةٌ لِلْعَذَابِ، أَيْ: عَذَابٌ مُخْزٍ لَهُ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَعَذَابٌ دَائِمٌ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ.

وَقُرِئَ: (مَكَانَاتِكُمْ).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[1]

﴿لِلنَّاسِ﴾[2] لِأَجْلِهِمْ وَلِأَجْلِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، لِيُبَشِّرُوا وَيُنْذِرُوا، فَتَقْوَى دَوَاعِيهُمْ إِلَى اخْتِيَارِ الطَّاعَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ فَأَنَا الْغَنِيُّ، فَمَنِ اخْتَارَ الْهَدْيَ فَقَدْ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَمَنِ اخْتَارَ الضَّلَالَةَ فَقَدْ ضَرَّهَا. وَمَا وُكِلَتْ عَلَيْهِمْ لِتُجْبِرَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَإِنَّ التَّكْلِيفَ مَبْنِيٌّ عَلَى الِاخْتِيَارِ دُونَ الْإِجْبَارِ.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]

﴿الْأَنْفُسَ﴾[4] الْجُمَلُ كَمَا هِيَ، وَتَوَفِيها: إِمَاتَتُهَا، وَهُوَ أَنْ يَسْلُبَ مَا هِيَ بِهِ حَيَّةٌ حَسَّاسَةٌ دَرَّاكَةٌ مِنْ: صِحَّةِ أَجْزَائِهَا وَسَلَامَتِهَا، لِأَنَّهَا عِنْدَ سَلْبِ الصِّحَّةِ كَأَنَّ ذَاتَهَا قَدْ سُلِبَتْ ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[5]، يُرِيدُ: وَيَتَوَفى الْأَنْفُسَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ في مَنَامِهَا، أَيْ: يَتَوَفَّاهَا حِينَ تَنَامُ، تَشْبِيهًا لِلنَّائِمِينَ بِالْمَوْتَى. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[6]، حَيْثُ لَا يُمَيِّزُونَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ، كَمَا أَنَّ الْمَوْتَى كَذَلِكَ، ﴿فيمْسِكُ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 6.

الْأَنْفُسَ ﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾[1] الْحَقِيقِيُّ، أَيْ: لَا يَرُدُّهَا فِي وَقْتِهَا حَيَّةً، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى النَّائِمَةَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِلَى وَقْتِ ضَرْبِهِ لِمَوْتِهَا.

وَقِيلَ: يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ يَسْتَوْفِيهَا وَيَقْضِيهَا، وَهِيَ الْأَنْفُسُ الَّتِي تَكُونُ مَعَهَا الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ، وَيَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الَّتِي لَمَّ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، وَهِيَ أَنْفُسُ التَّمْيِيزِ. قَالُوا: فَالَّتِي تُتَوَفَّى فِي النَّوْمِ هِيَ نَفْسُ التَّمْيِيزِ لَا نَفْسُ الْحَيَاةِ، لِأَنَّ نَفْسَ الْحَيَاةِ إِذَا زَالَتْ زَالَ مَعَهَا النَّفَسُ، وَالنَّائِمُ يَتَنَفَّسُ.

وَرَوَوْا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: فِي ابْنِ آدَمَ نَفَسٌ وَرُوحٌ بَيْنَهُمَا شُعَاعُ الشَّمْسِ، فَالنَّفْسُ الَّتِي بِهَا الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَالرُّوحُ الَّتِي بِهَا النَّفْسُ وَالتَّحَرُّكُ، فَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ قَبَضَ اللَّهُ نَفَسَهُ وَلَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ. وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرْتُ أَوَّلًا، لِأَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَعَلَا– عَلَّقَ التَّوَفِّي وَالْمَوْتَ وَالْمَنَامَ جَمِيعًا بِالْأَنْفُسِ، وَمَا عَنَوْا بِنَفْسِ الْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ وَنَفْسِ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِالْمَوْتِ وَالنَّوْمِ، وَإِنَّمَا الْجُمْلَةُ هِيَ الَّتِي تَمُوتُ وَهِيَ الَّتِي تَنَامُ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾[2] إِنَّ فِي تُوَفِّي الْأَنْفُسِ مَائِتَةً وَنَائِمَةً وَإِمْسَاكَهَا وَإِرْسَالَهَا إِلَى أَجَلٍ لَآيَاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، لِقَوْمٍ يَجِيلُونَ فِيهِ أَفْكَارَهُمْ وَيَعْتَبِرُونَ. وَقُرِئَ: (قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾[4]، بَلِ اتَّخَذَ قُرَيْشٌ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[5] مِنْ دُونِ إِذْنِهِ ﴿شُفَعَاءَ﴾[6] حِينَ قَالُوا : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[7]، وَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

---

7 سورة ، الآية .

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[1]، أَيْ: هُوَ مَالِكُهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ شَفَاعَةً إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: أَنْ يَكُونَ الْمَشْفُوعُ لَهُ مُرْتَضًى، وَأَنْ يَكُونَ الشَّفِيعُ مَأْذُونًا لَهُ. وَهَهُنَا الشَّرْطَانِ مَفْقُودَانِ جَمِيعًا؟!

﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَيَشْفَعُونَ وَلَوْ كَانُوا ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[3]، أَيْ: وَلَوْ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا قَطُّ، حَتَّى يَمْلِكُوا الشَّفَاعَةَ وَلَا عَقْلَ لَهُمْ.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4]: تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[5]، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ وَالشَّفَاعَةُ مِنَ الْمُلْكِ، كَانَ مَالِكًا لَهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَّصِلُ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6]؟

قُلْتُ: بِمَا يَلِيهِ، مَعْنَاهُ: لَهُ مَلَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الْيَوْمَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَكُونُ الْمُلْكُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا لَهُ، فَلَهُ مُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[7]

مَدَارُ الْمَعْنَى عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَحْدَهُ﴾[8]، أَيْ: إِذَا أَفْرَدَ اللَّهَ بِالذِّكْرِ وَلَمْ يَذْكُرْ مَعَهُ آلِهَتَهُمُ اشْمَأَزُّوا، أَيْ: نَفَرُوا وَانْقَبَضُوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[9]، وَهُمْ آلِهَتُهُمْ ذُكِرَ اللَّهُ مَعَهُمْ

---

7 سورة يُونُسُ، الآية 18.

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

8 سورة ، الآية .

9 سورة ، الآية .

أَوْ لَمْ يَذْكُرُوا اسْتَبْشَرُوا، لِافْتِتَانِهِمْ بِهَا وَنِسْيَانِهِمْ حَقَّ اللَّهِ إِلَى هَوَاهُمْ فيها. وَقِيلَ: إِذَا قِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نَفَرُوا، لِأَنَّ فيهِ نَفيا لِآلِهَتِهِمْ.

وَقِيلَ: أَرَادَ اسْتِبْشَارَهُمْ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ لِسَانُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ حِينَ قَرَأَ (وَالنَّجْمِ) عِنْدَ بَابِ الْكَعْبَةِ، فَسَجَدُوا مَعَهُ لِفَرَحِهِمْ، وَلَقَدْ تَقَابَلَ الِاسْتِبْشَارُ وَالِاشْمِئْزَازُ، إِذْ كَلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَايَةٌ في بَابِهِ، لِأَنَّ الِاسْتِبْشَارَ أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ سُرُورًا حَتَّى تَنْبَسِطَ لَهُ بَشَرَةُ وَجْهِهِ وَيَتَهَلَّلَ.

وَالِاشْمِئْزَازُ: أَنْ يَمْتَلِئَ غَمًّا وَغَيْظًا حَتَّى يَظْهَرَ الِانْقِبَاضُ في أَدِيمِ وَجْهِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْعَامِلُ في (إِذَا ذُكِرَ)؟

قُلْتُ: الْعَامِلُ في إِذَا الْمُفَاجَأَةُ، تَقْدِيرُهُ وَقْتَ ذِكْرِ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، فَاجْأَوْا وَقْتَ الِاسْتِبْشَارِ.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1]

بَعِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِهِمْ، وَبِشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ في الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، فَقِيلَ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْعُظْمَى، وَقُلْ: أَنْتَ وَحْدَكَ تَقْدِرُ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَلَا حِيلَةَ لِغَيْرِكَ فيهِمْ. وَفيهِ وَصْفٌ لِحَالِهِمْ وَإِعْذَارٌ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَسْلِيَةٌ لَهُ وَوَعِيدٌ لَهُمْ.

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خَثِيمٍ، وَكَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ، أَنَّهُ أَخْبَرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَسَخِطَ عَلَى قَاتِلِهِ، وَقَالُوا: الْآنَ يَتَكَلَّمُ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ: آهْ أَوَقَدْ فَعَلُوا؟ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ عَلَى أَثَرِهِ: قُتِلَ مَنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُجْلِسُهُ في حِجْرِهِ وَيَضَعُ فَاهُ عَلَى فيهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[2]: وَعِيدٌ لَهُمْ لَا كُنْهَ لِفَظَاعَتِهِ وَشِدَّتِهِ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ –تَعَالَى– فِي الْوَعْدِ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾[3].

وَالْمَعْنَى: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي حِسَابِهِمْ وَلَمْ يُحَدِّثُوا بِهِ نُفُوسَهُمْ. وَقِيلَ: عَمِلُوا أَعْمَالًا حَسِبُوهَا حَسَنَاتٍ، فَإِذَا هِيَ سَيِّئَاتٌ.

وَعَنْ سُفيانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَرَأَهَا فَقَالَ: وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ، وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ.

وَجَزِعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: أَخْشَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَتَلَاهَا، فَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ أَحْتَسِبْهُ.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[4]، أَيْ: سَيِّئَاتُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَسَبُوهَا، أَوْ سَيِّئَاتُ كَسْبِهِمْ، حِينَ تُعْرَضُ صَحَائِفُهُمْ، وَكَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[5].

وَأَرَادَ بِالسَّيِّئَاتِ: أَنْوَاعَ الْعَذَابِ الَّتِي يُجَازَوْنَ بِهَا عَلَى مَا كَسَبُوا، فَسَمَّاهَا سَيِّئَاتٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[6].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾[7]: وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ جَزَاءَ هُزْئِهِمْ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة السَّجْدَةُ، الآية 17.

4 سورة ، الآية .

5 سورة الْمُجَادَلَةُ، الآية 6.

6 سورة الشُّورَى، الآية 40.

7 سورة ، الآية .

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

التَّخْوِيلُ: مُخْتَصٌّ بِالتَّفَضُّلِ.

وَيُقَالُ: خَوَّلَنِي، إِذَا أَعْطَاكَ عَلَى غَيْرِ جَزَاءٍ

﴿عَلَى عِلْمٍ﴾[2]، أَيْ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي أَنِّي سَأُعْطَاهُ، لِمَا فِي مِنْ فَضْلٍ وَاسْتِحْقَاقٍ، أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي وَبِاسْتِحْقَاقِي، أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْكَسْبِ، كَمَا قَالَ قَارُونُ: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِرَ الضَّمِيرُ فِي "أُوتِيتُهُ" وَهُوَ لِلنِّعْمَةِ؟

قُلْتُ: ذِهَابًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾[4] شَيْئًا مِنَ النِّعَمِ وَقِسْمًا مِنْهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ "مَا" فِي إِنَّمَا مَوْصُولَةً لَا كَافَّةً، فيرْجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ. عَلَى مَعْنَى: أَنَّ الَّذِي أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[5]: إِنْكَارٌ لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ قَالَ: مَا خَوَّلْنَاكَ مِنَ النِّعْمَةِ لِمَا تَقُولُ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ، أَيِ: ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لَكَ، أَتَشْكُرُ أَمْ تَكْفُرُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَكَرَ الضَّمِيرَ ثُمَّ أَنَّثَهُ؟

قُلْتُ: حَمْلًا عَلَى الْمَعْنَى أَوَّلًا، وَعَلَى اللَّفْظِ آخِرًا، وَلِأَنَّ الْخَبَرَ لَمَّا كَانَ مُؤَنَّثًا أَعْنِي "فِتْنَةً": سَاغَ تَأْنِيثُ الْمُبْتَدَأِ لِأَجْلِهِ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ، كَقَوْلِهِمْ: مَا جَاءَتْ حَاجَتُكَ.

وَقُرِئَ: (بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ) عَلَى وَفْقِ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا السَّبَبُ فِي عَطْفِ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفَاءِ وَعَطْفِ مِثْلِهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِالْوَاوِ؟

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

قُلْتُ: السَّبَبُ في ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ وَقَعَتْ مُسَبِّبَةً عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾[1]، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ يَشْمَئِزُّونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِ الْآلِهَةِ، فَإِذَا مَسَّ أَحَدَهُمْ ضُرٌّ دَعَا مَنِ اشْمَأَزَّ مِنْ ذِكْرِهِ، دُونَ مَنِ اسْتَبْشَرَ بِذِكْرِهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْآيِ اعْتِرَاضٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقُّ الِاعْتِرَاضِ أَنْ يُؤَكِّدَ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

قُلْتُ: مَا فِي الِاعْتِرَاضِ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَبَّهُ بِأَمْرٍ مِنْهُ وَقَوْلُهُ: (أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ)، ثُمَّ مَا عَقِبَهُ مِنَ الْوَعِيدِ الْعَظِيمِ: تَأْكِيدٌ لِإِنْكَارِ اشْمِئْزَازِهِمْ وَاسْتِبْشَارِهِمْ وَرُجُوعِهِمْ إِلَى اللَّهِ فِي الشَّدَائِدِ دُونَ آلِهَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: رَبِّ لَا يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْكَ مِثْلَ هَذِهِ الْجَرَاءَةِ، وَيَرْتَكِبُونَ مِثْلَ هَذَا الْمُنْكَرِ إِلَّا أَنْتَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[2]، مُتَنَاوِلٌ لَهُمْ وَلِكُلِّ ظَالِمٍ إِنْ جُعِلَ مُطْلَقًا، وَإِيَّاهُمْ خَاصَّةً إِنْ عَنَيْتَهُمْ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَوْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ. حِينَ أَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِسُوءِ الْعَذَابِ، وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ وَالنُّكَتُ لَا يُبْرِزُهَا إِلَّا عِلْمُ النَّظْمِ، وَإِلَّا بَقِيَتْ مُحْتَجِبَةً فِي أَكْمَامِهَا.

وَأَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى، فَلَمْ تَقَعْ مُسَبَّبَةً وَمَا هِيَ إِلَّا جُمْلَةٌ نَاسَبَتْ جُمْلَةً قَبْلَهَا فَعُطِفَتْ عَلَيْهَا بِالْوَاوِ، كَقَوْلِكَ: قَامَ زَيْدٌ وَقَعَدَ عَمْرٌو.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيِّ وَجْهٍ وَقَعَتْ مُسَبَّبَةً؟ وَالِاشْمِئْزَازُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِمُقْتَضٍ لِالْتِجَائِهِمْ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُقْتَضٍ لِصُدُوفِهِمْ عَنْهُ.

قُلْتُ: فِي هَذَا التَّسْبِيبِ لُطْفٌ، وَبَيَانُهُ أَنْ تَقُولَ: زَيْدٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ، فَإِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ الْتَجَأَ إِلَيْهِ، فَهَذَا تَسْبِيبٌ ظَاهِرٌ لَا لَبْسَ فِيهِ، ثُمَّ تَقُولُ: زَيْدٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ، فَإِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ الْتَجَأَ إِلَيْهِ، فَتَجِيءُ بِالْفَاءِ مَجِيئُكَ بِهِ ثَمَّةَ، كَأَنَّ الْكَافِرَ حِينَ الْتَجَأَ إِلَى اللَّهِ الْتِجَاءَ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ، مُقِيمٌ كُفْرَهُ مَقَامَ الْإِيمَانِ، وَمُجْرِيهِ مَجْرَاهُ فِي جَعْلِهِ سَبَبًا فِي الِالْتِجَاءِ، فَأَنْتَ تَحْكِي مَا عَكَسَ فِيهِ الْكَافِرُ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقْصِدُ بِهَذَا الْكَلَامِ الْإِنْكَارَ وَالتَّعَجُّبَ مِنْ فِعْلِهِ؟!

---

[1] سورة الزُّمَرُ، الآية 45.

[2] سورة الزُّمَرُ، الآية 47.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]

الضَّمِيرُ في ﴿قَالَهَا﴾[2] رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[3]، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَوْ جُمْلَةٌ مِنَ الْقَوْلِ. وَقُرِئَ: (قَدْ قَالَهُ) عَلَى مَعْنَى الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ، وَذَلِكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: هُمْ قَارُونُ وَقَوْمُهُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[4]، وَقَوْمُهُ رَاضُونَ بِهَا، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ في الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ آخَرُونَ قَائِلُونَ مِثْلَهَا.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5] مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَيَجْمَعُونَ مِنْهُ

﴿مِنْ هَؤُلاءِ﴾[6]: مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ "سَيُصِيبُهُمْ" مِثْلَ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ، فَقُتِلَ صَنَادِيدُهُمْ بِبَدْرٍ، وَحُبِسَ عَنْهُمُ الرِّزْقَ، فَقَحَطُوا سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ بُسِطَ لَهُمْ فَمُطِرُوا سَبْعَ سِنِينَ، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾[7] أَنَّهُ لَا قَابِضَ وَلَا بَاسِطَ إِلَّا اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[8]

﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[9]: جَنَوْا عَلَيْهَا بِالْإِسْرَافِ في الْمَعَاصِي وَالْغُلُوِّ فيها.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة الْقِصَصُ، الآية 78.
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .
9 سورة ، الآية .

﴿لا تَقْنَطُواْ﴾[1] قُرِئَ: بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِهَا وَضَمِّهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[2]، يَعْنِي بِشَرْطِ التَّوْبَةِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ هَذَا الشَّرْطِ فِي الْقُرْآنِ، فَكَانَ ذِكْرُهُ فِيمَا ذُكِرَ فِيهِ ذِكْرًا لَهُ فِيمَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي حُكْمِ كَلَامٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَجُوزُ فِيهِ التَّنَاقُضُ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ). وَالْمُرَادُ بِمَنْ يَشَاءُ: مَنْ تَابَ، لِأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا لِمِلْكِهِ وَجَبَرُوتِهِ. وَقِيلَ: فِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَفَاطِمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يُبَالِي).

وَنَظِيرُ نَفْيِ الْمُبَالَاةِ نَفْيُ الْخَوْفِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[3].

وَقِيلَ: قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ مَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَكَيْفَ وَلَمْ نُهَاجِرْ، وَقَدْ عَبَدْنَا الْأَوْثَانَ، وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ؟ فَنَزَلَتْ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ أَسْلَمَ عَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَنَفَرٌ مَعَهُمَا، ثُمَّ فُتِنُوا وَعُذِّبُوا، فَافْتَتَنُوا، فَكُنَّا نَقُولُ: لَا يَقْبَلُ اللَّهُ لَهُمْ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا أَبَدًا، فَنَزَلَتْ. فَكَتَبَ بِهَا عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– إِلَيْهِمْ، فَأَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي وَحْشِيٍّ قَاتِلِ حَمْزَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ أَشْرَكَ؟ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: "أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الشَّمْسُ، الآية 15.

كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1]

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾[2]، وَتُوبُوا إِلَيْهِ، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[3]: وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعَمَلَ، إِنَّمَا ذَكَرَ الْإِنَابَةَ عَلَى أَثَرِ الْمَغْفِرَةِ لِئَلَّا يَطْمَعَ طَامِعٌ فِي حُصُولِهَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا شَرْطٌ فيها لَازِمٌ لَا تَحْصُلُ بِدُونِهِ.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4]، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[5].

﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[6]، أَيْ: يَفْجَؤُكُمْ وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ، كَأَنَّكُمْ لَا تَخْشَوْنَ شَيْئًا لِفَرْطِ غَفْلَتِكُمْ وَسَهْوِكُمْ

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾[7] كَرَاهَةَ أَنْ تَقُولَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَكَّرْتَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا بَعْضُ الْأَنْفُسِ، وَهِيَ نَفْسُ الْكَافِرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: نَفْسٌ مُتَمَيِّزَةٌ مِنَ الْأَنْفُسِ: إِمَّا بِلَجَاجٍ فِي الْكُفْرِ شَدِيدٍ، أَوْ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ التَّكْثِيرُ، كَمَا قَالَ الْأَعْشَى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا

وَهُوَ يُرِيدُ: أَفْوَاجًا مِنَ الْكِرَامِ يَنْصُرُونَهُ، لَا كَرِيمًا وَاحِدًا. وَنَظِيرُهُ: رُبَّ بَلَدٍ قُطِّعَتْ، وَرُبَّ بَطَلٍ قَارَعَتْ. وَقَدِ اخْتَلَسَ الطَّعْنَةَ وَلَا يَقْصِدُ إِلَّا التَّكْسِيرَ. وَقُرِئَ: (يَا حَسْرَتِي) عَلَى الْأَصْلِ. وَيَا حَسْرَتَايَ، عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ مِنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الزُّمَرُ، الآية 188.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَالْجَنْبُ: الْجَانِبُ، يُقَالُ: أَنَا في جَنْبِ فُلَانٍ وَجَانِبِهِ وَنَاحِيَتِهِ، وَفُلَانٌ لَيِّنُ الْجَنْبِ وَالْجَانِبِ، ثُمَّ قَالُوا: فَرَّطَ في جَنْبِهِ وَفى جَانِبِهِ، يُرِيدُونَ في حَقِّهِ.

قَالَ سَابِقٌ الْبَرْبَرِيُّ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ في جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ

وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا أَثْبَتَّ الْأَمْرَ في مَكَانِ الرَّجُلِ وَحَيِّزِهِ، فَقَدْ أَثْبَتَّهُ فيهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

وَمِنْهُ قَوْلُ النَّاسِ: لِمَكَانِكَ فَعَلْتُ كَذَا، يُرِيدُونَ: لِأَجْلِكَ. وَفى الْحَدِيثِ: "مِنَ الشِّرْكِ الْخَفى أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ"، وَكَذَلِكَ: فَعَلْتُ هَذَا مِنْ جِهَتِكَ، فَمِنْ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ فَرْقٌ فيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَدَاءِ الْغَرَضِ بَيْنَ ذِكْرِ الْمَكَانِ وَتَرْكِهِ، قِيلَ: ﴿فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[1] عَلَى مَعْنَى: فَرَّطْتُ في ذَاتِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَرْجِعُ كَلَامِكَ إِلَى أَنَّ ذِكْرَ الْجَنْبِ كَلَا ذِكْرَ سِوَى مَا يُعْطَى مِنْ حُسْنِ الْكِنَايَةِ وَبَلَاغَتِهَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَرَّطْتُ في اللَّهِ. فَمَا مَعْنَى فَرَّطْتُ في اللَّهِ؟

قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ مَحْذُوفٍ، سَوَاءٌ ذَكَرَ الْجَنْبَ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ.

وَالْمَعْنَى: فَرَّطْتُ في طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَفى حَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ وَحَفْصَةَ: في ذِكْرِ اللَّهِ.

وَ"مَا" في ﴿مَا فَرَّطْتُ﴾[2] مَصْدَرِيَّةٌ مِثْلُهَا في (بِمَا رَحُبَتْ).

﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[3]، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَكْفِهِ أَنْ ضَيَّعَ طَاعَةَ اللَّهِ حَتَّى سَخِرَ مِنْ أَهْلِهَا، وَمَحَلُّ. ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾[4] عَلَى النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَرَّطْتُ وَأَنَا سَاخِرٌ، أَيْ: فَرَّطْتُ في حَالِ سُخْرِيَتِي.

وَرُوِيَ: أَنَّهُ كَانَ في بَنِي إِسْرَائِيلَ عَالِمٌ تَرَكَ عِلْمَهُ وَفَسَقَ. وَأَتَاهُ إِبْلِيسُ، وَقَالَ لَهُ: تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ تُبْ، فَأَطَاعَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ فَأَنْفَقَهُ في الْفُجُورِ، فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ في أَلَذِّ مَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة التَّوْبَةُ، الآية 25.

سورة التَّوْبَةُ، الآية 11.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

كَانَ فَقَالَ: يَا حَسْرَتَاهُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ذَهَبَ عُمْرِي فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَأَسْخَطْتُ رَبِّي فَنَدِمَ حِينَ لَمْ يَنْفَعْهُ النَّدَمُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ خَبَرَهُ فِي الْقُرْآنِ.

﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[1] لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ الْهِدَايَةَ بِالْإِلْجَاءِ أَوْ بِالْإِلْطَافِ أَوْ بِالْوَحْيِ، فَالْإِلْجَاءُ خَارِجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِلْطَافِ فَلْيَلْطُفْ بِهِ.

وَأَمَّا الْوَحْيُ فَقَدْ كَانَ، وَلَكِنَّهُ أَعْرَضَ وَلَنْ يَتَّبِعَهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ، وَإِنَّمَا يَقُولُ هَذَا تَحَيُّرًا فِي أَمْرِهِ وَتَعَلُّلًا بِمَا لَا يُجْدِي عَلَيْهِ، كَمَا حَكَى عَنْهُمُ التَّعَلُّلَ بِإِغْوَاءِ الرُّؤَسَاءِ وَالشَّيَاطِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَنَحْوُهُ: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾[2].

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾[3] رَدٌّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَعْنَاهُ: بَلَى قَدْ هُدِيتَ بِالْوَحْيِ فَكَذَّبْتَ بِهِ وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهِ، وَآثَرْتَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى. وَقُرِئَ بِكَسْرِ التَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ النَّفْسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قَرَنَ الْجَوَابَ بِمَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[4] وَلَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُمَا بِآيَةٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى أُخْرَى الْقَرَائِنَ الثَّلَاثَ فَيفَرِّقُ بَيْنَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ تُؤَخِّرَ الْقَرِينَةَ الْوُسْطَى، فَلَمْ يَحْسُنِ الْأَوَّلُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَبْتِيرِ النَّظْمِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْقَرَائِنِ، وَأَمَّا الثَّانِي: فَلِمَا فِيهِ مِنْ نَقْصِ التَّرْتِيبِ وَهُوَ التَّحَسُّرُ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي الطَّاعَةِ، ثُمَّ التَّعَلُّلُ بِفَقْدِ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ تَمَنِّي الرَّجْعَةَ فَكَانَ الصَّوَابُ مَا جَاءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ حَكَى أَقْوَالَ النَّفْسِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَنَظْمِهَا، ثُمَّ أَجَابَ مِنْ بَيْنِهَا عَمَّا اقْتَضَى الْجَوَابَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ تَقَعَ بَلَى جَوَابًا بِالْغَيْرِ مَنْفِي؟

قُلْتُ: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[5] فِيهِ مَعْنَى: مَا هُدِيتُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 21.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1]

﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾[2]، أَيْ وَصَفُوهُ بِمَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ –تَعَالَى–، وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْهُ، فَأَضَافُوا إِلَيْهِ الْوَلَدَ وَالشَّرِيكَ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[3]، وَقَالُوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[4].

وَلَا يَبْعُدُ عَنْهُمْ قَوْمٌ يُسَفِّهُونَهُ بِفِعْلِ الْقَبَائِحِ، وَتَجْوِيزِ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا لَا لِغَرَضٍ، وَيُؤْلِمَ لَا لِعِوَضٍ، وَيَظْلِمُونَهُ بِتَكْلِيفِ يُطَاقُ، وَيُجَسِّمُونَهُ بِكَوْنِهِ مَرْئِيًّا مُعَايِنًا مُدْرِكًا بِالْحَاسَّةِ، وَيُثْبِتُونَ لَهُ يَدًا وَقَدَمًا وَجَنْبًا مُتَسَتِّرِينَ بِالْبَلْكَفَةِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا بِإِثْبَاتِهِمْ مَعَهُ قُدَمَاءَ.

﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[5] جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، إِنْ كَانَ "تَرَى" مِنْ رُؤْيَةِ الْبَصَرِ، وَمَفْعُولٌ ثَانٍ إِنْ كَانَ مِنْ رُؤْيَةِ الْقَلْبِ.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6]

قُرِئَ: (يُنْجِي) وَ(يُنْجِي) ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾[7] بِفَلَاحِهِمْ، يُقَالُ: فَازَ بِكَذَا إِذَا أَفْلَحَ بِهِ وَظَفَرَ بِمُرَادِهِ مِنْهُ.

وَتَفْسِيرُ الْمَفَازَةِ قَوْلُهُ: ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[8]، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا مَفَازَتُهُمْ؟ فَقِيلَ: لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ، أَيْ يُنْجِيهِمْ بِنَفْيِ السُّوءِ وَالْحُزْنِ عَنْهُمْ. أَوْ بِسَبَبِ مَنْجَاتِهِمْ، مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفُ، الآية 20.

[4] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 28.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1]، أَيْ بِمَنْجَاةٍ مِنْهُ، لِأَنَّ النَّجَاةَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَلَاحِ، وَسَبَبُ مَنْجَاتِهِمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلِهَذَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– الْمَفَازَةَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، وَيَجُوزُ: بِسَبَبِ فَلَاحِهِمْ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبُ الْفَلَاحِ، وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي نَفْسِهِ: مَفَازَةً، لِأَنَّهُ سَبَبُهَا. وَقُرِئَ: (بِمَفَازَاتِهِمْ) عَلَى أَنَّ لِكُلِّ مُتَّقٍ مَفَازَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿لا يَمَسُّهُمُ﴾[2] مَا مَحَلُّهُ مِنَ الْإِعْرَابِ عَلَى التَّفْسِيرَيْنِ؟

قُلْتُ: أَمَّا عَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ فَلَا مَحَلَّ لَهُ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ. وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي فَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4]، أَيْ هُوَ مَالِكُ أَمْرِهَا وَحَافِظُهَا، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّ حَافِظَ الْخَزَائِنِ مُدَبِّرُ أَمْرِهَا هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ مَقَالِيدَهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ الْمُلْكِ وَهِيَ مَفَاتِيحُ، وَلَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا. وَقِيلَ: مَقْلِيدٌ. وَيُقَالُ: إِقْلِيدٌ وَأَقَالِيدُ، وَالْكَلِمَةُ أَصْلُهَا فَارِسِيَّةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا لِلْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ؟

قُلْتُ: التَّعْرِيبُ أَحَالَهَا عَرَبِيَّةً، كَمَا أَخْرَجَ الِاسْتِعْمَالَ الْمُهْمَلَ مِنْ كَوْنِهِ مُهْمَلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَا اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5].

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[6]، أَيْ يُنَجِّي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ بِمَفَازَتِهِمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَاعْتِرَاضٌ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا. وَهُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا فَلَا

---

[1] سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 18.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفينَ فيها وَمَا يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَزَاءِ، وَقَدْ جَعَلَ مُتَّصِلًا بِمَا يَلِيهِ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ خَالِقُهُ وَفَاتِحُ بَابِهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَجَحَدُوا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، وَقِيلَ: سَأَلَ عُثْمَانُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، فَقَالَ: "يَا عُثْمَانُ، مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، تَفْسِيرُهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

وَتَأْوِيلُهُ عَلَى هَذَا: أَنَّ لِلَّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ يُوَحَّدُ بِهَا وَيُمَجَّدُ، وَهِيَ مَفَاتِيحُ خَيْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا مِنَ الْمُتَّقِينَ أَصَابَهُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَلِمَاتِ تَوْحِيدِهِ وَتَمْجِيدِهِ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[2]

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِأَعْبُدُ.

و﴿تَأْمُرُونِّي﴾[4] اعْتِرَاضٌ. وَمَعْنَاهُ: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَعْبُدُ بِأَمْرِكُمْ؟! وَذَلِكَ حِينَ قَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: اسْتَلِمْ بَعْضَ آلِهَتِنَا وَنُؤْمِنُ بِإِلَهِكَ، أَوْ يُنْصَبُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جُمْلَةُ قَوْلِهِ: ﴿تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾[5]، لِأَنَّهُ في مَعْنَى تَعْبُدُونَنِي وَتَقُولُونَ لِي: اعْبُدْ، وَالْأَصْلُ: تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ، فَحَذَفَ "أَنْ" وَرَفَعَ الْفِعْلَ، كَمَا في قَوْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرُ الْوَغَى

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَقُولُونَ لِي: أَعْبُدُ، وَأَفَغَيْرَ اللَّهِ تَقُولُونَ لِي: أَعْبُدُ، فَكَذَلِكَ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَهُ. وَأَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ؟

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْوَجْهِ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (أَعْبُدُ) بِالنَّصْبِ. وَقُرِئَ: (تَأْمُرُونَنِي) عَلَى الْأَصْلِ، وَ (تَأْمُرُونِي) عَلَى إِدْغَامِ النُّونِ أَوْ حَذْفِهَا.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1]

قُرِئَ: (لَيَحْبَطْنَّ عَمَلُكَ) وَلَيُحْبَطَنَّ: عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَ(لَنُحْبِطَنَّ)، بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيْ: لِيُحْبِطَنَّ اللَّهُ، أَوِ الشِّرْكُ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمُوحَى إِلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ، فَكَيْفَ قَالَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[2] عَلَى التَّوْحِيدِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَوْحَى إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِثْلُهُ، أَوْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ كَمَا تَقُولُ: كَسَانَا حُلَّةً، أَيْ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّامَيْنِ؟

قُلْتُ:

– الْأُولَى: مُوطِئَةٌ لِلْقَسَمِ الْمَحْذُوفِ.

– وَالثَّانِيَةُ: لَامُ الْجَوَابِ، وَهَذَا الْجَوَابُ سَادٌّ مَسَدَّ الْجَوَابَيْنِ، أَعْنِي: جَوَابَيِ الْقَسَمِ وَالشَّرْطِ،

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ هَذَا الْكَلَامُ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ رُسُلَهُ لَا يُشْرِكُونَ وَلَا تُحْبَطُ أَعْمَالُهُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ، وَالْمُحَالَاتُ يَصِحُّ فَرْضُهَا لِأَغْرَاضٍ، فَكَيْفَ بِمَا لَيْسَ بِمُحَالٍ؟

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[3]]يُونُسُ: 99] يَعْنِي عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِامْتِنَاعِ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَوُجُودِ الصَّارِفِ عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بِسَبَبِ حُبُوطِ الْعَمَلِ. وَيُحْتَمَلُ: وَلَتَكُونَنَّ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ إِنْ مِتَّ عَلَى الرِّدَّةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ أَشَدَّ، فَلَا يُمْهِلُهُ بَعْدَ الرِّدَّةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[1]، ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾[2]: رَدٌّ لَمَّا أَمَرُوهُ بِهِ مِنَ اسْتِلَامِ بَعْضِ آلِهَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَعْبُدُ مَا أَمَرُوكَ بِعِبَادَتِهِ، بَلْ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا فَاعْبُدِ اللَّهَ، فَحَذَفَ الشَّرْطَ وَجَعَلَ تَقْدِيمَ الْمَفْعُولِ عِوَضًا مِنْهُ.

﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[3] عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ، مِنْ أَنْ جَعَلَكَ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَجَوَّزَ الْفَرَّاءُ نَصْبَهُ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ هَذَا فَمَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: بَلِ اللَّهُ أَعْبُدُ فَاعْبُدْ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]

لَمَّا كَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِذَا عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَقَدَّرَهُ فِي نَفْسِهِ حَقَّ تَقْدِيرِهِ وَعَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ قِيلَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[5]، وَقُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى مَعْنَى: وَمَا عَظَّمُوهُ كُنْهَ تَعْظِيمِهِ، ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ فَقَالَ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[6].

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ إِذَا أَخَذْتَهُ كَمَا هُوَ بِجُمْلَتِهِ وَمَجْمُوعِهِ تَصْوِيرُ عَظَمَتِهِ وَالتَّوْقِيفُ عَلَى كُنْهِ جَلَالِهِ لَا غَيْرُ، مِنْ غَيْرِ ذَهَابٍ بِالْقَبْضَةِ وَلَا بِالْيَمِينِ إِلَى جِهَةِ حَقِيقَةٍ أَوْ جِهَةِ مَجَازٍ.

وَكَذَلِكَ حُكْمُ مَا يُرْوَى: أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أُصْبُعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ

---

1 سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 75.

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

وَالْجِبَالَ عَلَى أُصْبُعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ وَالثَّرَى عَلَى الْأُصْبُعِ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أُصْبُعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فيقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ، ثُمَّ قَرَأَ تَصْدِيقًا لَهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] ...الْآيَةَ، وَإِنَّمَا ضَحِكَ: أَفْصَحُ الْعَرَبِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَعَجَّبَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ إِلَّا مَا يَفْهَمُهُ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرِ إِمْسَاكٍ وَلَا أُصْبُعٍ وَلَا هَزٍّ وَلَا شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ فَهْمَهُ وَقَعَ أَوَّلُ شَيْءٍ وَآخِرُهُ عَلَى الزُّبْدَةِ وَالْخُلَاصَةِ الَّتِي هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَأَنَّ الْأَفْعَالَ الْعِظَامَ الَّتِي تَتَحَيَّرُ فيها الْأَفْهَامُ وَالْأَذْهَانُ وَلَا تَكْتَنِهُهَا الْأَوْهَامُ هَيِّنَةٌ عَلَيْهِ هَوَانًا لَا يُوصَلُ السَّامِعُ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ، إِلَّا إِجْرَاءَ الْعِبَارَةِ في مِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنَ التَّخْيِيلِ.

وَلَا تَرَى بَابًا في عِلْمِ الْبَيَانِ أَدَقَّ وَلَا أَرَقَّ وَلَا أَلْطَفَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَلَا أَنْفَعَ وَأَعْوَنَ عَلَى تَعَاطِي تَأْوِيلِ الْمُشْتَبِهَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى– في الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُ وَعَلِّيَّتَهُ تَخْيِيلَاتٌ قَدْ زَلَّتْ فيها الْأَقْدَامُ قَدِيمًا، وَمَا أُوتِيَ الزَّالُّونَ إِلَّا مِنْ قِلَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ، حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ في عِدَادِ الْعُلُومِ الدَّقِيقَةِ عِلْمًا لَوْ قَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، لَمَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَعِيَالٌ عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَحِلُّ عُقَدَهَا الْمُورِبَةَ وَلَا يَفُكُّ قُيُودَهَا الْمُكْرِبَةَ إِلَّا هُوَ، وَكَمْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ التَّنْزِيلِ وَحَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، وَقَدْ ضِيمَ وَسِيمَ الْخَسْفُ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْغَثَّةِ، وَالْوُجُوهِ الرَّثَّةِ، لِأَنَّ مَنْ تَأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ في عِيرٍ وَلَا نَفِيرٍ، وَلَا يُعْرَفُ قَبِيلًا مِنْهُ مِنْ دَبِيرٍ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ: الْأَرْضُونَ السَّبْعُ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ شَاهِدَانِ: قَوْلُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾[2]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ﴾[3]، وَلِأَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ تَفْخِيمٍ وَتَعْظِيمٍ، فَهُوَ مُقْتَضٍ لِلْمُبَالَغَةِ، وَمَعَ الْقَصْدِ إِلَى الْجَمْعِ وَتَأْكِيدِهِ بِالْجَمِيعِ أَتْبَعَ الْجَمِيعَ مُؤَكِّدَةً قَبْلَ مَجِيءِ الْخَبَرِ، لِيَعْلَمَ أَوَّلَ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَبَرَ الَّذِي يَرِدُ لَا يَقَعُ عَنْ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ عَنِ الْأَرَاضِي كُلِّهِنَّ.

وَالْقَبْضَةُ: الْمَرَّةُ مِنَ الْقَبْضِ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[4]، وَالْقَبْضَةُ بِالضَّمِّ–: الْمِقْدَارُ الْمَقْبُوضُ بِالْكَفِّ، وَيُقَالُ أَيْضًا: أَعْطِنِي قَبْضَةً مِنْ كَذَا تُرِيدُ: مَعْنَى الْقَبْضَةِ تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ، كَمَا رَوَى: أَنَّهُ نَهَى عَنْ خَطْفَةِ السَّبْعِ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ مُحْتَمَلٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة طه، الآية 96.

وَالْمَعْنَى: الْأَرْضُونَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، أَيْ: ذَوَاتُ قَبْضَتِهِ يَقْبِضُهُنَّ قَبْضَةً وَاحِدَةً، يَعْنِي أَنَّ الْأَرْضِينَ مَعَ عِظَمِهِنَّ وَبَسْطَتِهِنَّ لَا يَبْلُغُهُنَّ إِلَّا قَبْضَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ قَبْضَاتِهِ، كَأَنَّهُ يَقْبِضُهَا قَبْضَةً بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ، كَمَا تَقُولُ: الْجَزُورُ أَكْلَةُ لُقْمَانَ، وَالْقِلَّةُ جُرْعَتُهُ، أَيْ: ذَاتُ أَكْلَتِهِ وَذَاتُ جُرْعَتِهِ، تُرِيدُ: أَنَّهُمَا لَا يَفِيانِ إِلَّا بِأَكْلَةٍ فَذَّةٍ مِنْ أَكَلَاتِهِ، وَجُرْعَةٍ فَرْدَةٍ مِنْ جُرْعَاتِهِ.

وَإِذَا أُرِيدَ مَعْنَى الْقَبْضَةِ فَظَاهِرٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الْأَرْضِينَ بِجُمْلَتِهَا مِقْدَارُ مَا يَقْبِضُهُ بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (قَبْضَتَهُ) بِالنَّصْبِ؟

قُلْتُ: جَعَلَهَا ظَرْفًا مُشَبَّهًا لِلْمُؤَقَّتِ بِالْمُبْهَمِ: ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾[1] مِنَ الطَّيِّ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّشْرِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2]، وَعَادَةُ طَاوِي السِّجِلِّ أَنْ يَطْوِيَهُ بِيَمِينِهِ، وَقِيلَ: قَبَضَتُهُ: مَلَكَهُ بِلَا مُدَافِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، وَبِيَمِينِهِ: بِقُدْرَتِهِ، وَقِيلَ: مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ مُفْنِيَاتٌ بِقَسَمِهِ، لِأَنَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يُفْنِيَهَا، وَمَنِ اشْتَمَّ رَائِحَةً مِنْ عِلْمِنَا هَذَا فَلْيَعْرِضْ عَلَيْهِ هَذَا التَّأْوِيلَ، لِيَتَلَهَّى بِالتَّعَجُّبِ مِنْهُ وَمِنْ قَائِلِهِ، ثُمَّ يَبْكِي حَمِيهِ لِكَلَامِ اللَّهِ الْمُعْجِزِ بِفَصَاحَتِهِ، وَمَا مُنِيَ بِهِ مِنْ أَمْثَالِهِ، وَأَثْقَلَ مِنْهُ عَلَى الرُّوحِ، وَأَصْدَعَ لِلْكَبِدِ تَدْوِينُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ، وَاسْتِحْسَانُهُمْ لَهُ، وَحِكَايَتُهُ عَلَى فُرُوعِ الْمَنَابِرِ، وَاسْتِجْلَابُ الِاهْتِزَازِ بِهِ مِنَ السَّامِعِينَ. وَقُرِئَ: (مَطْوِيَّاتٌ) عَلَى نَظْمِ السَّمَاوَاتِ فِي حُكْمِ الْأَرْضِ، وَدُخُولُهَا تَحْتَ الْقَبْضَةِ، وَنُصِبَ مَطْوِيَّاتٍ عَلَى الْحَالِ.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾[3] مَا أَبْعَدَ مَنْ هَذِهِ قُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ، وَمَا أَعْلَاهُ عَمَّا يُضَافُ إِلَيْهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[4]

فَإِنْ قُلْتَ: "أُخْرَى" مَا مَحَلُّهَا مِنَ الْإِعْرَابِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية **104**.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ الرَّفْعُ وَالنَّصْبُ: أَمَّا الرَّفْعُ فَعَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[1].]الْحَاقَّةُ: 13]

وَأَمَّا النَّصْبُ فَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[2].

وَالْمَعْنَى: وَنُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرَى، وَإِنَّمَا حُذِفَتْ لِدَلَالَةِ أُخْرَى عَلَيْهَا، وَلِكَوْنِهَا مَعْلُومَةً بِذِكْرِهَا في غَيْرِ مَكَانٍ. وَقُرِئَ: (قِيَامًا يَنْظُرُونَ): يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ في الْجِهَاتِ نَظَرَ الْمَبْهُوتِ إِذَا فَاجَأَهُ خَطْبٌ. وَقِيلَ: يَنْظُرُونَ مَاذَا يَفْعَلُ بِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْوُقُوفِ وَالْجُمُودِ في مَكَانٍ لِتَحَيُّرِهِمْ .

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3]

قَدِ اسْتَعَارَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– النُّورَ لِلْحَقِّ وَالْقُرْآنَ وَالْبُرْهَانَ في مَوَاضِعَ مِنَ التَّنْزِيلِ، وَهَذَا مِنْ ذَاكَ.

وَالْمَعْنَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾[4] بِمَا يُقِيمُهُ فيها مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَيَبْسُطُهُ مِنَ الْقِسْطِ في الْحِسَابِ وَوَزْنِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيُنَادِي عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُسْتَعَارٌ إِضَافَتُهُ إِلَى اسْمِهِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْعَدْلُ. وَإِضَافَةُ اسْمِهِ إِلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ يُزَيِّنُهَا حَيْثُ يَنْشُرُ فيها عَدْلَهُ، وَيَنْصِبُ فيها مَوَازِينَ قِسْطِهِ، وَيَحْكُمُ بِالْحَقِّ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَلَا تَرَى أَزْيَنَ لِلْبِقَاعِ مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا أَعْمَرَ لَهَا مِنْهُ.

وَفي هَذِهِ الْإِضَافَةِ أَنَّ رَبَّهَا وَخَالِقَهَا هُوَ الَّذِي يَعْدِلُ فيها، وَإِنَّمَا يَجُوزُ فيها غَيْرُ رَبِّهَا، ثُمَّ مَا عُطِفَ عَلَى إِشْرَاقِ الْأَرْضِ مِنْ وَضْعِ الْكِتَابِ وَالْمَجِيءِ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْقَضَاءِ

---

[1] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 13.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

بِالْحَقِّ وَهُوَ النُّورُ الْمَذْكُورُ. وَتَرَى النَّاسَ يَقُولُونَ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ: أَشْرَقَتِ الْآفَاقُ بِعَدْلِكَ، وَأَضَاءَتِ الدُّنْيَا بِقِسْطِكَ، كَمَا تَقُولُ: أَظْلَمَتِ الْبِلَادُ بِجَوْرِ فُلَانٍ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وَكَمَا فَتَحَ الْآيَةَ بِإِثْبَاتِ الْعَدْلِ، خَتَمَهَا بِنَفْيِ الظُّلْمِ.

وَقُرِئَ: (وَأَشْرَقَتْ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مَنْ شَرَقَتْ بِالضَّوْءِ تَشْرُقُ: إِذَا امْتَلَأَتْ بِهِ وَاغْتَصَّتْ. وَأَشْرَقَهَا اللَّهُ، كَمَا تَقُولُ: مَلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَطَبَّقَهَا عَدْلًا.

وَ﴿الْكِتَابُ﴾[1] صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُ اكْتَفَى بِاسْمِ الْجِنْسِ، وَقِيلَ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

"وَالشُّهَدَاءُ" الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لِلْأُمَمِ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْحَفَظَةِ وَالْأَخْيَارِ.

وَقِيلَ: الْمُسْتَشْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2]

الزُّمَرُ: الْأَفْوَاجُ الْمُتَفَرِّقَةُ بَعْضُهَا فِي أَثَرِ بَعْضٍ، وَقَدْ تُزَمِّرُوا، قَالَ:

حَتَى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بَعْدَ زُمَـــــرِ

وَقِيلَ فِي زُمَرِ الَّذِينَ اتَّقَوْا: هِيَ الطَّبَقَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ: الشُّهَدَاءُ، وَالزُّهَّادُ، وَالْعُلَمَاءُ، وَالْقُرَّاءُ وَغَيْرُهُمْ. وَقُرِئَ: (نُذُرٌ مِنْكُمْ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُضِيفَ إِلَيْهِمُ الْيَوْمَ؟

قُلْتُ: أَرَادُوا لِقَاءَ وَقْتِكُمْ هَذَا، وَهُوَ وَقْتُ دُخُولِهِمُ النَّارَ لَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ الْيَوْمِ وَالْأَيَّامِ مُسْتَفِيضًا فِي أَوْقَاتِ الشِّدَّةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿قَالُوا بَلَى﴾[1] أَتَوْنَا وَتَلَوْا عَلَيْنَا، وَلَكِنْ وَجَبَتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ، لِسُوءِ أَعْمَالِنَا، كَمَا قَالُوا: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. فَذَكَرُوا عَمَلَهُمُ الْمُوجِبَ لِكَلِمَةِ الْعَذَابِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ.

وَاللَّامُ فِي الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْجِنْسِ، لِأَنَّ ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2] فَاعِلُ بِئْسَ، وَبِئْسَ فَاعِلُهَا: اسْمٌ مُعَرَّفٌ بِلَامِ الْجِنْسِ، أَوْ مُضَافٌ إِلَى مِثْلِهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ جَهَنَّمُ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[3]

﴿حَتَّى﴾[4] هِيَ الَّتِي تُحْكَى بَعْدَهَا الْجُمَلُ، وَالْجُمْلَةُ الْمَحْكِيَّةُ بَعْدَهَا هِيَ الشَّرْطِيَّةُ، إِلَّا أَنَّ جَزَاءَهَا مَحْذُوفٌ، وَإِنَّمَا حُذِفَ، لِأَنَّهُ صِفَةُ ثَوَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَدَلَّ بِحَذْفِهِ عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَحَقُّ مَوْقِعِهِ مَا بَعْدَ خَالِدِينَ.

وَقِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، أَيْ: مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِهَا. وَقِيلَ: أَبْوَابُ جَهَنَّمَ لَا تُفْتَحُ إِلَّا عِنْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا فِيهَا.

وَأَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَمُتَقَدِّمٌ فَتْحُهَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[5]، فَلِذَلِكَ جِيءَ بِالْوَاوِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَقَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَبَّرَ عَنِ الذَّهَابِ بِالْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا بِلَفْظِ السُّوقِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِسُوقِ أَهْلِ النَّارِ: طَرْدُهُمْ إِلَيْهَا بِالْهَوَانِ وَالْعُنْفِ، كَمَا يَفْعَلُ بِالْأَسَارَى وَالْخَارِجِينَ عَلَى السُّلْطَانِ إِذَا سِيقُوا إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَالْمُرَادُ بِسُوقِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: سَوْقُ مَرَاكِبِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَذْهَبُ بِهِمْ إِلَّا رَاكِبِينَ، وَحَثُّهَا إِسْرَاعًا بِهِمْ إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ، كَمَا يَفْعَلُ بِمَنْ يُشَرِّفُ وَيُكْرِمُ مِنَ الْوَافِدِينَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ السُّوقَيْنِ.

﴿طِبْتُمْ﴾[1] مِنْ دَنَسِ الْمَعَاصِي. وَطُهِّرْتُمْ مِنْ خُبْثِ الْخَطَايَا، "فَادْخُلُوهَا" جَعَلَ دُخُولَ الْجَنَّةِ مُسَبَّبًا عَنِ الطِّيبِ وَالطَّهَارَةِ، فَمَا هِيَ إِلَّا دَارُ الطَّيِّبِينَ وَمَثْوَى الطَّاهِرِينَ، لِأَنَّهَا دَارٌ طَهَّرَهَا اللَّهُ مَنْ كُلِّ دَنَسٍ، وَطَيَّبَهَا مِنْ كُلِّ قَذَرٍ، فَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مُنَاسِبٌ لَهَا مَوْصُوفٌ بِصِفَتِهَا، فَمَا أَبْعَدَ أَحْوَالَنَا مِنْ تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ، وَمَا أَضْعَفَ سَعْيَنَا فِي اكْتِسَابِ تِلْكَ الصِّفَةِ، إِلَّا أَنْ يَهَبَ لَنَا الْوَهَّابُ الْكَرِيمُ تَوْبَةً نَصُوحًا، تَقِي أَنْفُسَنَا مِنْ دَرَنِ الذُّنُوبِ، وَتُمِيطُ وَضَرَ هَذِهِ الْقُلُوبِ.

﴿خَالِدِينَ﴾[2] مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ ﴿الْأَرْضِ﴾[3] عِبَارَةٌ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي أَقَامُوا فيها كَمَا يَشَاءُونَ، تَشَبُّهًا بِحَالِ الْوَارِثِ وَتَصَرُّفِهِ فِيمَا يَرِثُهُ وَاتِّسَاعِهِ فيهِ، وَذَهَابِهِ في إِنْفَاقِهِ طُولًا وَعَرْضًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾[4]؟ وَهَلْ يَتَبَوَّأُ أَحَدُهُمْ مَكَانَ غَيْرِهِ؟

قُلْتُ: يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَنَّةٌ لَا تُوصَفُ سِعَةً وَزِيَادَةً عَلَى الْحَاجَةِ، فيتَبَوَّأُ مِنْ جَنَّتِهِ حَيْثُ يَشَاءُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى جَنَّةِ غَيْرِهِ.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

﴿حَافِينَ﴾[1]، مُحَدِّقِينَ مِنْ حَوْلِهِ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2]: يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مُتَلَذِّذِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَامَ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾[3]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْعِبَادِ كُلِّهِمْ، وَأَنَّ إِدْخَالَ بَعْضِهِمُ النَّارَ وَبَعْضِهُمُ الْجَنَّةَ لَا يَكُونُ إِلَّا قَضَاءً بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَى أَنَّ ثَوَابَهُمْ –وَإِنْ كَانُوا مَعْصُومِينَ جَمِيعًا– لَا يَكُونُ عَلَى سَنَنٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يُفَاضِلُ بَيْنَ مَرَاتِبِهِمْ عَلَى حَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَهُوَ الْقَضَاءُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[4] مِنَ الْقَائِلِ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ إِمَّا جَمِيعُ الْعِبَادِ وَإِمَّا الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى قَضَائِهِ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَإِنْزَالُ كُلٍّ مِنَّا مَنْزِلَتَهُ الَّتِي هِيَ حَقُّهُ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الزُّمَرِ لَمْ يَقْطَعِ اللَّهُ رَجَاءَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الْخَائِفِينَ الَّذِي خَافُوا".

عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالزُّمَرَ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

بانكُل تايونحَ

مَحتويات الكتاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء الثّاني عشر **52 – 19**

سُورَةُ النُّورِ		
﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾		
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾		
﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾		
﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهِ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾		

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾		
﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾		
﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾		
﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾		
﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾		
﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾		
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾		
﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهِ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهِ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾		
﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهِ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا		

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾		
﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾		
﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾		
﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾		
﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾		
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾		
﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهُنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾		
﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ		

إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾		
﴿وَلْيَسْ تَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنَ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾		
﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورُ عَلَى نُورُ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾		
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾		
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾		
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾		
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ		

وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾		
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مِنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾		
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾		
﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾		
﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾		
﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمِ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾		
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾		
﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾		
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾		
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾		

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾		
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾		
﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾		
﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾		
﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾		
﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا		

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾		
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾		
﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾		
سُورَةُ الْفُرْقَانِ		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾		
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾		
﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾		
﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض		

إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾		
﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا﴾		
﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾		
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾		
﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا﴾		
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾		
﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ		

		نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾
		﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾
		﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾
		﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾
		﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾
		﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾
		﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولًا﴾
		﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾
		﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾
		﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾
		﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾
		﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
		﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾		
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾		
﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾		
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾		
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾		
﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾		
﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾		
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاّ كُفُورًا﴾		
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾		
﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾		
﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾		
سُورَةُ فُصِّلَتْ وَتُسَمَّى السَّجْدَةُ		
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾		
﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ		

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾		
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾		
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾		
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾		
﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾		
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾		
﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾		

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾		
سُورَةُ الشُّعَرَاءِ		
﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾		
﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾		
﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾		
﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾		
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾		
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾		
﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾		
﴿قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾		
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾		
﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾		

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾		
﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾		
﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾		
﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾		
﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾		
﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾		
﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾		
﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾		
﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾		
﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾		
﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾		
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ		

		فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُ ونَوَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾
		﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾
		﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾
		﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾
		﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾
		﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾
		﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾
		﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمَعُونَ﴾		
﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾		
﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾		
﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾		
﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾		
﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ		

عَظِيمٍ﴾		
﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾		
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾		
﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾		
﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾		
﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ		

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾		
﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾		
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾		
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾		
﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾		
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾		
﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾		

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾		
﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾		
﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾		
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾		
﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾		
﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾		
﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾		
سُورَةُ الزُّمَرِ		
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾		
﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾		
﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾		

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾		
﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾		
﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾		
﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾		
﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾		
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾		
﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾		
﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ		

أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾		
﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾		
﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهِ الْمِيعَادَ﴾		
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾		
﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾		
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهُ ذَلِكَ هُدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَنْ هَادٍ﴾		
﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾		
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾		
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾		

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾		
﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾		
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾		
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهُ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾		
﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾		
﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾		
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾		
﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾		

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾		
﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾		
﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾		
﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾		
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾		
﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ		

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾		
﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾		
﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾		
﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾		
﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾		
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾		
﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾		
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾		
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾		

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾		

محتويات الكتاب **61 – 64**

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع